غير مخصص للبيع

الفيصل

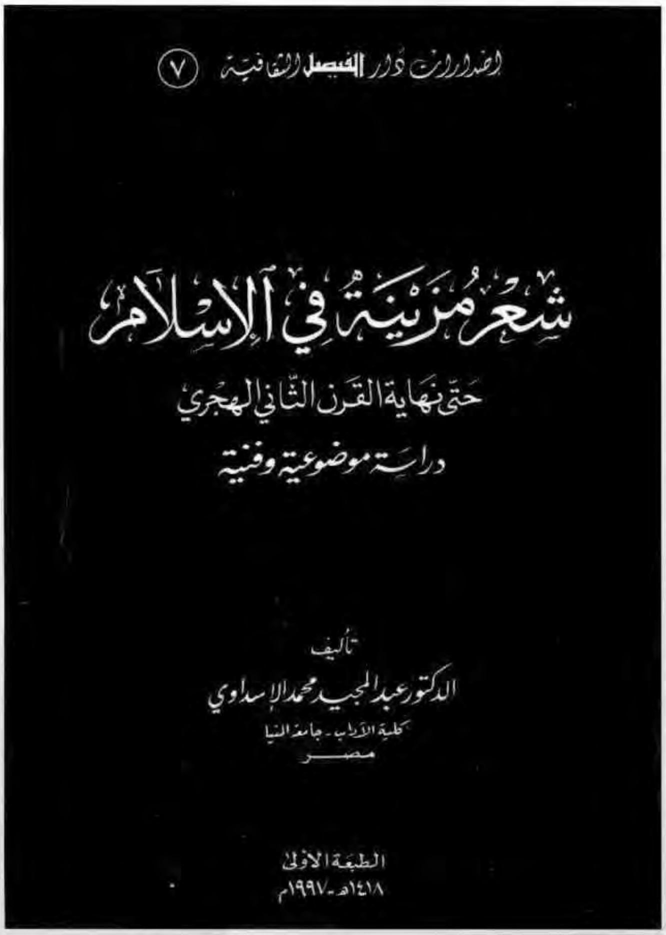
مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٦٦ - شعبان ١٤١٩هـ - نوفمبر/ديسمبر ١٩٩٨م
ALFAISAL MAGAZINE - No 266 - NOV./DEC. 1998

Mngool.com



ليل الرياض

صدر عن
دار الفيصل الثقافية



شعر مزينة في الإسلام حتى نهاية القرن الثاني الهجري

دراسة موضوعية وفنية

تأليف:

د. عبدالمجيد محمد الإسداوي

سعر النسخة: 25 ريالاً

ومن الإصدارات الأخرى للدار:

التعليم الابتدائي، د. سعيد بامشموس، ونورالدين عبدالجواد (**٣٠ ريالاً**). **التقويم التربوي**، د. سعيد بامشموس وآخرون (**٣٥ ريالاً**). **كيف تنجح في الامتحانات؟** ترجمة د. أحمد عبدالقادر المهندس (**٦ريالات**). **مدخل إلى علم الاجتماع**، د.محمد فايز عبد أسعيد (**٢٥ ريالاً**). **الفكر الاجتماعي الحديث**، د. محمد فايز عبد أسعيد (**٤٠ ريالاً**). **ديوان: الأرض والعشق**، علي أحمد النعمي (**٢٥ ريالاً**). **مظاهر في شعر طاهر زمخشري**، د. عبدالله أحمد باقازي (**٢٠ ريالاً**). **اللغة تدريسًا واكتسابًا**، د. محمود أحمد السيد (**٢٠ ريالاً**). **الشعر والموقف الانفعالي**، د. عبدالله أحمد باقازي (**١٨ ريالاً**). **دليل المؤلفات الإسلامية**، محمد خير يوسف (**٢٠ ريالاً**). **كشّاف الفيصل العام** (**٥٠ ريالاً**). **الأدب المقارن بين التجربتين الأمريكية والعربية**، د. علي شلش (**١٥ ريالاً**). **التكيُّف الاجتماعي والتحصيل الدراسي، دراسة ميدانية في البيئة الجامعية**، د. مصلح أحمد الصالح (**٢٥ ريالاً**). **المرجع في تدريس علوم الشريعة**، د.عبدالرحمن صالح عبدالله (**٢٥ريالاً**)، **جسم الإنسان في معاجم المعاني**، د. وجيهة السطل (**٢٠ ريالا**)

للاستفسار أو حجز نسخ من تلك الكتب: هاتف ٤٦٥٢٢٥٥ - فاكس ٤٦٥٩٩٩٣ - ص. ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ - المملكة العربية السعودية

مجلة ثقافية شهرية - السنة ٢٣- العدد ٢٦٦ - شعبان ١٤١٩هـ - نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٨م
ALFAISAL MAGAZINE - No266 - NOV/DEC.1998

المحتويات

علوم

إبداع

استشراق

فنون

جوائز

قراءات

الفيصل

الناشر: دار الفيصل الثقافية

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتَّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧ دراهم - قطر ٧ ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عُمان ٧٥٠ بيسة - الأردن ٥٠٠ فلس - اليمن ٦٠ ريالاً - مصر جنيهان - السودان ١٥٠ جنيه - المغرب ٨ دراهم - تونس دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - العراق ٤٠٠ فلس - سورية ٣٠ ليرة - ليبيا ٨٠٠ درهم - موريتانيا ١٠٠ أوقية - الصومال ٢٠٠٠ شلن - جيبوتي ١٥٠ فرنك - لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: **يحيى محمود بن جنيد**

مدير التحرير: **عبدالله يوسف الكويليت**

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ٠٢٥٨-١١٤٠



بمناسبة فوزه بجائزة الأغاخان للعمارة:

قصر طويق

التراث المعماري في ثوب عصري

إعداد: قسم التحرير

في احتفال أقيم بمدينة غرناطة الإسبانية، أعلن عن فوز قصر طويق في الرياض بجائزة أغاخان للعمارة لعام ١٩٩٨م، التي تعد من أكبر جوائز العمارة في العالم. وتبلغ القيمة المادية لها ١٥٠ ألف دولار.



منظر للقصر من الداخل

ترجع بداية إنشاء هذا القصر إلى عام ١٩٨٠م، حين نظمت الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض مسابقة معمارية لبنائه، فنال التصميم الذي قدمته كل من شركة «فري أوتو» الألمانية، ودار الدراسات العمرانية السعودية «عمرانية»، القبولَ، وذلك لاستعمال الشركة الأولى الخيام، ولما تضمّنه تصميم الثانية من مبنى متدرج يتداخل مع الأرض الطبيعية، فطلبت الهيئة تعاون الشركتين في تنفيذ القصر، الذي تمَّ الانتهاء من إنجازه في عام ١٩٨٥م.

وقد سبق لحي السفارات الذي يقع فيه قصر طويق الفوز بهذه الجائزة من بين ٢٤٠ مشروعًا على مستوى العالم، كما فاز الحي بجائزة منظمة المدن العربية في عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

وبناء هذا الحي جاء استجابة لما شهدته مدينة الرياض من نمو حضاري يتناسب مع كونها عاصمة البلاد، مما استوجب وجود المؤسسات الحيوية بها، ومن بينها وزارة الخارجية والبعثات الدبلوماسية التي انتقلت إليه من مدينة جدة.

وروعي في إنشاء هذا الحي أن يتضمن الخدمات العامة في المنطقة المركزية، استلهامًا من التراث المعماري الإسلامي، ووضعه في قالب عصري يزاوج بين جماليات العمارة الإسلامية والنواحي الوظيفية لمكونات هذا الحي ومرافقه المختلفة، ليأتي بذلك طابعه المعماري معبرًا عن تراث المنطقة، ومبرزًا خصوصيتها الثقافية، فكان قصر طويق من أهم المنشآت المعمارية المعبرة عن ذلك التراث، وتلك الخصوصية.

ويطل هذا القصر الذي تبلغ



منظر عام لقصر طويق مأخوذ من الجو يوضح جزءاً من المنطقة المحيطة به

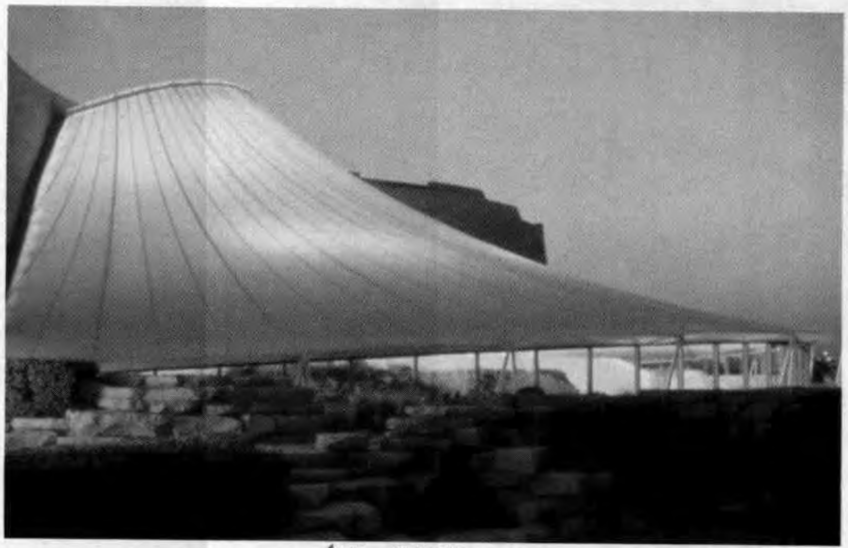
مساحته ٧٧ ألف متر مربع على وادي حنيفة أشهر أودية منطقة الرياض، وهو محاط بفرعين صغيرين منه.

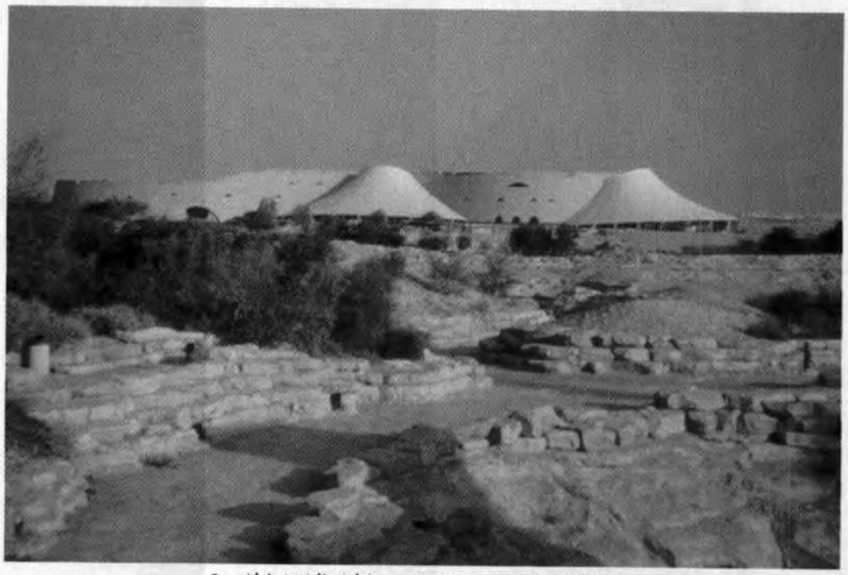
أقيم القصر في منطقة صحراوية تتناثر فيها بعض الشجيرات التي تنمو في مثل هذه البيئة.

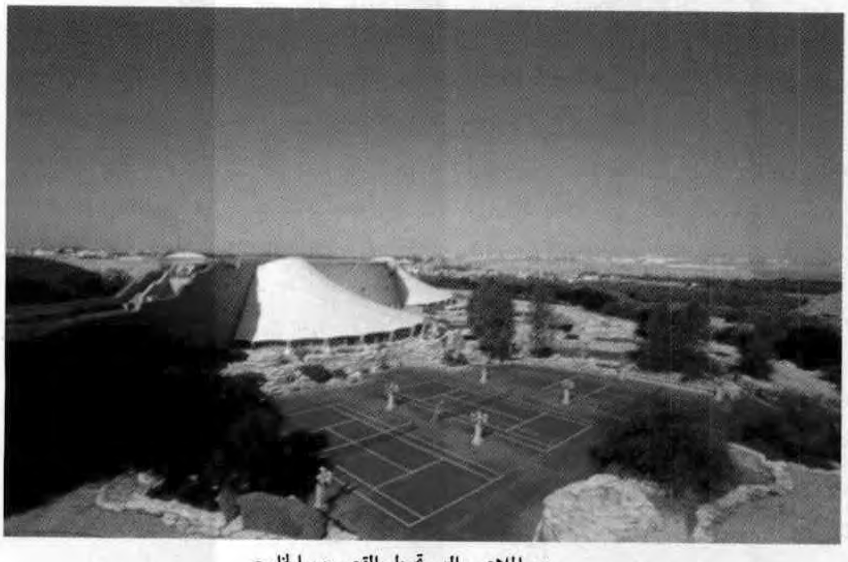
وكان من الضروري أن يتخذ القصر طابعًا معماريًا معبرًا عن تلك البيئة الصحراوية التي تغلب على منطقة الرياض المعروفة بمناخها الحار صيفًا، والبارد شتاء، وما تشهده من أمطار شتاءً، فكان أن أنشئ القصر في شكل جدار ضخم يمتد بطول ٨٠٠ متر، ويتراوح سمكه بين ٧ و ١٣ مترًا، ويصل ارتفاعه إلى ١٢ مترًا، وهو يحيط بالحديقة الداخلية لحمايتها من العوامل الطبيعية؛ إذ بني الجدار بخرسانة سمكها ٣٠ سنتيمتراً، وغُطِّي من الخارج بمادة عازلة، ثم بقطع من الحجر الطبيعي سمكها ٢٤ سنتيمتراً، ومثبتة ببلاط سمكه خمسة سنتيمترات، وتثبت ركائز حديدية طبقتي الجدار الخرسانية والحجرية، ويقصد هذا الأسلوب في البناء إلى



الحديقة الداخلية وتبدو فيها النباتات وبركة الماء


إحدى الخيام الخارجية ليلاً


المنطقة المحيطة بالقصر وخيمتان من الخيام الثلاث الخارجية


من الملاعب التي تحيط بالقصر من الخارج

حماية القصر من حرارة النهار والاحتفاظ ببرودة الليل لمدة طويلة.

وتحيط بالقصر من الخارج حديقة تضم بعض فصائل الأشجار والنباتات الصحراوية التي هُيِّئ لها المناخ المناسب، وتمّ تصميم مكونات هذه الحديقة من مصاطب ومدرجات ومقاعد للجلوس منحوتة في الصخور، بحيث تبدو منسجمة مع البيئة الطبيعية.

ومن مظاهر التآلف بين القصر والبيئة المحيطة تشابه فتحات جداره بأشكالها المقوسة مع فجوات الصخور على جانب الهضبة، وكون المواد المستخدمة في البناء من رخام وحجر من المواد المحلية التي تتواءم مع الألياف الزجاجية وحبال الفولاذ بلا أدنى تناقض، كما أن مكونات القصر من الداخل تنسجم مع مظاهر البيئة الطبيعية في الخارج، فالجدران الحجرية تمتد من الخارج إلى الداخل، وتشكل الأسقف والأرضيات امتداداً داخليًا لمواد مستخدمة في الخارج، وتمّ استعمال الصخور في تنسيق الموقع ليعطي تناسبًا مع مظهر الأرض في المنطقة.

ويحيطُ جدارُ القصر حديقةً داخلية بها مجموعة كبيرة من نباتات الزينة المورقة والمزهرة التي توجد في وسط أشجار النخيل وشلالات المياه.

وفي وسط الحديقة، خيمة يبلغ ارتفاعها سبعة أمتار، وقطرها ١٧ متراً، وهي تضم أماكن للجلوس وبركة ماء.

وهذه الخيمة مبنية من حبال الفولاذ، وسقفها المغطى بألواح زجاجية مرفوع على حامل بثلاثة قوائم، ومدعوم بعمود فولاذي ارتفاعه ٣ر٧ من الأمتار يتوسط الخيمة.

ويقع المدخل الرئيس للقصر في عمق هذه الخيمة، وذلك تحت خيمة





الخيمة الداخلية ونباتات زينة بين أشجار النخيل في حديقة القصر





مجلس عربي تحت إحدى الخيام الداخلية

من الفـولاذ مـغطاة بقطع مـن الخـزف الأزرق من الخارج، وبألواح خشبيـة من الداخل، ويؤدي المدخل إلى بهو القصر الذي يتشكل من سقف خشبي وجدران حجرية وأرضية مغطاة بالرخام.

وتقع تحت الخيمة الداخلية الأخرى قاعة واسعة متعددة الأغراض تطل على الحديقة الداخلية، وتتصل بعناصر القصر الأخرى، ومزودة بأحدث الأجهزة السمعية والبصرية.

وتوجد على جدار القصر من الخارج ثلاث خيام ذات لون أبيض، يتباين مع لون الجدار، ولون الأرض المحيطة بها، ويبرز بذلك نموذجان من العمارة التقليدية، هما الحصن بجدرانه المرتفعة والممتدة طولاً وعرضًا، والذي يمثل أبرز معالم الرياض القديمة، والخيمة التي تشكل مفردة مهمة من مفردات البيئة الصحراوية.

وتغطي هذه الخيام ثلاث قاعات تتنوع استخداماتها، وتبلغ مساحة كل واحدة منها ١٦٠٠ متر مربع، وهي مرتبطة بعناصر القصر الداخلية.

وتطل إحدى هذه القاعات على الجهة الشمالية الغربية من وادي حنيفة، وتتكون من عدة مستويات، ويتوسطها مسطح مائي.

أما القاعة الثانية، فتطل على الجهة الشمالية من الوادي، وتتصل بالمطبخ الرئيس في الدور تحت الأرضي، كما أنها متصلة بثلاث قاعات للجلوس، بها حوائط زجاجية، وتتسع لنحو ٦٠ شخصًا.

وتطل القاعة الثالثة على الجهة الغربية من الوادي، وتضم في الدور تحت الأرضي جناحًا يشتمل على ملاعب رياضية، ففيه ملعب للبولينج، وملاعب للإسكواش، وحمامات بخار، وغرف للتدليك، وغيرها.

وأقيمت ضمن الجدار المكون لجسم القصر دار للضيافة على ثلاثة مستويات، وتتكون من أربعة أجنحة وعشرين غرفة، تطلّ جميعها على الوادي، كما يقع ضمن الجدار مدرج المحاضرات الذي يتسع لنحو ٢٠٠ مقعد مزودة بأجهزة العرض الضوئي والترجمة الفورية، وأجهزة صوتية متطورة.

والقصر مزود بنظام آلي لتشغيل الأجهزة الكهربائية والميكانيكية وضبطها. وتحيط به مواقف للسيارات وبعض الملاعب الرياضية والمسابح.

ويعد القصر بمكوناته المتعددة الاستخدامات مُهَيَّأً لإقامة الأنشطة الاجتماعية والثقافية مثل الاحتفالات والمناسبات الرسمية، واحتفالات البعثات الدبلوماسية، والمعارض العلمية والثقافية والفنية، والندوات والمحاضرات الثقافية وغيرها.

مصدر الصور:

الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض.

أقوال الماضي للحاضر

اللغة مصدر فخر



عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

اللغة في أي أمـة ذات أهميـة كبرى، فلا أحد يستغني عن لغتـه، أو يعيش من دونها، فـهي لازمة للحيـاة، إذ هي وسيلة أداء، على إثرها تأتي المعيشـة، ويُكتسب النفع، ويُدفع الضرر، وبإتقانهـا يحسن ذلك، ويأتي بالمراد كاملاً غير منقوص.

واللغـة مصـدر فخـر واعتـزاز، لما فيهـا من تمييـز أمة من أخرى، ويتبـع اللغـة الفكر، فـهمـا متـرابطان، ومـا دامت الـلغـة وعـاء الفكر ودليـله، والفكر نبيل وشريف، وجبت العناية بهـا، وذلك بـالمحـافظة على أصـولهـا المميـزة لها، الحامية لقوتهـا، وبالسعي لتطويرها ونموها، وجعلهـا تساير تطور الحيـاة واختـلافهـا مع مـرور السنين والقرون، ويكون ذلك بالمبادرة المواتية والسرعـة اللائقـة بهـذا الأمـر المهم، حتى لا يكون هناك ثغرة يدخل بهـا هواء فـاسـد، إذ إنه لو دخل لـكان سوسة نخرة، يصعب التخلص منها.

واللغـة كـائن حي يكاد يتنفس، ويتـغـذى ويمرض، ويطول ويقصر، ويكون عملاقًا أو قزمًا، واللغة في هذا صورة أهلها، إن قَوُوا قويت، وزاحمت غيرها، وإن ضعفوا ضعفت، وزاحمها ما هو أقوى منها، واستكانت لهذه المزاحمة، وسلّمت لأصحابها. وبهذا يغلبـها غيرها، ويظلمـها سواها، فيرثى لـها؛ والضعف إذا بدا فشـا، وإذا فشا فـالانحدار سريع، وقـد لا يُوقف حتى يصل بها إلى الـقاع. وقد تموت اللغـة، ولا يبقى لهـا إلا آثار تلوح في المعـاجم، كالوشم في ظاهر الـيد، وقـد تبهت الـصورة في هذه الآثار، حتى لا يصبح بالإمكان تتبع أصلها.

لهذا حـرص علماء اللغـة العربيـة على المحافظة عليـها، بكل الوسـائل الـتي بين أيديهم، فـألـفـوا في ذلك كـتـبًـا تحث على المحـافظة عليهـا، وملؤوها بما يشـجع على ذلك وبجـذب الناس إليه، وذكـروا أن اللغة العربيـة هي وعاء الدين، بهـا نزل القرآن، ودُوِّنت السنة المطهـرة، واهتمـوا بالمعاجم لما لهـا من أهميـة في الحفـاظ على اللغة العربية، وكشفٍ عن سعتها وغناها، وجلاء ما قد يغمض فيها من مفردات.

ولم يتـركوا وسيلة من الوسائل التي تنفعـها إلا اتخـذوها، مـحافظة عليهـا، وبناء أسوار من الحـمايـة أمام مـا قـد يهـدد بإضعافها، قصدًا، أو دون قصد.

ومن يتـابع ما سبق أن كـتب في هذا للوصول إلـى الهدف بحماية اللغة وتقـويتها يدهش من الجهود المتعاونة، واليقظة المتناهية، احتسابًا وطلبًا للأجـر والثـواب، وغيـرة دينيـة ووطنيـة، وتبرئة للذمـة، وإرضاءً للضـمير، ونشـهد أنهم لم يدخروا وسعًا، ولم يتـركوا سبيلاً إلا بذلوا فيه منتهى ما لديهم من طاقة.

ولم يكن الأمـر يقـتصـر على علمـاء اللغة العربية، والمتخـصصين فيها، بل جاء الاهتـمام من جـميع الـطبقـات والفئـات الواعيـة في المجـتمع، من مـدرسين مع تلاميـذهم، ومـن آباء مع أبنائـهم، والأمـهـات مع بناتـهن، ومن رؤسـاء مع مـرؤوسيـهم، ومن قـادة لجندهم، ومن خلفاء لرعاياهم، ويأتي في مقدمة هؤلاء عـمر بن الخطاب، الذي رأى مـرة خـيبـة بعض الـشبـاب المتـراهـنين في إصـابة الـهـدف في الرمي بـالقـوس، وسـمـعـهـم يلحنون في اللغة، فأفهمـهم أن مصيبتهم في لغتهم أكبر من مصيبتهم في الرماية.

وسـوف نذكـر نصًا مـضيئًا يكشف عمـا يدور في ذهن خليفة عـرف قدر اللغة، ومـا يجب لها من حمـاية، وما تحـدث به معَ أبنائه بصدد هذا، من كلمـات فيـها بريق عاطفة وفكر، وإشعاع نخوة، وصفاء دين، ووضوح وعي، وسمو إدراك؛ صيغ هذا كله في كلمـات نبيلة، وجمل تليق بما هو متكلم عنه، وتتناسب مع شرفه:

«قـال المأمـون لأحد أولاده ـ وقـد سـمع منه لحنًا ـ مـا على أحدكم أن يتـعلم العربية، فـيقيم بهـا أَوَدَهُ، ويزين بها مشـهده، ويفلّ بهـا حجـج خصمـه بمسكتات حُكمـه، ويملك مـجلس سلطانه بظـاهر بيـانه أَوَيَسُرُّ أحـدَكم أن يكون لسـانُهُ كلسـان عبده، أو أَمَته، فلا يزال الدهرَ أسيرَ كلمته؟

قاتل الله الذي يقول:

ألم ترَ مـفـتـاحَ الفـؤاد لسـانَهُ
إذا هو أبـدى مـا يقــول من الـفم
وكائِن ترى من صاحبٍ لك معجب
زيادتُـه، أوْ نقــصُــه في التكـلم
لسـانُ الفـتى نصفٌ ونصفٌ فـؤادُه
فلـم يبقَ إلا صــورةُ اللحم والدم

(بهجة المجالس: ١/٦٤)

صداع العقول



أبو عبدالرحمن
ابن عقيل الظاهري

بين القياس المنطقي والأصولي

قال أبو عبدالرحمن: سبق لي مباحث قررت فيها بالبراهين والاستقراء أن أرسطو لم يؤلف المنطق لإظهار الحقيقة ابتداء، ولم يؤلفه لعصمة الذهن من الخطأ بإطلاق، وإنما ألفه لنقض الشبه والأقيسة السوفسطائية الشائعة في عصره؛ ليظهر حقائق ثابتة في ذاتها لا يؤثر فيها التلبيس السوفسطائي، وليس الغرض أن الحقائق تفتقر إلى منطقه بالجملة، وليظهر فساد المغالطات السوفسطائية، وهي أقيسة معينة، ليعصم الذهن منها ذاتها.

ولقد غلطت الأجيال فظنت أنه أراد أن يكون منطقه قانونًا للمعرفة بإطلاق؛ ثم لما رأوا قصور منطقه وفضوله انبرى قلة من المفكرين لنقض منطقه، ولكنهم في نقضهم حملوا منطقه على غير مراده.

وممن أمعن من علماء المسلمين في نقضه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ومن كلامه عن القياس المنطقي قوله: «والقياس استدلال بكلي على ثبوت كلي آخر لجزئيات ذلك الكلي. وإذا قالوا في القياس: يستدل بالكلي على الجزئي: فليس الجزئي هو الحكم المدلول عليه، وإنما الجزئي هو الموصوف، المخبر عنه، محل الحكم؛ فهذا قد يكون أخص من الدليل، وقد يكون مساويًا له، بخلاف الحكم الذي هو صيغة هذا(١)، وحكمه الذي أخبر به عنه؛ فإنه لا يكون إلا أعم من الدليل، أو مساويًا؛ فإن ذلك هو المدلول اللازم للدليل، والدليل هو لازم المخبر عنه الموصوف.

فإذا قيل: النبيذ حرام؛ لأنه خمر، فكونه خمرًا هو الدليل، وهو لازم للنبيذ، والتحريم لازم للخمر(٢).

والقياس المؤلف من المقدمتين إذا قلت: النبيذ المتنازَع فيه مسكر أو خمر، وكل مسكر أو كل خمر حرام: فأنت لم تستدل بالمسكر، أو الخمر الذي هو كلي على نفس محل النزاع الذي هو أخص من الخمر، وهو النبيذ(٣)، فليس هو استدلالاً بذلك الكلي على هذا الجزئي، بل استدللت به على تحريم هذا النبيذ، فلماذا كان تحريم هذا النبيذ مندرجًا في تحريم كل مسكر؟ قال من قال: إنه استدلالٌ بالكلي على الجزئي(٤). والتحقيق أن ما ثبت للكلي فقد ثبت لكل واحد من جزئياته؛ والتحريم هو أعم من الخمر، وهو ثابت لها، فهو لكل فرد من جزئياتها، فهو استدلال بكلي على ثبوت كلي آخر لجزئيات ذلك الكلي، وذلك الدليل هو كالجزئي بالنسبة إلى ذلك الكلي الذي هو الحكم، وهو كلي بالنسبة إلى تلك الجزئيات التي هي المحكوم عليها»(٥).

قال أبو عبدالرحمن: ذكر شيخ الإسلام المقدمتين، ولم يذكر نتيجتهما، والنتيجة: فالنبيذ حرام.. إذن المقدمتان أثبتتا الواقعة، وهي السكر في النبيذ، وأثبتتا حرمة المعنى الكلي، وهو السكر، بغض النظر عن اسم ما هو مسكر.

وشيخ الإسلام أقرَّ بالاستدلال بالكلي الذي هو تحريم الخمر على حرمة النبيذ؛ فلا معنى لقوله: لم تستدل بالمسكر على محل النزاع الذي هو أخص من الخمر وهو النبيذ.. وكيف يكون لهذا القول معنى وإحدى المقدمتين أثبتت أن النبيذ خمر، وأثبتت الثانية أن كل خمر ـ مهما كان الاسم لما فيه خمر ـ حرام؟!.

إذن النتيجة الضرورية خمرية النبيذ وحرمته معًا.

إن التحريم مطابق للمعنى الذي هو السكر أو الخمر. أما المسميات والأسماء كالنبيذ وإن لم يسم خمرًا، وما اصطلح على تسميته خمرًا، وما استجدت أسماؤه من العرق والجن والفتقة والشمبانيا والويسكي: فالحرمة ثابتة للمعنى الذي فيها وهو الخمر

والسكر؛ فلا يقال التحريم أعم من الخمر من هذه الجهة.. أي جعل الخمر كليًا له أفراد، بل هو خمر فحسب لا أفراد له، وهو محل الحكم، وإنما العموم من جهتين:

أولاهما: أن التحريم أعم من الخمر؛ لأن هناك محرمات كثيرة غير الخمر.

وثانيهما: محل المحل، أي المحل لمحل الحكم كالأشربة من الشعير والعنب والبصل والتفاح إلخ.. باسم خمر أو نبيذ أو شمبانيا؛ فتحريم الخمر أعم من محل الخمر، فيشمل ما سمي خمراً صراحة، ويشمل ما فيه الخمر، وإن لم يسم خمراً صراحة كالنبيذ.

وجواب قول شيخ الإسلام: «فهو استدلال بكلي على ثبوت كلي آخر لجزئيات ذلك الكلي»: أن يقال: بل هو استدلال بمعنى كلي وهو السكر أو الخمر على معنى جزئي وهو محل الخمر؛ لأن الخمر غير متعين في النبيذ وحده، ولم يشرح شيخ الإسلام معنى قوله: «استدلال بكلي على ثبوت كلي آخر لجزئيات ذلك الكلي»، ولم يصور مراده بمثال مفهوم؛ ولهذا أحدد مراده من مجرى سياقه على الرغم من الغموض والتعقيد، فأقول: يرى شيخ الإسلام أن الحكم الذي هو التحريم أعم من المحكوم فيه (أي محل الحكم) وهو الخمر، يبين ذلك قوله السابق: «التحريم أعم من الخمر»، إذن الحكم كلي، وإذن المقدمتان السابقتان استدلال بكلي وهو التحريم على ثبوت كلي آخر (وهو الخمر) لجزئيات ذلك الكلي (وهو النبيذ)، يبين هذا من قوله «تحريم النبيذ مندرج في تحريم كل مسكر»، وقوله عن الخمر وثبوت التحريم لأجزائها: «وهو ثابت لها؛ فهو لكل فرد من جزئياتها».

قال أبو عبدالرحمن: هذا هو محصول تفريع شيخ الإسلام رحمه الله، وعليه المؤاخذات التالية:

ـ القياس المنطقي هكذا «النبيذ مسكر، وكل مسكر حرام: إذن النبيذ حرام»، والنتيجة تحصيل حاصل، إلا أنها أنتجت تعلق الحرمة بالمعنى وهو الإسكار أو الخمرية لا بتسمية المحل.

والقياس ههنا أنتج الاستدلال بكلي ـ وهو: كل مسكر حرام ـ على جزئي وهو النبيذ؛ لأن المسكر أعم من النبيذ.

والكلية ههنا في واقعة الإسكار؛ لأن السُّكْر الذي يتعلق به الحكم أنواع؛ ولأن المسكرات أنواع.. وليست الكلية للحكم الذي هو الحرمة؛ لأن حرمة السكر واحدة، وليست أنواعًا.

إذن ليس التحريم أعم من الخمر كما قال شيخ الإسلام، إلا

ليس الخلاف في كون علل أهل القياس عللاً حقيقة أو أمارات، وإنما محل الخلاف الدعوى بأنها شرعية

بالوجه الخارج عن محل النزاع الذي ذكرته آنفًا، وهو أن المحرمات أكثر من الخمر. وإذا حرمنا النبيذ؛ فلا نقول: التحريم أعم من الخمر؛ بحيث يشمل ما يسمى خمرًا، وما لا يسمى خمرًا كالنبيذ، بل نقول: التحريم مطابق للخمر الذي هو معنى وصفةٌ (وهو السكر)، فالنبيذ خمر بالمعنى والصفة ـ بغض النظر عن التسمية ـ، والتحريم لهذا المعنى الذي هو الخمرية والإسكار.

ـ النبيذ ليس جزءًا من أجزاء الخمر، بل هو محل من محلاتها؛ فلا جزئيات للخمر بحيث يقول شيخ الإسلام: «التحريم لكل فرد من جزئيات الخمر».

ـ المحكوم فيه واحد وهو السُّكْر، والمسكرات متعددة، والتحريم يشملها؛ لأن النص على المعنى الذي يوجد بمحلات، وليس النص على محل دون محل.

ـ المقدمة «كل مسكر حرام» دلت على كلي آخر، وهو أن المسكر كلي؛ وذلك ما عبر عنه شيخ الإسلام بقوله: «استدلال بكلي [يعني: كل مسكر حرام] على ثبوت كلي آخر [يعني أن المسكر كلي] لجزئيات ذلك الكلي، يعني أن كلية المسكر تقتضي أن للمسكر أجزاء.

قال أبو عبدالرحمن: إلا أن الكلية لا تعني الجزئية ولا النوعية؛ فليس نبيذ العنب جزءًا من نبيذ الشعير، ولا نوعًا منه، وإنما تعني تعدد محلات الواقعة المحرمة، أي تعدد المحلات لمحل الحكم الذي هو الإسكار.

قال أبو عبدالرحمن: وبعد هذا التشقيق، وبعد هذا العناء في فهمه: لا تجد ثمرة تمنع من كون القياس المنطقي استدلالاً بكلي على جزئي.

والدليل هو السكر الموجود في النبيذ الدال على حرمته، وقد عدّ شيخ الإسلام الدليل جزءًا بالنسبة إلى الحكم بقوله: «وذلك الدليل هو كالجزئي بالنسبة إلى ذلك الكلي الذي هو الحكم».

والحكم هو الحرمة؛ وعلى هذا يكون السكر أخص من الحرمة. وهذا كلام غير معقول، فالحرمة منصبة على السكر بلا تجزئة، وإنما أراد المسكر ـ محل الدليل، لا الدليل نفسه؛ فهو أخص من الحرمة الشاملة لكل مسكر. ومع هذا المراد فالكلام غير محقق؛ لأن انطباق التحريم على المسكر كانطباقه على الإسكار، وإنما تتحقق الخصوصية لو قال: «وذلك النبيذ الذي هو محل الدليل جزئي بالنسبة... إلخ»؛ لأن التحريم يعم النبيذ وكل مسكر مهما كان اسمه.

غلطت الأجيال، فظنت أن أرسطو أراد أن يكون منطقه قانونًا للمعرفة بإطلاق

الكلية لا تعني الجزئية ولا النوعية، فليس نبيذ العنب جزءًا من نبيذ الشعير، ولا نوعًا منه

وحكَم شيخ الإسلام بأن الدليل - وهو الإسكار - كلي بالنسبة إلى الجزئيات المحكوم عليها، ومعنى ذلك أن الإسكار أعم من المحلات - التي سماها ابن تيمية جزئيات - كالنبيذ؛ فيشمل النبيذ، وما خمَّر من المشروبات الأخرى. وهذا التعميم فاسد التصور؛ فلا يقال: الإسكار أعم من النبيذ؛ لأن الإسكار معنى موجود في النبيذ، وإنما يقال: المسكرات أعم من النبيذ؛ لأن العموم والخصوص (فيما أسلفت) يتعلق بالمحل لا بالحال.

وقال شيخ الإسلام بعدما سلف من كلامه مباشرة: «وهذا مما لا ينازعون فيه(٦)؛ فإن الدليل هو الحد الأوسط، وهو أعم من الأصغر أو مساوٍ له، والأكبر أعم منه أو مساوٍ له، والأكبر هو الحكم، والصفة، والخبر، وهو محمول النتيجة، والأصغر هو المحكوم عليه، الموصوف، المبتدأ، وهو موضوع النتيجة(٧). وأما قولهم في التمثيل: إنه استدلال بجزئي على جزئي: فإن أُطلق ذلك، وقيل: إنه استدلال بمجرد الجزئي على جزئي فهو غلط؛ فإن قياس التمثيل إنما يدل بحد أوسط، وهو اشتراكهما في علة الحكم، أو دليل الحكم مع العلة؛ فإنه قياس علة، أو قياس دلالة.

قال أبو عبدالرحمن: نضرب المثال بأحد أمثلة أهل القياس، وهو غسل الإناء سبعًا من ولوغ الكلب؛ لأنه سَبُعٌ مستقذر موبوء؛ فيقاس عليه الخنزير. فالحد الذي يريده شيخ الإسلام السبعية والقذارة والوباء. والمثال ههنا شرعي، وليس طبيعيًا؛ فلا تكون القذارة والوباء والسبعية حدًا أوسط إلا بدليل ينص على أن حكم الغسل سبعًا معلّق بهذه الأمور وصفًا أو علة، فحينئذ يكون القياس شموليًا لا تمثيليًا. ومثال القياسيين ههنا لم يقم على دعوى أن الوصف أو العلة منصوص عليهما؛ فعاد الأمر إلى تمثيل جزء بجزء لعلة مدَّعاة على الشرع، وليست من كلياته.

وقياس العلة عند الأصوليين أن يكون الأمر الجامع بين المقيس والمقيس عليه علة للحكم فيهما علمت بالنص، أو الإجماع، أو الاستنباط، أو العقل.

وأما قياس الدلالة فهو الجمع بينهما بملزوم العلة مثل إلحاق النبيذ بالخمر في التحريم بجامع الشدة المطربة؛ فهي ملزومة من الإسكار الذي هو العلة، أو بأثر من آثار العلة مثل إلحاق القتل بالمثقل بالقتل بالمحدد في القصاص بجامع الإثم؛ لأن الإثم أثر العلة التي هي القتل العدوان، أو بحكم من أحكام العلة كجواز رهن المشاع قياسًا على جواز بيعه بجامع جواز البيع.

ويرى أبو المعالي الجويني(ت:٤٧٨هـ) في البرهان أن: قياس الدلالة ليس قسمًا على حدة، بل هو تارة قياس علة، وتارة قياس شبه(٨).

وقال أبو الوليد الباجي(٤٧٤هـ): «وأما قياس الدلالة فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: أن تستدل بحكم من أحكام الأصل موجود في الفرع على دخول الفرع في حكم الأصل، وذلك مثل قولنا في سجود التلاوة: إنه نافلة؛ لأنه لا سجود يفعل على الراحلة في السر؛ فوجب أن يكون نافلة كصلاة النافلة.

والضرب الثاني: أن يستدل بثبوت حكم يشاكل الحكم المختلف فيه في الفرع على إثبات الحكم المختلف فيه نحو قولنا: إن كل شخصين جرى بينهما القصاص في الأنفس، فإنه يجري بينهما القصاص في الأطراف كالرجلين.

والثالث: قياس الشبه، وهو أن يحمل الفرع على الأصل بضرب من الشبه، وهذا مثل استدلالنا على أن العبد يملك بأنه آدميّ حي فجاز أن يملك كالحر.

وقد أنكر الاستدلال بهذا القياس جماعة من المثبتين للقياس من أصحاب الشافعي وغيرهم، وأكثر شيوخنا على أنه صحيح.

والدليل على ذلك: أن العلل الشرعية ليست بعلل في الحقيقة، وإنما هي علامات وأمارات بالموضع، ولا فرق بين أن يجعل شبه الفرع بالأصل دلالة على لحاقه به في حكم من الأحكام، وبين أن يجعل العلامة والدلالة علة.

ودليل ثان: وهو أنا قد بيَّنا أن قياس العلة وقياس الشبه معناهما واحد، وإنما الفرق بينهما أن الحكم معلق على أحدهما على سبيل العلة، وفي الآخر على سبيل العلامة، ولا فرق بين أن يقول صاحب الشرع: «العبد يملك؛ لأنه مكلف كالحر»؛ فيخرج ذلك مخرج العلل، وبين أن يقول: «هذا مكلف، فوجب أن يملك كالحر»؛ فيخرجه مخرج الدلالة والتشبيه بالحر؛ ومما يدل على ذلك رسالة عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري التي هي أصل في إثبات القياس؛

لتلقي الناس لها بالقبول، وإجماعهم على صحة العمل بها: الفهمَ الفهمَ في ما تلجلج في نفسك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقس عند ذلك على أشبهها بالحق!.

أما هم فاحتج من نصر قولهم بأن قالوا: قد اتفق الكل على أن قياس العلة أقوى وأثبت من قياس الشبه، وقد علم أن الصفة التي تُرصد لتعليل الحكم بها لو وجدت، وعلم أنها ليست بعلة للحكم لوجب إفسادها وانتقاض كونها علة؛ ولم يجز تعليق الحكم عليها؛ فكذلك إذا اعترف القائلون بوجوب الحكم لعلة الأشباه: إن تلك الأشباه ليست بعلة لثبوت الحكم ولا له تعلق بها؛ فوجب أن يحكم بفسادها.

والجواب: أنه لا فرق بين الموضعين، ومتى لم يدل على تعليق الحكم بتلك الأشباه، فلا يجوز تعليق الحكم بها. كما أنه إذا لم يدل الدليل على تعليق الحكم بالعلة لم يجز تعليق الحكم بها، وإنما ذلك بحسب الدليل؛ فلا فرق بينهما.

واستدلوا على ذلك بأن ما من فرع إلا وهو يشبه الأصل من جهة، ويخالف الأصل من وجه آخر، وليس الجمع بينهما لأجل اشتباههما بأولى من التفريق بينهما لأجل اختلافهما، وهذا يؤدي إلى أن نثبت فيه الأحكام المتضادة.

والجواب: أن هذا غلط؛ لأنه لا يقول: «إنه بمجرد الشبه يحكم له بحكم الأصل، وإنما يجب ذلك إذا دلّ الدليل على أن الجمع بينهما لأجل الشبه أولى من التفريق بينهما لأجل الاختلاف. وليس أحد من محصلي من يقول بقياس الشبه يوجب حمل الفرع على كل ما بينهما شبه؛ لأنه يشبه أصولاً كثيرة مختلفة متضادة؛ فثبت أن الجمع بينهما إنما يكون بعد الدليل المثبت لغلبة الظن؛ فبطل ما تعلقوا به»(٩).

قال أبو عبدالرحمن: ليس الخلاف في كون علل أهل القياس عللاً حقيقة أو أمارات. وإنما محل الخلاف الدعوى بأنها شرعية؛ وبهذا تعرف أن القياس منهج بحث عن البرهان، وليس برهانًا في ذاته. وإذن كل ما نسب إلى الشرع من علل القياسيين يحتاج إلى دليل شرعي على أنه علة أو أمارة معتبرة شرعًا.

ولا مجال لقول أبي الوليد رحمه الله: «ولا فرق بين أن يجعل شبه الفرع.. إلخ»: فهذا مسلم له؛ لأن ربنا يحكم بما يشاء في شرعه، ويفعل ما يريد في خلقه، وإنما محل النزاع البرهان الشرعي على أن الشرع اعتبر تلك الدلالات أو العلة.

وما سماه أبو الوليد دليلاً ثانيًا هو نفسه جزء من الدليل الأول.

قال أبو عبدالرحمن: ورسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ثابتة حجة بخلاف ما ذهب إليه الإمام أبو محمد بن حزم، ولكن ليس فيها أن الأشباه والأمثال ثابتة الحكم بعقولنا؛ بل المراد الأشباه والأمثال التي لا تنطوي على فارق مؤثر معتبر شرعًا، وذلك عندما يرد النص على المعاني دون الأسماء، فإذا حرم الله المسكر فكل ما أسكر من ذي أسماء قديمة أو حادثة كالعرق والويسكي فهو شبه ومثال؛ لأن النص على السكر، وعلى أن كل مسكر خمر؛ فلا عبرة بتغاير الأسماء والمحال التي صنع منها السكر. والشرع المطهر يقيس الحكم الشرعي على الحكم الشرعي؛ لبيان عدم الفارق المعتبر شرعًا.

ويجل الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يُفهم كلامه مثلاً على أن تشابه الكلاب والسباع في بعض الأوصاف الخلقية، يعني أن حكمها واحد فيما ورد حكمه خاصًا بالكلب باسمه.. والأشبه بالحق مقتضٍ، ولكن لابد من تخلف المانع، وهو أن لا يكون في الأشبه مانع من الإلحاق.

والباجي ـ رحمه الله ـ عاد في آخر كلامه إلى القول بأن المعتبر الدليل. فكفى بهذا الاستدراك دليلاً على أن القياس منهج بحث عن دليل، وليس هو الدليل ذاته.

والقياس يفضي إلى أحد أمرين لا ثالث لهما:

أولهما: وجود فارق مؤثر شرعًا أو عقلاً؛ فالحكم في إسقاط التسوية للمؤثر الفارق، فهو الدليل.

وثانيهما: انتفاء الفارق شرعًا أو عقلاً؛ فالتسوية للانتفاء المؤثر، فهو الدليل.

والمراد بكلمتي «عقلاً» أن العقل ليس عنده احتمال آخر، بل هو على اليقين، ونتائج العقول إذا تعينت وتحتمت حجج قاطعة.

الهوامش

١ـ التصحيح من مجموع فتاوى شيخ الإسلام المتضمن نقض المنطق، وهو مختصر الرد على المنطقيين.. وفي تحقيق رفيق العظم: الذي صفة هذا.

٢ـ تقول: الدليل على حرمة النبيذ أنه خمر، والدليل على حرمة الخمر النص الشرعي.

٣ـ التصحيح من مجموع الفتاوى.. وعند العظم: هو النبيذ.

٤ـ وهذا هو الصواب.

٥ـ الرد على المنطقيين ١/٢٠٣/تحقيق الدكتور رفيق العظم.

٦ـ نعم لا ينازعون، ولكن شيخ الإسلام نازعهم بتفريعاته التي مر نقاشها.

٧ـ من القياسات المنطقية «كل إنسان حيوان، وكل حيوان جسم: إذن كل إنسان جسم».. فالحيوان حد أوسط؛ لأنه موضوع النتيجة (أي المحمول عليه).. والجسم حد أكبر، لأنه المحمول في النتيجة؛ فالحد الأوسط دليل الحكم الذي هو جسمية الإنسان، وهو هنا أعم من الإنسان (الحد الأصغر).

والجسم (الحد الأكبر) أعم من الحد الأوسط؛ لأنه يوصف بالجسمية الحيوان وغيره من الجماد والنبات.

٨ـ انظر تقريب الوصول إلى علم الأصول لابن جزي(ت: ٧٤١هـ) مع تحشية المحقق ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

٩ـ إحكام الفصول في أحكام الأصول ص ٦٢٩ ـ ٦٣١.

النظام العالمي والج

بسام العسلي

اقترن الإعلان عن انتهاء عصر الحرب الباردة «أو معاهدة باريس - كانون الأول - ديسمبر ١٩٩١م» باستخدام مجموعة من المصطلحات: «النظام العالمي الجديد» و«عصر التسويات السلمية للمنازعات وانتهاء الحروب» وبناء المستقبل على قاعدة الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان، وبدأ منذ تلك الفترة جدل على الصعيد العالمي، وعلى صعيد الدول والتكتلات الإقليمية، حتى على مستوى التنظيمات المختلفة في عواصم العالم. وقد يستمر مثل هذا الجدل طويلا، مما فرض مجموعة من التساؤلات: ترى أهذا الجدل الفكري هو سابق للنظام العالمي الذي أصبح يحمل اسم (العولمة)، أم مواكب له، أم لاحق به؟ وهل أدى الجدل طوال السنوات الماضية إلى تكوين مفهوم واضح وقيمة محددة ومنهج عام لهذا (النظام) و(العالمي) (والجديد)؟ وهل هناك ثمة تفاعل بين محصلة الجهد الفكري على محور (العولمة) والمسارات المختلفة لهذه العولمة؟

مجموعة من الحقائق قد تشكلت تباعًا، أهمها: أن القوى الكبرى في العالم قد ترجمت (العولمة) بلغاتها الخاصة، وبحسب مكوناتها الفكرية ومصالحها، فكان الحصاد العالمي بعيداً من (النظام) و(العالمي) و(الجديد). كذلك حاولت القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والعلمية وسواها ترجمة العولمة كل من زاويتها الخاصة؛ فجاء حصاد الترجمة متنافراً ومتباعداً ومتبايناً. وبقي السؤال الثابت كما كان في البداية: ما مستقبل العولمة؟

عالم اليوم والغد

يا أيُّها النّاسُ إنّا خلقناكُم مِن ذكرٍ وأُنثى وجعلناكُمْ شُعوبًا وقَبائلَ لتعارَفُوا؛ إنّ أكرَمَكم عند الله أتْقاكم. الحجرات:١٣. وتلك هي سنة من السّنن الكونية التي شرعها الله لعباده على أرض الدنيا، فالعالم في ماضيه وحاضره، في يومه وغده لن يكون إلا عالمًا واحداً متكاملاً، وليست الفواصل الجغرافية (المحيطات والبحار) إلا حلقات وصل، وجسوراً لعبور الشعوب واتصال بعضها ببعض. ولقد جاء ركوب الفضاء ليزيد من تقارب العالم واتصاله. ولا ريب أن من بقي على قيد الحياة من جيل الأربعينيات أو الخمسينيات من أبناء هذا القرن لم يكن يستطيع أن يتصور ما وصل إليه عالم اليوم من الاتصال والتقارب - المباشر وغيرالمباشر-، وقد اقتحم الرائي (التلفاز) والحاسوب (الكمبيوتر) والفاكس بيوت ملايين الناس في كل أرجاء الأرض.

ووضع إنسان اليوم أمام واقع لا يستطيع الابتعاد عنه ولا تجاهله إذا ما أراد مواكبة حركة الزمن. ولقد بدأ القرن العشرون - كما هو معروف - بحرب البوير١٨٩٨- ١٩٠١م، والحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤- ١٩٠٥م، واستخدمت في الحربين المذكورتين وسائط الحرب الإلكترونية ووسائط الاتصالات؛ وكانت على بدائيتها وبساطتها إنذاراً للعقول المتفتحة كي تعرف ما سيحمله المستقبل من تطورات في العلوم والتقانة. وجاءت نهاية القرن العشرين حاملة معها (العولمة)، فهل بالمستطاع معرفة احتمالات التطور في حدود المستقبل؟ وهل سيكون هذا التطور محدداً بمحور العلوم والتقانة، أم سيكون تطوراً شاملاً لكل مكونات الحياة والمجتمعات البشرية؟

لقد ظهرت النار النووية التي أحرقت اليابان في منتصف هذا القرن (يوم ٦ آب /أغسطس في هيروشيما ويوم ٩ آب/أغسطس ١٩٤٥م، في ناغازاكي)، وتبع ذلك تسارع مذهل في مجال تقانة التسلح بأسلحة التدمير الشامل والأسلحة التقليدية، وانعكس ذلك بصورة طبيعية على كل مجالات الحياة كما أصبح معروفًا. وأفاد الناس - كل الناس - من تطور وسائط النقل الجوي والبحري ووسائط الاتصالات عبر الأقمار الصناعية، وإذن، فإن تقارب أبعاد العالم واندماج بعضه ببعض ليست قضية انتهاء عصر الحرب الباردة، وإنما هي قضية التقانة التي فرضت على شعوب العالم، كبيرها وصغيرها، غنيها وفقيرها، قويها وضعيفها، فرضت حدود الأخذ من إنجازات العلوم والتقانة.

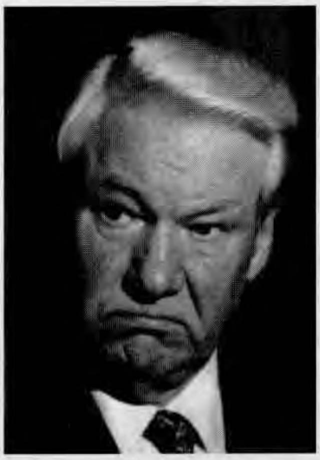
ويبدو واضحاً أن هناك فارقًا مميزاً بين شعوب الأرض في التكيف مع مستلزمات (العولمة)، وأن هذا الفارق ليس أكثر من صورة مجسمة لما عليه الفوارق بين الأفراد في تمايزهم وتباينهم؛ وتلك هي أدنى الحقائق التي اتصلت جذورها بالسنن

دل العقيم

الكونية، وهي أن العولمة لا تلغي (الخصوصية)، وأن التطور على محور العلوم والتقانة لا يمكن عزله عن التطورالحتمي على بقية محاور الحياة ومكوناتها.

يمكن في ضوء ذلك القول ـ ودونما خطأ كبير: إن التنظيم السياسي لهيئة الأمم المتحدة لم يكن إلا المرحلة المبكرة في الاستجابة لتطور العلوم والتقانة. وإن هذا التنظيم في حقيقته ليس إلا تعبيرًا عن الاتجاه نحو العالمية (أو العولمة). صحيح أن فكرة التنظيم ومبادئه قد ولدت أمريكية بداية من نقاط الرئيس ويلسون الأربع عشرة في ٨ كانون الثاني /يناير ١٩١٨م ونهاية الميثاق الأطلسي الذي اعتمده الرئيس ثيودور روزفلت في ١٤آب /أغسطس ١٩٤١م، إلا أنه من المحال ـ على الرغم من الهيمنة الأمريكية المعترف بها عالميًا على الأمم المتحدة ومجلس الأمن ـ القول بأن هذا التنظيم السياسي الذي أصبح يضم كل دول العالم وشعوبه تقريبًا هو تنظيم أمريكي، ولوكان هذا التنظيم أمريكيًا لما ضم إليه كل شعوب العالم ودوله، ولما كانت هناك حاجة لتمارس الولايات المتحدة سياستها الخارجية بعيدًا من هيئة الأمم المتحدة وهيئاتها وفروعها التي تغطي معظم مجالات الحياة في كل الدول.

وهنا يظهرسؤال حاسم وهو: إذا كان هذا التنظيم عالميًا حقًا فلماذا لا يصبح هو المسؤول عن إقامة النظام العالمي الجديد بعد انتهاء عصر الحرب الباردة؟ وإذا لم يكن تنظيم هيئة الأمم المتحدة عالميًا ، فما موقع هذا التنظيم من النظام العالمي الجديد؟ إن ذلك يعني ببساطة أنه من الصعب، حتى الآن في نهاية القرن العشرين، الاعتراف بأن هناك (نظامًا) و(عالميًا) و(جديدًا). فمحاولات التنظيم العالمي قد سبقت ظهور اصطلاح النظام بنصف قرن على الأقل، والعالمية أو العولمة قد أخذت أبعادها من خلال حربين عالميتين (الأولى، والثانية)، وما من جديد طرأ بعد ذلك لإعطاء هذه



بوريس يلتسين

الصفة للنظام العالمي.

قد يكون من غير الصعب ولا العسير في ضوء تجربة القرن العشرين في التطور، معرفة بعض ملامح الغد المأمول، فالتسارع في إنجازات الثقافة سيزيد من فرص تقارب العالم بعضه من بعض، وسيؤدي ذلك بصورة طبيعية إلى زيادة تشابك مصالح الشعوب بعضها مع بعض، وإلى زيادة في التعارف والتقارب مما يستدعي بالضرورة تطوير التعاون في كل المجالات. ولقد عرفت الدول الكبرى والعظمى ذلك ـ ربما قبل سواها وربما أكثر من سواها ـ ولهذا فلم يعد من المثير ولا الغريب أن تتكرر رغبات (التسوية السلمية للمنازعات) (والتنمية الاقتصادية) و(الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان) وسواها على لسان قادة الكريملين كما تتكرر على لسان قادة البيت الأبيض؛ وكما تتكرر في بقية العواصم بداية من لندن وباريس وبون وروما ونهاية بيكين وطوكيو، وليست

هذه الظاهرة بالتأكيد مجرد محاكاة للنهج الأمريكي، ولا هي انعكاسات وأصداء لما تطلقه واشنطن من مبادئ وشعارات وأقوال في مجال إعادة التنظيم العالمي ، وإنما هي تعبير عن السمات المطلوبة لبناء المستقبل، وسيفرض ذلك بالضرورة تطورات على محور الإدارة العالمية، وسيكون هناك مجال لواحد من خيارين، فإما أن يتم وضع تنظيم جديد للعالم في إطار هيئة تشريعية وقضائية وتنفيذية، وإما أن يتم تطوير هيئة الأمم المتحدة وأجهزتها ومؤسساتها لتصبح أوفر قدرة وأكثر كفاءة للتعامل مع قضايا العالم. ويظهرحتى الآن ـ على الأقل ـ أن هذا الاتجاه الثاني هو الأرجح، وهذا ما جرى التعبير عنه خلال السنوات القليلة الماضية (سنوات ما بعد انتهاء عصر الحرب الباردة) من خلال إبراز الحاجة إلى تطوير هيئة الأمم المتحدة وإصلاحها وتحريرها من الجمود وحكم المكاتب (البيروقراطية)، مع إصلاح مجلس الأمن بزيادة أعضاء ثابتين ـ في طليعتهم اليابان وألمانيا وربما الهند ـ مع ارتفاع الأصوات بحق الدول العربية والشعوب الإسلامية بمقعد ثابت في مجلس الأمن، وكذلك إعادة النظر في حق النقض (الفيتو) وفي آلية (ديناميكية) مجلس الأمن في التعامل مع الأزمات الإقليمية والعالمية. ومن ثم، فإن قضية العالمية في حاضرها ومستقبلها، في يومها وغدها، ليست قضية جدل ولا نقاش، إنما هي قضية حقيقية وواقع فرضه التطور العلمي وتطور التقانة في كل المجالات. وليست شعارات عواصم دول العالم قاطبة ونظرياتها ومناقشاتها ـ وخاصة عواصم الدول الكبرى منها ـ سوى اعتراف بهذه الحقيقة وذاك الواقع، ومع بذل ما يمكن بذله من جهد للتكيف معه. ويظهر من خلال ذلك أن الجدل الذي شكل حجمًا هائلاً في كل لغات العالم هو ما يمكن تصنيفه في ثلاث فئات : فئة متخلفة تحاول

العولمة لا تلغي الخصوصية ، والتطور على محور العلوم والتقانة لا يمكن عزله عن التطور في محاور الحياة الأخرى

اللحاق بالعولمة ولا تصل إليها، وفئة تواكب تطور العولمة وتلازمها، وفئة ثالثة تعمل على سبق العولمة والتقدم عليها من أجل تشكيلها بمقاييس معينة ومواصفات محددة، وهذا ما تعمل له القوى الكبرى التي تريد ترجمة عالم الغد من خلال أفكارها المسبقة، ومن خلال مصالحها المحتملة.

الأحادية والتعددية

لم يعد أمراً مباغتًا، ولا حديثًا مُفترى، القول بأن الصراعات السياسية في فترة ما بعد عصر الحرب الباردة قد تركزت على محور (الأحادية والتعددية)، وبحيث يمكن ترجمة الأحادية بأنها (الأمركة - كما يتم تداول هذه الكلمة)، وأن التعددية إنما تعني العولمة في نظر كل القوى الكبرى - تقريبًا - المنافسة للولايات المتحدة الأمريكية أو في موقع المنافسة على الأقل. والشواهد على ذلك كثيرة ووافرة في الممارسات والأقوال، ومثالي لها ما صرح به الرئيس الروسي بوريس يلستين عشية توجهه لحضور قمة بروكسل يومي ٩ و١٠تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧م، ومما قاله «هناك بالتأكيد ضرورة لإقامة أوربا كبرى موحدة وسليمة ومزدهرة تضم روسيا، إن أوربا من دون روسيا ليست أوربا، ولا يمكنها أن تصبح أوربا الكبرى التي لا مثيل لها في العالم، ونحن قادرون في أوربا على الاتحاد جدياً والعيش بشكل طبيعي لتتمكن شعوبنا من العيش بأمن ورخاء وسلام. ولسنا بحاجة لوصاية أي دعم قادم من الخارج، ولا بحاجة للهيمنة الأمريكية وللوصاية». ومع وصول العام المنصرم إلى آخر أيامه (٣٠ كانون الأول /ديسمبر ١٩٩٧م)، صدر عن وزير الخارجية الروسي يفجيني بريماكوف تصريح انتقد فيه السيطرة الأمريكية على العالم؛ وتعامل واشنطن العاطفي مع قضية العراق، واتهامات واشنطن لموسكو بمساعدة طهران على امتلاك أسلحة نووية، ورد ناطق في إدارة الرئيس الأمريكي بيل كلينتون على هذا التصريح بصورة فورية في هذه المرة - بالقول: «إن لدى بريماكوف اهتمام قديم بالشرق الأوسط يعود إلى أيام الاتحاد السوفييتي السابق، وهو يهتم بصورة خاصة بالعراق، مما يعيق في بعض الأحيان المبادرات الأمريكية، وإن تصريحات بريماكوف التي نشرت أمس ليست جديدة، بل تقليدية ومعروفة، سواء بالنسبة لرأيه في الشأن العراقي أو حلف الأطلسي، وما يعده السيطرة الأمريكية على العالم ، وهذه المواقف الروسية شبيهة بالمواقف الفرنسية، إذ لا يعجبهم ما يسمونه الدور المهيمن الأمريكي في العالم، ولقد ظهرت مثل هذه المواقف في أكثر من مناسبة، بينها قمة الدول الصناعية في (دنفر) في حزيران/يونيو١٩٩٧م، لكن ذلك يؤكد مجدداً ما نعرفه عن الموقف الروسي - خصوصاً موقف بريماكوف - سواء بالنسبة للهيمنة أو العراق». وكان في جملة ما استثار الرد الأمريكي ما قاله بريماكوف في تصريحه السابق الذكر الذي جاء فيه «إن عالم الغد هو عالم متعدد الأقطاب، لا تسيطر عليه دولة واحدة. وسيتم الوصول إلى ذلك بصورة تدريجية، وهناك أشياء عديدة يمكن أن تتطور في مجرى هذه العملية، بما في ذلك الميل للسيطرة الأمريكية في الشؤون العالمية. يمكن للمرء أن يعد أن هناك الآن قوة واحدة في العالم، ولكن يجب ألا نغمض عيوننا أمام معادلات تحدث في أماكن أخرى من



بيل كلينتون

العالم». ويظهر من ذلك أن الصراع بين الأحادية والتعددية، أو بين العولمة والأمركة سوف يستمر في حدود الأفق المنظور، وربما إلى ما هو أبعد من ذلك أيضًا، إذ ليست قضية الأمركة أو الأحادية القطبية مجرد قضية نشر شبكة (مطاعم ماكدونالد) في العالم، ولا هي في قضية مقاومة انتشار (الهمبرغر أو الهوت دوغ) للمحافظة على الهوية القومية والدفاع عن المصالح الوطنية والقومية للدول كبيرها وصغيرها، إنما هي قضية صراع مجموع المصالح الأمريكية مع مجموع مصالح الدول المنافسة التي تثير قضية (العولمة والأحادية القطبية)، وهي المصالح التي تشمل كل المقومات: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية والحضارة والتقانة إلخ.

لقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية، باستثمار ظروف الحروب الباردة ووجود المظلة النووية بخاصة، فرض قيود على تحركات الاتحاد السوفييتي السابق (الأحلاف)، وفرض قيود مماثلة على تحركات الدول الصديقة والحليفة (أوربا بمجموعها واليابان وحتى الصين). ولهذا، فما إن وقع الحدث الكبير بتفكك الاتحاد السوفييتي حتى سارعت فرنسا لبذل الجهود من أجل ممارسة دور قيادي عبر أوربا للتحرر من الهيمنة الأمريكية على أوربا، وهو ما أبرزه المشروع الفرنسي الألماني بتشكيل جيش أوربي، أو جيش المئة ألف، مع توسيع نطاق التحرك الخارجي في كل المجالات، وبخاصة في المحيط العربي والإسلامي، بحجة القرب الجغرافي من أوربا وعلاقة ذلك بالأمن الأوربي. كذلك تحركت روسيا على الاتجاه ذاته وهو ما برز واضحاً أيضًا في تحرك الكرملين تجاه قضية البلقان؛ ثم قضية الدول الإسلامية في آسيا الوسطى من خلال الشيشان، علاوة على الموقف من امتداد حلف شمال الأطلسي نحو الشرق.

ويظهر أن الولايات المتحدة الأمريكية وصانعي القرار فيها قد باغتتهم سرعة تطور الأحداث وحجمها خلال فترة حرب الخليج الثانية، ثم خلال التحولات الكبرى وتفكك الاتحاد السوفييتي، فتركز الجهد الأمريكي - السياسي بخاصة - على محاولات إبقاء الأوضاع العالمية تحت السيطرة، واستمر ذلك واضحًا طوال سنوات ١٩٩١ - ١٩٩٥م. وكانت السياسة الإستراتيجية الأمريكية تعمل خلال ذلك على إعادة تنظيم العلاقات الدولية تنظيمًا جديداً يضمن للولايات المتحدة تحقيق أكبر قدر من المكاسب والمغانم، إذا كان من المحال قطاف ثمار التحولات كلها بانهيار القيود والحواجز التي ساعدت صانعي القرارات الأمريكية على فرض السيطرة طوال عصر الحرب الباردة، ثم أخذ خط الصراع على العولمة والأحادية القطبية في رسم خط بياني متصاعد، وشهد عام ١٩٩٧م بشكل خاص تطورات مثيرة في حدود هذا الصراع. ولم تكن وفرة الندوات والمحاضرات والأطروحات الأكاديمية وسواها - في معظم عواصم العالم وأجهزة إعلامها - إلا الصورة الظاهرة لشكل هذا الصراع وطبيعته التي أكدتها التحركات السياسية واللقاءات الأوربية - الأمريكية، واللقاءات الروسية - الصينية واللقاءات الروسية - اليابانية؛ واللقاءات الصينية - اليابانية. وكانت بيانات هذه اللقاءات

متشابهة - تقريبًا - وهي ذات هدف واحد، وهو إعادة تنظيم العلاقات الدولية في إطار متوازن وبعيد عن الأحادية القطبية.

الغطاء الفكري للعولمة

للحديث عن العولمة أبعاد كثيرة ومتنوعة لم تعد مجهولة لوفرة ما جرى طرحه من أبحاث ودراسات ومقالات طوال السنوات الماضيات، وما يهم البحث هنا التوقف عند نقطة واحدة كانت مثيرة للجدل العقيم في عواصم الدول الكبرى - بخاصة باريس وبكين، وربما بصورة أقل في موسكو - وهي نقطة الغطاء الفكري للعولمة، الذي رأت كثير من عواصم العالم أنه يمثل التحدي الحقيقي للشعوب. وكان في طليعة الظواهر المثيرة لهذا الجدل تحركه بين حدين متباعدين جدًا، إذ بينهما تصور خلاصة دراسات مسألة (الغطاء الفكري أو الأيديولوجي) أنها الخطر المدمر لفضائل الشعوب وموروث حضاراتها وعوامل أصالتها تذهب خلاصة دراسات أخرى لتستهين بما يقال عن تصورات هذا الخطر، وتفترض أن الجدل حول هذه النقطة هو (مجرد زوبعة في فنجان)، فقافلة العولمة في العلوم والتقانة تسير ولن توقفها الاعتراضات والاحتجاجات. ويبدو واضحاً هنا الخلط بين عوامل العولمة في مجموع لا يقبل التجزئة، فيما تؤكد كل الشواهد أن هذا المجموع على الرغم من تكامله وتناغمه، لا يتم التعامل معه إلا من خلال التعامل مع جزئياته، فعند عقد الصفقات التجارية، وعند التعاون في الأبحاث العلمية وفي مجالات التقانة كما يجري في الأبحاث الأمريكية - الروسية المشتركة في علوم الفضاء وتقانتها وما يتم في الأبحاث الأمريكية - الأوربية في كثير من المجالات، بما في ذلك مجال الصناعات الحربية، فإن قضية الغطاء الفكري تبقى في موقع منعزل وخارج مجال التداول. وبالمقابل، فإن هذا الغطاء الفكري كثيراً ما يتقدم على كل مجالات التعاون في إطار العولمة عندما تتطلب المصلحة ذلك. وأوضح الأمثلة وأقربها عهداً قضية الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك قضية حرمان تركيا من الانضمام إلى الاتحاد الأوربي في قمة لوكسمبرغ في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧م بحجة افتقاد تركيا للكفاءة والشروط المطلوبة، وفي طليعتها عدم تسوية القضية القبرصية والقضية الكردية وحقوق الإنسان، فيما تعطي الأفضلية لقبرص من خلال ترشيحها لعضوية الاتحاد الأوربي، وليس ذلك إلا تأكيدًا للحقيقة المعروفة منذ أيام الاستعمار التقليدي الغربي، وهي أن المبادئ والشعارات والقيم والفضائل وكل ما يتم رفعه من شعارات ما هي إلا الأقنعة والستائر لإخفاء النوايا الحقيقية التي لا يجوز إعلانها أو إشهارها، ربما بسبب شدة قبحها وبشاعتها وانحطاطها. وإذن فتبقى القضية هنا قضية التمييز الواضح بين العوامل المختلفة والمتشابكة في صلب العولمة، والتعامل مع كل عامل من العوامل بما يستجيب لمتطلبات كل شعب من الشعوب؛ فقضية العولمة ليست قضية صباغ تلويني ولا رداء تزييني يناسب كل شعوب الأرض، ويمكن للجميع ارتداؤه فيكون لباسًا موحدًا كالثياب العسكرية.

وبعد ذلك فلا بد من التساؤل: ما العامل المحرّض لعواصم الدول الكبرى كي تثير مثل هذا الضجيج ضد الأمركة أو الأحادية من خلال إبراز المخاوف من الأغطية الفكرية للعولمة؟ أليست شعوب العالم الكبرى تعيش في مستويات عقدية وفكرية واقتصادية، وحتى اجتماعية تكاد تكون واحدة وموحدة؟ وهل هناك فارق كبير في نظر السائح الذي ينتقل ببصره وبصيرته بين لندن وباريس وبون وموسكو؟ وهل الفوارق بين هذه العواصم وواشنطن كالفوارق بينها وبين كوالا لامبور أو حتى شنغهاي؟ ومن أحق بالخوف؟ هل عواصم الدول الكبرى بعضها من بعض؟ أم عواصم كل دول العالم الصغرى من حفنة عواصم الدول الكبرى؟ ناحية أخرى ربما تكون أكثر أهمية من سابقتها: ألم تمارس عواصم هذه الدول طوال ليل الاستعمار الغربي - وعلى أوسع نطاق عرفته البشرية - بعض ما يتم طرحه من شعارات ومبادئ في نطاق العولمة؟ ألم ترفع فرنسا رايات الثورة الفرنسية في كل بلد اجتاحته جحافل استعمارها، كما رفعت بريطانيا رايات الديمقراطية وحقوق الإنسان حيثما ارتاد المغامرون الإنجليز أصقاع الأرض؟ وهل يختلف نهج روسيا الاتحادية تجاه الشيشان وسواها من شعوب آسيا الوسطى عن نهج الولايات المتحدة الأمريكية في طرح قضايا العولمة؟ قد يكون طرح مثل هذه التساؤلات التي لا تحتاج للإجابة عنها - إذ إن إجابتها معروفة للعامة والخاصة في كل شعوب الأرض، وهي من قبيل تساؤل العارف - قد يكون طرحها من الأمور الضرورية، وليس ذلك لإجراء موازنة بين الأغطية الفكرية والعقدية التي ترفع راياتها عواصم الدول الكبرى، وليس كذلك من أجل المفاضلة بين سيئ وأسوأ، وإنما لاستبعاد كثير مما يثار من القضايا المرتبطة بالعولمة فقط، التي قد تخدع الباحث والمراقب فتحجب عن أنظاره حقيقة الأمور. ولقد اقترن طرح النظام العالمي الجديد الذي اختصر بالعولمة بطرح قضايا الحريات والديموقراطية وحقوق الإنسان، كما طرحت في الوقت ذاته قضية التنمية الاقتصادية وتسوية المنازعات بالوسائل السلمية، فهل هناك تباين كبير في تحديد هذه المفاهيم لدى صانعي قرارات تنظيم العلاقات الدولية الجديدة في عواصم الدول الكبرى؟ وهل هناك تباين كبير في معالجة القضايا المطروحة على مجلس الأمن، باستثناء القضية الفلسطينية ذات الخصوصية المتفردة؟.

لقد أخذت في التشكل قناعة عالمية مفادها أو مضمونها يتلخص بأن انتهاء عصر الحرب الباردة قد أفرز اتفاقًا أو اتحادًا عالميًا (تروستيًا) تقوده الولايات المتحدة لإعادة تنظيم الاستثمارات، بما يحقق للدول الكبرى والعظمى مصالحها في إطار متوازن. وما من حاجة إلى القول: إنه من الصعب توجيه اللوم للشعوب الصغرى والمتوسطة أيضًا إن هي أساءت الظنون بعلاقات الدول الكبرى تجاهها، وذلك أن من واجب هذه الدول الكبرى تبديد مثل هذه الظنون إن هي أرادت بحق بناء نظام عالمي جديد يتحقق فيه السلام والأمن من خلال العدل والحرية.

في المحيط العربي والإسلامي

قد يكون من الصعوبة بمكان الإحاطة

الصراع بين الأحادية والتعددية، أو بين العولمة والأمركة سوف يستمر إلى أبعد من حدود الأفق المنظور

النظام العالمي والجدل العقيم

بخلاصة ما ظهر من أبحاث وندوات ودراسات في عواصم الوطن العربي والعالم الإسلامي بشأن النظام العالمي الجديد أو العولمة، ولكن بالمستطاع التأكيد أن هذه الخلاصة قد تضمنت ومضات مضيئة جدًا، أخرجتها عن دائرة الجدل العقيم، وقد يكون ذلك متوقعًا، فقد عرف العرب والمسلمون أن قضية العولمة هي قضية تمسهم أكثر مما تمس بقية شعوب الأرض لعوامل كثيرة اقتصادية وسياسية وعقدية وجيواستراتيجية واجتماعية. ولم تعد قضية العولمة هي قضية البيانات والتصريحات التي صدرت عن بعض عواصم الغرب (لندن، وباريس بخاصة) بشأن تحويل الصراع نحو العالم الإسلامي بعد أن زال الخطر الشيوعي، وإنما أصبحت قضية التكيف مع التحولات العالمية الكبيرة، مع تجاوز الأزمات بالحد الأدنى من الخسائر على كل جبهات الحرب المعلنة وغير المعلنة أيضًا على الرغم من شدة معاركها. وبدأت الجهود الفكرية - عربيًا وإسلاميًا - في تشكيل قناعات موجهة للتعامل مع هذه العولمة منها:

أولاً: أن عالم ما بعد الحرب الباردة بحاجة إلي الدولار الأمريكي بقدر ما تحتاج الولايات المتحدة إلى هذا العالم، وأن سيطرة السياسة الاستراتيجية الأمريكية على مراكز القوى في عواصم الدول الكبرى هو ضمانة للأمن والاستقرار العالمي، وكبح جماح التطرف نحو المنافسة، حتى لا تؤدي هذه المنافسة إلى عودة العالم إلى عصر الحرب الباردة، أو حتى عصر الحروب الاستعمارية المدمرة، وهذا هو المحور الذي يجب أن يتركز عليه الجهد العربي - الإسلامي الذي يمتلك القدرة على البقاء في مركز الثقل والتوازن العالمي.

ثانيًا: أن قضية العولمة من وجهة نظر الوطن العربي والعالم الإسلامي هي قضية اكتساب التقانة، ومواكبة التطور العلمي وتحقيق أكبر قدر من الانفتاح على عواصم العالم قاطبة لتكوين قاعدة صلبة تستطيع الصمود في وجه التحديات العالمية، وإذا كانت الصين واليابان قد ترجمتا العولمة من خلال بناء هذه القاعدة، فإن باستطاعة العرب والمسلمين الأخذ بهذا المنهج وهو ماجرى ممارسته عمليًا من خلال محاولات تكوين السوق العربية المشتركة، وتطوير اقتصاد جنوب شرق آسيا، علاوة على جهود المنظمات الإسلامية في التنمية الاقتصادية الإسلامية.

ثالثًا: أن مخزون الشعب العربي والشعوب الإسلامية من التجارب التاريخية في مجال التعامل مع الأعداء التقليديين للعرب والمسلمين، قد شكل نوعًا من المناعة الذاتية ضد الجائحات الفكرية والوافدات العقدية، بحيث يمكن تجاوز حدود المخاوف من هذه الجائحات والوافدات، والتعامل معها من واقع القوة بالحجة والبرهان، ويعني ذلك ضرورة بذل كل جهد مستطاع لتقوية الجبهات الداخلية العربية والإسلامية ودعمها، مع تطوير الجدل الخارجي مع مراكز القوى العالمية، حتى لا يبقى الحوار منغلقًا في دائرة الجدل العقيم. وسيشكل أي نجاح عربي وإسلامي



بريماكوف

في هذا المضمار إحباطًا للمخططات المضادة للعرب والمسلمين.

رابعًا: أن وصول الولايات المتحدة الأمريكية إلى مواقع القمة لا يعني نهاية العالم، فلقد كانت بريطانيا في مطلع هذا القرن تمتلك مفاتيح السيطرة التي انتقلت إلى الولايات المتحدة. وتمارس الولايات المتحدة تجاه القوى المنافسة الكبرى الدور نفسه الذي كانت تمارسه بريطانيا من قبل، وطوال ليل الاستعمار الغربي. غير أن الفارق المميز حتى الآن هو اعتماد بريطانيا على جحافل الغزو والقدرة العسكرية لممارسة النهب الاستعماري، فيما تعتمد الولايات المتحدة على التنمية الاقتصادية لتحقيق أكبر قدر من المكاسب التي تدعم القدرة العسكرية. وهذا ما أخذت في ممارسته بقية الدول الكبرى بدورها مثل الصين واليابان وروسيا، مما ساعد على إعطاء العولمة قاعدتها المشتركة بين كل شعوب الأرض.

خامسًا: أن بناء قاعدة اقتصادية عالمية مشتركة قد ترك مجالاً واسعًا لتحرك الشعوب العربية والإسلامية بين مراكزالقوى العالمية لتحقيق أكبر قدر من التطور على طريق بناء المستقبل العربي والإسلامي. غير أن وقوع أقطار عربية في دوائر الصراع، علاوة على التباين الكبير بين الأقطار العربية والإسلامية في مواكبة العولمة قد شكلا ثغرات كبيرة تعيق النهوض بالبناء المشترك، وظهرت ضرورة التعاون العربي والإسلامي اليوم أكثر من أي وقت مضى، إذ من المحال - وهو ماأكدته تجارب الصراع في القرن العشرين - حدوث أي تقدم عربي أو إسلامي على أية جبهة من الجبهات، ما لم يقترن بحدوث تقدم مماثل على بقية الجبهات.

سادسًا: أن الصراع الموجه ضد العرب والمسلمين - مثله كمثل الصراع المحتدم بين الدول الكبرى ذاتها - ليس صراعًا مرحليًا ولا جديدًا، بل هو من طبيعة الحياة ذاتها ومن السنن الكونية التي شرعها الله تعالى في خلقه: وَلَولا دَفْعُ الله النَاسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمت صوامعُ وبيَعٌ وصَلَوات ومَساجِدُ يُذكَر فيها اسمُ الله كثيراً ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُرُه إنّ اللهَ لقوي عزيز.الحج: ٤٠.

وليس على العرب والمسلمين بعد ذلك إلا أن يلتزموا ما شرع الله لهم في التعامل مع أمورهم الدنيوية من خلال ما منحهم من مصادر القوة، والقوة لله جميعًا.

وليست هذه الومضات بعد ذلك هي كل ما تمخض عنه الفكر العربي والإسلامي من خلال تعامله الأدبي مع ظواهر العولمة التي لم ترسم بعد ملامحها الحقيقية في مجالات العمل السياسي والاقتصادي، على الرغم من الأشواط البعيدة التي قطعتها في مجال التقانة والاتصالات وتقريب أبعاد العالم بعضها من بعض، في محاولة دمجها ضمن مجموع متكامل. ولا يعني التكامل هنا - بداهة كما هو متوقع - انعدام التباين وزوال الفوارق وانحسار التمايز في كل المجالات، أو في أيٍّ من المجالات، وليس على العرب والمسلمين إلا بذل كل جهد مستطاع لبناء مستقبل أجيالهم بما يضمن الموقع المميز ضمن هذا التكامل كما كان عليه وضعهم عبر تاريخهم المجيد، يوم تعاملوا مع العالم من خلال العولمة.

عوائق الاستثمار في التعليم

الزبير مهداد

إن التعليم ليس مجرد خدمة يلتزم المجتمع تقديمها إلى أفراده، بل هو استثمار، والاستثمار في التعليم يعود بمردود مالي هائل على الدول المتخلفة. وهذه الحقيقة توصلت إليها نتائج البحوث العلمية المنجزة في هذا الميدان.

مردود الاستثمار في ميدان التعليم يعادل أو يفوق مردود الاستثمار في الميادين الأخرى، وقد ذكرت إحدى الدراسات الأمريكية أن استثمار دولار واحد في التعليم يؤدي إلى رفع الإنتاج أكثر مما يرفعه دولار مستثمر في السدود أو السكك الحديدية أو الآلات(١). كما توصلت دراسة روسية إلى نتيجة خلاصتها أن فعالية العامل ذي التحصيل الثانوي من سبع سنوات، تزيد ضعفًا ونصف الضعف على فعالية العامل الأمي(٢).

إن مفهوم تنمية الموارد البشرية الذي كان ينحصر في توفير القوى البشرية العاملة المدربة توسَّع، وأخذ في حسابه البشر بوصفهم موارد تزداد عن طريق الاستثمار الإنساني من خلال التعليم والتدريب والصحة والتغذية. فهذا المفهوم يعني «عملية توسيع الخيارات للناس» بتوفير شروط الحياة المديدة الصحية، واكتساب المعرفة، والحصول على الموارد اللازمة لمستوى معيشي لائق(٣).

إن للتعليم المدرسي أهميته ولا ريب، فهو القوة الحيّة في شتى مناحي الحياة، والعامل الأساسي والأقوى للتقدم، فهو لا يجعل نقل المعلومات إلى الأفراد ممكنا وسهلاً فحسب، بل هو زيادة على ذلك، ذو صلة أساسية بالتقدم والعدالة الاجتماعية والمساواة في الفرص، والمساهمة الفاعلة في بناء المجتمع وتشكيل سمات الأفراد، وتحقيق التكامل بين عناصر ومكونات شخصيتهم وإنمائها.

مشكلات نظامنا التعليمي

إن نتائج بحوث كثيرة حول حصيلة نظامنا التعليمي أكدت أن تعليمنا يعاني:

- تقهقرًا في تعليم اللغات الأجنبية والعلوم والتقنيات.
- نقصا في إكساب المتعلمين القدرات التحليلية والمهارات الابتكارية.
- تفاوتا في النتائج بين التلاميذ القرويين والحضريين(٤).

تتضافر أسباب اجتماعية وتربوية وتقنية لتشكل عوائق تحول دون تحقيق النتائج المرتقبة للاستثمار في التعليم، ونستطيع ترتيب هذه العوائق في ثلاث مجموعات: عوائق اجتماعية، وعوائق تربوية، وعوائق سياسية علمية.

العوائق الاجتماعية: التصور السائد حول التعليم

إن أكثر العائلات تغيب عنها الرؤية الواضحة لمستقبل الأبناء والبلاد؛ فالعائلات تفكر في المردود المالي المباشر لنشاط الطفل، ويكون ذلك سببًا في إخراج الصبي من المدرسة وانخراطه في سوق التشغيل مبكرًا قبل أن ينال حظه كاملاً في التعليم الأساسي.

والآباء فقدوا ثقتهم في المدرسة بوصفها وسيلة للارتقاء الاجتماعي أو لضمان العيش، على خلاف ما كان عليه الحال إلى نهاية السبعينيات، وأصبحوا يرون المدرسة مضيعة للوقت والمال، ويعزفون عن تسجيل أبنائهم فيها، ويقدمون بسهولة على سحب المسجّلين منهم وتسريبهم منها. والأبناء أيضًا تكونت لديهم اتجاهات سلبية نحو الدراسة، فكثر تغيبهم الفردي والجماعي، وسهل تسربهم وانقطاعهم، وساد عدم الاهتمام ببذل الجهد، واحتدم الصراع بينهم وبين المدرّسين(٥).

والأدهى من ذلك أن الأميين وأنصاف المتعلمين يحصلون على نصيب أكبر من الشغل، وسبب ذلك التفكير المتخلف السائد لدى العديد من المشغّلين، وخاصة في القطاع غير المهيكل، حيث تكون اليد العاملة غير المؤهلة رخيصةً، وهي المفضلة انطلاقًا من الاعتقاد بأن التكوين المدرسي لا يفيد في شيء، ثم إن هذه الفئة أكثر تقبلاً لشروط المشغّلين التنظيمية والانضباطية ومقاييسهم، ويقبلون القيام بالأعمال المسندة إليهم دون شروط على مستوى الأجر وظروف العمل أو مدته بخلاف المتعلمين(٦). فمن المفارقات العجيبة أن العاملين العلميين

والتقنيين وذوي التأهيل الرفيع لا يجدون عملاً على الرغم من أن الاقتصاد في حاجة إليهم. وهذا الوضع مشروط ببنية التعليم والبنية الاجتماعية(٧).

الأمية سبب ونتيجة

انتشار الأمية يعدّ سببًا في التخلف الاجتماعي وفي كثير من المشكلات، ويحول دون مشاركة كثير من القوى في تنمية اقتصاد البلاد. (فإذا كان العلم نتيجة حاجات، فإنه في الوقت نفسه يؤدي إلى مزيد من المعرفة ومن الوعي بالحاجات المختلفة)(٨).

من المفارقات العجيبة ألا يجد العاملون العلميون والتقنيون وذوو التأهيل الرفيع عملاً بينما الاقتصاد في حاجة إليهم

وهذا الداء العويص أكثر انتشارًا بين النساء، فالمرأة التي تكوّن إحصائيًا أكثر من نصف السكان، لا تتاح لها، على الصعيد الاجتماعي، إمكانية تغذية الحياة الاقتصادية، فتحرم من حقها في التعلم، ولا يلتفت إلى دورها وكفاءاتها الاقتصادية. فالنساء لهن دور مستمر في سوق العمل في الوسطين القروي والحضري، وفي القطاعين العصري وغير المصنف. ثم إنهن يبقين المسؤولات عن الصحة والتغذية وتحقيق العيش الكريم للعائلة، وكذلك عن تلقين القيم الوطنية. كما أن تأثير تعليم النساء في نقص الوفيات عند الأطفال، وسوء التغذية، وفي تقليص الولادات بيّن واضح، فضلاً عن ذلك، فإن تأمين التعليم الأساسي لعدد كبير من الفتيات سيمكنهن من المشاركة في تنمية اقتصادية واجتماعية، ويمكن أن يساهم ويسهل الانسجام الاجتماعي(٩).

المكانة الاجتماعية للعلم والعمل

التصور الاجتماعي الجديد للمكانة الاجتماعية يمنح الأولوية لرأس المال القراري «ما مهنتك؟»، ثم لرأس المال الاقتصادي «كم تكسب»؟ وأصبح العلم والبحث العلمي ورجالاته في ظل القيم الجديدة في آخر السلم الاجتماعي(١٠).

يضاف إلى هذا الداء شيوع أنماط سلوكية مهنية سلبية تتمثل في العزوف عن الأعمال التي تتطلب جهدًا بدنيًا، أو نزولاً إلى الميدان لمتابعة العمل في مواقعه.

عوائق تربوية: مشكلات تعميم التعليم

أخفقت سياساتنا في تعميم التعليم، بسبب عدم مراعاة معطيات النمو السكاني والعوامل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تقوم وراء تحديد الطلب الاجتماعي على التعلم في الأوساط القروية والحضرية، وبين جنسي الذكور والإناث. وغياب نظام تربوي يناسب الظروف الخاصة لبعض فئات من السكان الرحّل المنتشرين في أرجاء كثير من البلاد العربية. وهذا الإخفاق في تعميم التعليم يعني عدم القدرة على الحد من انتشار الأمية.

كما لم تُعْنَ هذه السياسات بتوفير أسباب التعلم الجيد وظروف العمل التربوي اللائقة بتحقيق التنمية والمناسبة لثقافتنا وظروفنا، ويُلمَس ذلك في قلة التجهيزات المدرسية وضعفها، وعجز المؤسسات التعليمية عن استيعاب المتعلمين، وهذا الوضع نشأ عنه:

- مردود سيّئ بسبب صعوبة ظروف العمل التربوي.
- اكتظاظ الأقسام النهائية (السادسة والتاسعة من التعليم الأساسي والثالثة الثانوية).
- تقنين نسبة النجاح، والتكرار المرتفع، وفي ذلك هدر يحمّل الميزانية عبئًا فوق أعبائها الأخرى(١١).

كفاءات المعلمين

كفاءات المعلمين ومؤهلاتهم ضعيفة، ويسودهم إحساس بالعبثية، وشعور بقلة مردودية كفاءاتهم وعملهم. وتدهور قدراتهم الشرائية في سوق المعرفة والمواكبة العلمية(١٢)، ويؤدي ذلك إلى:

- تردّي المردودية التربوية للعمل المدرسي. وبروز مظاهرها في ضعف الكفاية الداخلية للتعليم التي يطبعها التكرار وانقطاع التلاميذ، ومظاهر عدم تكيُّفهم الدراسي، وهذا الوضع يكتسي خطورة زائدة حين يكون في المستوى الابتدائي وخاصة في المناطق القروية.
- الحيلولة دون تطوير التربية وتجديدها.
- مظاهر عدم التكيف المهني للمعلمين وكثرة الغياب والتسرب من المهنة.

موقع التخطيط التربوي من مخطط التنمية

غياب خطط منهجية (استراتيجية) تربوية يتجلى بوضوح في عدم وجود انسجام بين التخطيطين التربوي والاقتصادي، مما يجعل التعليم لا يخطط لتوفير الأطر والمهارات، فعلى الرغم من أن التعليم جهاز خاضع للدولة، فإنه يصعب توجيهه توجيهًا سليمًا، لأن الحاجات والطلبات غير معروفة بدقة، ولأنها تتطور بشكل متفاوت.

فالتوازن المفقود بين مختلف الشُعَب الأدبية والعلمية والتقنية يظهر أثره في التضخم الذي تعانيه الشعب الأدبية، وقلة الإقبال على الشعب العلمية، والعزوف عن التعليم التقني. ويزداد الأمر تفاقمًا في التعليم العالي(١٣). فالتعليم التقني ليس أقرب إلى حاجات المجتمع الإنتاجية فقط، بل هو شرط التنمية والجزء الذي لا يتجزأ من الثقافة العلمية والتقنية للسكان التي يرتبط تطويرها بتبسيط منجزات العلم والتقنية ونشرها على نطاق جماهيري، لذلك أوصى وزراء التعليم والتنمية الاقتصادية في البلدان العربية خلال لقاء مراكش ١٩٧٦م بإجراء دراسات اجتماعية (سوسيولوجية) لإيضاح أسباب العزوف عن الدراسات العلمية والتقنية والمهنية، والاتجاه نحو الشعب الأدبية(١٤).

ويتفاقم هذا الضرر بسبب عدم قدرة وسائل التقويم والبحث على تحديد الكفاية الخارجية للنظام التعليمي، لصعوبة تحديد مدى التوافق بين النظام التربوي ومخططات التنمية، وذلك ناتج عن غياب البحث العلمي والدراسات المختلفة(١٥).

لهذا عجز النظام التعليمي عن سد حاجات القطاعات المختلفة إلى الأطر والكفاءات، فتخصصات كثيرة لا تُدرس بالمدارس على الرغم من حاجة سوق الشغل إليها.

ومظاهر الخلل وانعدام التوازن تظل بارزة شاهدة على ضياع الجهد المبذول في توفير الوسائل الضخمة البشرية والمادية والمالية. هدر خطير يستنزف كثيراً من المال والجهد(١٦).

فانعدام التوازن على مستوى الطلب يتمثل في قلة الإقبال على التعلم. والأدهى من ذلك أن هذا الخلل يتفاقم في القرى والمناطق الداخلية؛ فالإقبال القليل يزداد انخفاضاً في المناطق المشار إليها بالقياس إلى المراكز الحضرية والمناطق الساحلية. وعلى المستوى الجنسي هناك اختلال بيّن يتجلى في ضعف إقبال البنات على الدراسة قياساً على الذكور.

وانعدام التوازن على مستوى العرض ينم على التفاوت الجهوي في توفير فرص التعلم، بتركيز المؤسسات التعليمية المختلفة في جهات دون أخرى. وفي داخل الجهات نلاحظ فروقًا بين إقليم وآخر(١٨). وداخل الإقليم قد يتفاقم هذا الخلل بتوجيه العناية نحو مناطق معينة دون أخرى.

فساد المناهج

مناهجنا التعليمية تعاني عيوبًا متعددة:

١- القدم والتقادم النسبي الدائم.

٢- النَّسْخ من البرامج الغربية الأجنبية، أي التبعية في برمجة التعليم(١٩).

٣- الفجوة بين مراحل التعليم ومستوياته المختلفة.

٤- غياب أي تنسيق أو تكافؤ أو عدل في توفير متطلبات التربية والتعليم في المدارس والمعاهد المختلفة، وبخاصة مؤسسات التعليم التقني والتكوين المهني.

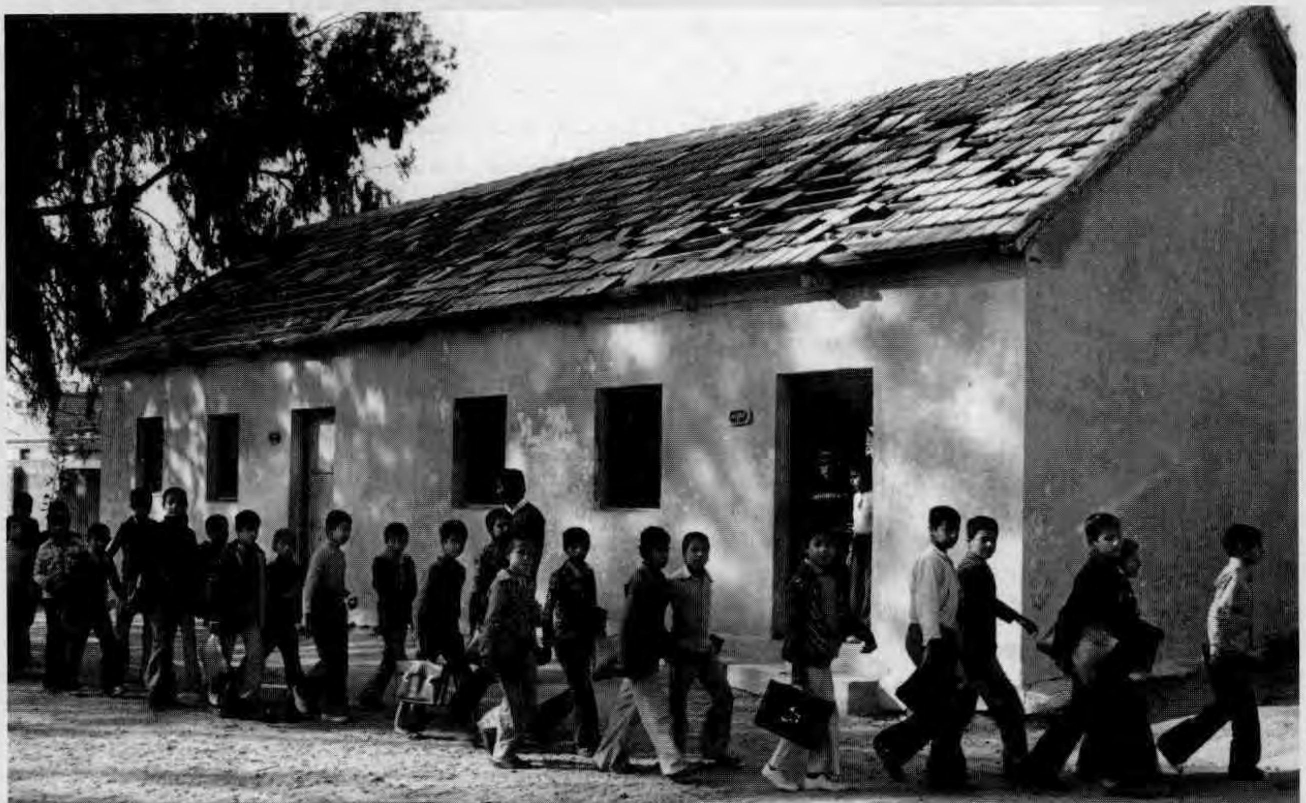
٥- وسائل التقويم من اختبارات وامتحانات هي مجرد أدوات للتحكم في نسبة التدفق إلى المستويات الدراسية العليا.

٦- يعتمد نظام التعليم في كل مستوياته الأساسية والثانوية والجامعية طرائق تعليمية تقليدية تقوم على تلقين المعارف، ولا تأخذ بالحسبان اختلاف مؤهلات التلاميذ وميولهم وطاقات التعلم لديهم.

هذه المناهج الفاسدة جعلت التعليم ينمّي في المتعلمين عادات ومظاهر سلوكية فردية وجماعية تتعارض مع مخططات التنمية، كالتشجيع على الاستهلاك والهجرة وتخريب البيئة. كما أن النخبة المكونة في الجامعات ذات فكر أداتي ذرائعي (براغماتي) غرضها الأساسي هو تحقيق النجاح في الحق أو الباطل، لا عناية لها بالأخلاق، هدفها الأول والأخير هو النجاح الشخصي الذي يحقق حلم الثروة والجاه والنفوذ(٢٠).

عجز التعليم العالي العمومي

أما مؤسسات التعليم العالي فإنها تعاني صعوبات كثيرة: ضعف التأطير التربوي والإداري على مستوى الإدارة وعلى مستوى مختلف المؤسسات الجامعية، وتعقيد المسطرة الجاري بها العمل، الشيء الذي يشكل عامل حصر في إنجاز مختلف مخططات تنمية التعليم العالي(٢١)، مما يحد من فاعليتها الاجتماعية، فهي على العموم غير مندمجة في محيطها الاجتماعي والاقتصادي، ويحول دون أدائها



تلاميذ في طريقهم إلى مدرستهم

لمهامها، ويتسم هذا الأداء بصعوبات التجاوب مع أولويات التنمية. كما تعاني عجزاً عن استيعاب حملة البكالوريا (الثانوية العامة) المستحقين كل سنة، بسبب ضعف التجهيز الجامعي وركود الأعداد في السنوات الأولى لمختلف الكليات نتيجة تدني نسب النجاح.

عوائق إدارية وسياسية علمية

غياب السياسة العلمية السليمة

يزيد في تعميق الهوة العلمية بين جامعاتنا وغيرها من الجامعات عدم استقلالية مؤسساتنا الجامعية ومراكز البحث العلمي، على اعتراف كثير من النصوص القانونية والتشريعات الإدارية بهذه الاستقلالية(٢٢) التي لم تدخل حيز التطبيق وقد مضى على بعضها قرابة ربع قرن من الزمن.

ويؤدي هذا الوضع إلى تقليص أعداد العلماء بهذه المؤسسات، وهجرة الكفاءات العلمية الوطنية إلى الخارج.

والمقيمون منهم في أوطانهم يجدون في الدوريات العلمية الأكاديمية العالمية مجالاً مفتوحًا لنشر نتائج بحوثهم العلمية التي تتصدى لمشكلاتنا الوطنية، مما يزيد في تقليص فرص الاطلاع عليها وانتشارها في بلداننا المحتاجة إليها. ويترتب على ذلك كله ضعف مردودية البحث العلمي بصفة عامة، والبحث في علوم التربية بشكل خاص. ويضاف إلى ذلك إهمال الرصيد القائم من البحوث والدراسات، وعدم توثيقه ونشره وإتاحته للقراءة والمراجعة، وعدم الاهتمام بشكل عام بالدراسات والبحوث التي تتصدى للمشكلات الاجتماعية على الرغم من أن كثيراً من البحوث الوطنية تقدم أوصافًا دقيقة لمشكلاتنا وأسبابها قد تساعد على وضع حلول ناجعة لها. إن البحوث المنجزة سواء في مؤسساتنا الوطنية، أو أنجزها مواطنونا في مؤسسات بحث أجنبية تزداد تراكما سنة بعد أخرى، فينمو التراث وتزداد رفوف مكتبات معاهد البحث تضخمًا واكتظاظا، لكن مشكلاتنا تظل - مع الأسف - كما هي.

لا يلتفت إلى الكفاءة الاقتصادية للمرأة مع أنها تشكل أكثر من نصف عدد السكان

كما نشكو قلة مراكز التوثيق والمكتبات، فعلى الرغم من حيوية هذه المؤسسات وأهميتها في نشر العلم والمعلومات، وفي تعميم الثقافة وإتاحة فرص التعمق والتخصص العلمي والنهوض بالبحث العلمي، فإن المكتبات قليلة الوجود، وما هو متوافر منها لا يلبي الحاجات المتزايدة والمتنوعة للمتعلمين على اختلاف طبقاتهم، مدرسين كانوا أو متعلمين أو باحثين، ولا يساير التجديد والتطور المعرفي. وأسوأ من ذلك كله غياب أنظمة تصنيف المعلومات وتوثيقها واسترجاعها للتداول والنشر، واعتماد هذه المكتبات في التسيير والتنظيم على أساليب بدائية قديمة لا تخضع لقواعد علمية منظمة، مما يضعف مردوديتها ويحول دون تحقيق أهدافها.

إن التقدم العلمي منوط بالاتصال بين العلماء على جميع الأصعدة الإقليمية والجهوية والوطنية والدولية للموازنة بين نتائج أبحاثهم ومناقشتها(٢٣). وهذا التقدم قد يعاق بسبب غياب أنظمة الاتصال بين العلماء فلا تتاح لهم فرص إغناء البحوث وتنميتها وتعميق الخبرة.

إدارة عجوز مشلولة

يسجل العاملون في حقل التعليم بأسى عميق على الدوام تدخل أجهزة إدارية وحكومية وغيرها في أعمال المؤسسات التعليمية والأجهزة التابعة لها، ويكون هذا التدخل أحيانًا مباشراً يثير حساسيات وردود فعل لدى هيئة التعليم والمتعلمين.

وخطط التنمية لا تدرج تنمية الموارد البشرية كافة، وسبب ذلك أن المؤسسة الإدارية (المخزن) لا تنظر بعين الاهتمام والتقدير إلى أهلية المواطنين وتعلمهم وعملهم وكفاءاتهم وأدوارهم في مخططات التنمية.

وعدم توفير المؤسسات فرص التدريب والتكوين المستمر لمشغليها، بسبب ما يكلفها ذلك من ميزانية، وما يقام من عراقيل إدارية، فلا ترتفع إمكانية المشتغلين ولا تفتح لهم أبواب الترقي والتكوين.

إن بنية التعليم في الدول النامية معقدة، وهي تعكس البنية الاجتماعية والاقتصادية المتميزة بتعدد الأنماط، وبتداخل التقليدي والمحدث، الداخلي والخارجي. وباختلاط عناصر منفصلة مما هو حكومي أو خاص، ديني أو دنيوي. فالأنماط التقليدية الموروثة عن الماضي تتطلب قوى عمل منخفضة التأهيل، وهذا يحول دون تحديث نظام التعليم، كما أن الشركات والتجمعات المتعددة الجنسيات والمؤسسات الاستعمارية الجيدة الإنتاجية والتعليمية على السواء، تضع عقبات من نوع آخر تجاه إعادة بناء نظام التعليم طبقًا لخصوصية الواقع والتراث الثقافي في البلدان النامية ولمصالح تطورها الذاتي(٢٤).

الهوامش

١ـ التعليم والتنمية. جريدة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية عدد ١٣٧، ١٩٨١/٣/١٢م، ص٣.
٢ـ التعليم في الاتحاد السوفياتي. مجلة الأنباءالسوفياتية. عدد ١٠ (٨٠٠) ٢٠ أيار/مايو ١٩٦٧م ص٨.
٣ـ العوضي، عبدالهادي: أهمية التنمية البشرية لكل مجتمع بعامة ولدول الخليج العربية بصفة خاصة. ندوة التنمية البشرية في دول الخليج العربية. الكويت. ذو الحجة ١٤١٦هـ. ص١٠.
٤ـ تقرير البنك الدولي المتعلق بالمغرب جريدة العلم ١٦تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٦م فقرة٢٠.
٥ـ التوسي، عزوز: مأزمية الاتجاهات نحو المدرسة المغربية. مجلة قضايا تربوية. عدد٧ (١٩٩٥م) ص٣١.
٦ـ لحلو، مهدي: قطاع التعليم، المقاولات ورهان التطور: مقال في جريدة الاتحاد الاشتراكي ١٩٩٥/١/٤م
٧ـ النفري، معن: التعليم والتنمية في البلدان النامية. مجلة الوحدة. عدد ٢٢ و ٢٣ (١٩٨٦م) ص١٠٥.
٨ـ نصار، علي: كتاب الإمكانات العربية. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية. ١٩٨٢م ص٦٨.
٩ـ تقرير البنك الدولي مرجع سابق فقرة٨.
١٠ـ جلالي، عبدالرزاق: علم الاجتماع بين الالتزام والأداتية. مجلة المستقبل العربي عدد ١٤٦ (١٩٩١/٤م) ص٩١.
١١ـ وزارة التربية الوطنية بالمغرب: من أجل نظام تربوي جديد. ١٩٨٠م ص١٥.
١٢ـ حميش، بنسالم: في الغمة المغربية، وكالة شراع. سلسلة شراع رقم ٢٠ ص٩٥.
١٣ـ وزارة التربية الوطنية. نحو نظام تربوي جديد ١٩٨٠م ص١٣.
١٤ـ النفري، معن: مرجع سابق مجلة الوحدة. عدد ٢٢ و ٢٣ (١٩٨٦م) ص٩٨.
١٥ـ وزارة التربية الوطنية: نحو نظام تربوي جديد ١٩٨٠م ص١٧.
١٦ـ وزارة التربية الوطنية: نحو نظام تربوي جديد ١٩٨٠م ص١١.
١٧ـ وزارة التربية الوطنية: نحو نظام تربوي جديد ١٩٨٠م ص١١.
١٨ـ وزارة التربية الوطنية: نحو نظام تربوي جديد ١٩٨٠م ص١٢.
١٩ـ النفري، معن. مجلة الوحدة عدد ٢٢ و ٢٣ (١٩٨٦م) ص١٠٣. الحس الباسميني: مشروع المسالك المزدوجة. جريدة العلم ١٩٩٦/١٢/٥م ص١.
٢٠ـ الجابري، محمد عابد: كلمة أمام اجتماع لهيئة الأطباء بالرباط. في جريدة الاتحاد الاشتراكي ١٩٩٦/٦/٢٦م ص٦.
٢١ـ المملكة المغربية: وزارة التخطيط والتنمية الجهوية: مخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية ٨٥/٨١ الجزء٢ القسم ١ ص٦٢.
٢٢ـ مثال المغرب الظهير الشريف رقم ١٠٢/٧٥/١ الصادر يوم ١٩٧٥/٢/٢٥م الجريدة الرسمية للمملكة المغربية عدد ٣٢٥٢.
٢٣ـ غزال، أحمد الأخضر: لم لا تؤدي العلوم والتقنيات إلا باللغة الإنجليزية؟. جريدة الاتحاد الاشتراكي. ١٩٩٦/١٠/٣٠م ص١٢.
٢٤ـ النفري، معن: مرجع سابق مجلة الوحدة عدد ٢٢ و ٢٣ (١٩٨٦م) ص١٠٣.

محمد الجواهري

هل تتوافر الجدوى لإنشاء شبكة عربية لمعلومات التراث المخطوط؟



عباس بن صالح طاشكندي

تتجاوز هذه الدراسة التفصيلات الإحصائية لحجم التراث العربي المخطوط المتناثر على وجه المعمورة كافة، أو الإشارة إلى أهميته وتميّزه، وذلك أن ما يرتبط بتلك العناصر لا يحتاج إلى تدليل أو برهان. فالتراث العربي المخطوط هو التراث الإنساني الذي أذن للحضارة الإنسانية أن تستمر وتتراكم، وأن تسمُقَ عبر العصور الوسطى بما كانت عليه من ثراء وأصالة في عهود ازدهارها. بيد أن محاور هذه الدراسة ستركز، قبل أن تطرح جدوى إنشاء شبكة عربية للتراث المخطوط، على طرح عدد من الأمور الأساسية التي يجدر أن تأخذ العناية الكافية من الاستيعاب. إذ من خلالها يمكن طرح إشكالية الشبكة في إطار ما يتداخل معها من عناصر.

تتمثل تلك الأمور في عدد من الحقائق، يأتي طرح بعضها على النحو التالي:

أولا: التراث العربي المخطوط هو نتاج حضارة بأكملها احتلت في أوج تألقها مساحة جغرافية كبيرة امتدت من إسبانيا غربًا إلى مشارف الصين شرقًا. وهي حضارة ضمت أممًا كثيرة، وشعوبًا متعددة، توحدت جميعها في إطار حضارة إسلامية واحدة، كانت لغة العلم فيها هي اللغة العربية، وكان نتاج تلك الحضارة مصوغًا في معظمه باللغة العربية على اختلاف المواقع التي انبعث منها. وشكل ذلك التراث هوية الحضارة الإسلامية بأكملها.

والتراث العربي المخطوط المتناثر في العديد من المراكز العربية والإسلامية والأجنبية حاليًا يشكل بالنسبة إلينا نحن العرب خاصة، والدول الإسلامية التي كانت ضمن حدود الدولة الإسلامية في العصور الوسطى عامة، عنصر هوية ثقافية يربط الأمم بماضيها. فالدول الإسلامية التي رزحت تحت حكم الشيوعيين سنوات طويلة في ما عرف بالاتحاد السوفيتي سابقًا وجدت فيما احتفظت به من تراثها الثقافي بعد استقلالها بعدًا مهمًا استعادت به شيئًا من هويتها الثقافية الإسلامية، ذكّرها بماضيها. مما جعل لكياناتها السياسية الحالية مرتكزات ثقافية تراثية تتجاوز بها سنوات المحنة ومحاولات تبديد الهوية. ومن هنا، فإن التراث العربي المخطوط له أهمية قصوى في كل موقع هو فيه، بما يمثّل من عناصر الهوية للأمم التي شاركت في إنتاجه صناعة وتأليفًا، وهو حبل تواصل بين المسلمين بعد أن انقطعت عشرات الحبال. فما بقي منها إلا

حبال الدين واللغة والتراث.

ثم إن التراث العربي المخطوط يعد في الوقت الحاضر أهم تراث إنساني مكتوب، بل لعله التراث الإنساني الوحيد الذي بقي بصورة كبيرة، قياساً بأوعية التراث في الحضارات الإنسانية الأخرى كالرومانية والصينية القديمة والفارسية وغيرها، التي اندثرت وتبددت وزالت معالمها. وهو الأمر الذي يوجب أن تكون العناية به عناية علمية بوصفه إرثًا حضاريًا إنسانيًا حفظ للإنسانية تراكم المعرفة، فضلاً عن الإسهامات الأصيلة في شتى ميادين المعرفة خلال العصور الوسيطة وما بعدها.

على أن هذه الحقائق تتطلب منا تفعيلاً متواصلاً لا يقف عند دور الهيئات الإقليمية العربية فحسب، بل يجب أن يتعداها إلى الهيئات الإسلامية والهيئات الدولية كمنظمة اليونسكو وغيرها من الهيئات التي ترتبط أهدافها بالمحافظة على التراث الإنساني عامة.

ثانيـا: يسهل على الكثيرين عند تناول المخطوطات العربية التعويل على العدد، فتأتي الإشارة أحيانًا في خانات عشرات الملايين. لا جدال في أن التراث العربي المخطوط كان إنتاجًا كميًا ونوعيًا؛ فقد أتاحت تسهيلات صناعة الكتاب في العصورالوسطى بما صاحبها من إبداع فكري وتواصل ثقافي ونمو في حركة التأليف، إنتاجَ كم غزير من الأعمال تواصلت من القرن الهجري الثاني إلى القرن الهجري العاشر. ثم جاءت عصور الركود والتأخر، وأفرغت العديد من الدول الإسلامية من تراثها وما يشكل مقومات هويتها، وتكالبت الأمم شرقًا وغربًا على العرب والمسلمين، المغول من جهة، والصليبيون من جهة أخرى، والاستعمار من جهة ثالثة. فما أُحرق قد أُحرق، وما انتقل إلى غير موضعه احتوته مراكز في الغرب، وما تبدد على أيدي المسلمين أنفسهم نتيجة الإهمال أو التهريب أو الحرق قد انتهى إلى غير رجعة، مما قلّص التميز العددي والنوعي للتراث العربي المخطوط الذي تجمع عبر عشرة قرون من الزمان.

على أن من أهم ما عوض تلك الحالة من التردّي هو حركة الاستنساخ التي سادت القرون التالية حتى ظهور الطباعة في أرجاء العالم العربي والإسلامي. غير أن السمة التي سادت حركة الاستنساخ التراثي عبر القرون العاشر حتى الرابع عشر كانت محصلة للاتجاهات الثقافية التي سادت تلك الفترة المتأخرة، وهي فترة معتمة إلى حد كبير اتصفت باهتمامات محدودة، ونتج منها تراث هزيل صوره الدكتور يحيى محمود بن جنيد الساعاتي تصويراً دقيقًا في كتابه «كيف ورثنا الأمية؟».

لعل القصد من إيراد هذه الحقيقة هو العمل على إنجاز دراسات مصدرية تتناول تقويم التراث العربي المخطوط في المراكز التي يتوافر بها. وهناك أمثلة على مراكز حالية تجمعت لديها آلاف المخطوطات عن طريق الشراء، وهي منسوخات لأعمال أساسية أو فصول من الكتب التراثية الدينية التي يدرسها الطلاب في بعض المدارس الدينية التقليدية في شبه القارة الهندية وأفغانستان وبعض الدول العربية. وقد لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن هناك عشرات الألوف من النسخ الخطية لبعض الكتب الشائعة مما يتم تداولها حاليًا على أنها من التراث العربي المخطوط على الرغم من أنها تشكل عبئًا عدديًا على التراث، فضلا عما تشكله من عبء في الحفظ والتنظيم والفهرسة والإعداد.

إننا في حاجة ماسة إلى معرفة:

- حجم التراث العربي الإسلامي، ما يتوافر منه، وما لا يتوافر حاليًا؛ فالجهد الذي بذله بروكلمان وسيزكين لا يكفي. ولا يتأتى ذلك إلا بمراجعة دقيقة للتراجم وكتب الأعلام المخطوطة والمطبوعة لاستخلاص أعمال التأليف.
- حجم التراث العربي المخطوط العائد للقرون الثاني حتى العاشر مما يتوافر في مراكز المخطوطات.
- تقويم حركة الاستنساخ التي سادت القرون العاشر حتى الرابع عشر الهجري.
- تقويم مجموعات المخطوطات الأصلية في مراكز المخطوطات، على أن يشمل التقويم عناصر المخطوط المادية والموضوعية.

ثالثا: باستثناء وضوح الغايات عند إنشاء معهد المخطوطات العربية تحت مظلة جامعة الدول العربية في تكليفه جمعَ مصورات



للمجموعات النادرة من المخطوطات العربية في أنحاء العالم لدراستها وتوثيقها وإعدادها للاستخدام، فإن تجميع المصورات في بعض المراكز الأخرى يحدث إشكاليات عديدة تؤدي في بعض أبعادها إلى إهدار الطاقات والإمكانات فضلاً عن الازدواجية.

إن العديد من المكتبات ومراكز المعلومات لا تفرق بين المخطوطات ومصوراتها، وتسجل بالتالي مقتنياتها المصورة من المخطوطات ضمن مجموعاتها الأصيلة، بما يوحي عدديًا بانطباعات غير حقيقية. فالمخطوط عند أهل الاختصاص يختلف عن النسخة المصورة، لأن النظر إلى المخطوط من الناحية التراثية لا يعزل بين مكوناته المادية ونصوصه الموضوعية، أما المصورات فمدلولها ينحصر في

التراث العربي المخطوط أهم تراث إنساني مكتوب، بل لعله التراث الإنساني الوحيد الذي بقي بصورة كبيرة



التراث المخطوط حبل تواصل بين المسلمين في كل مكان

النص دون المحتوى المادي الحقيقي.

وتقع مظاهر الإهدار بالنسبة للمصورات عند أمرين:

الأول: عند اقتناء مجموعات كاملة من المصورات التي تعود ملكية أصولها إلى مكتبات معروفة تتيح للباحثين الحصول على مصورات لمخطوطات بذاتها دون عوائق. والمثال على ذلك مجموعة شستربيتي أو جاريت أو ييل أو هارفارد أو غيرها. فما الدافع للحصول على مجموعات كاملة من المصورات إن كانت سبل إتاحتها مفردة للباحثين الراغبين في عمل بعينه ممكنة وميسرة؟. وقد تراكمت نتيجة لذلك مجموعات مكررة من المصورات، منها مجموعة شستربيتي الشهيرة، التي تمتلكها في دولة واحدة أكثر من خمس مكتبات.

الثاني: عند فهرسة المصورات التي يتم اقتناؤها من المكتبات المعروفة. وهناك أمثلة لمكتبات اقتنت من معهد المخطوطات العربية مجموعة من صور المخطوطات التي سبق فهرستها في المعهد، ثم قامت بتكرار الفهرسة وفق النمط الذي تصدر به فهارسها. ويمكن ملاحظة نماذج عديدة تباينت فيها فهرسة المصور عن المخطوط الأصلي مع أن الأساس واحد.

ولاشك أن تلك الممارسات تؤدي إلى إهدار الإمكانات والطاقات مما ينعكس سلبا على أولويات هي الأجدر بتوجيه الجهود إليها.

رابعًا: تتقاعس بعض المكتبات الوطنية في أرجاء عالمنا الإسلامي والعربي عن ممارسة دورها في تجميع التراث المخطوط وحفظه وتوثيقه، وهي أولى بتلك المهمة من غيرها. فالمكتبة الوطنية هي الذاكرة لإنتاج الأمة بأشكاله المعاصرة والتراثية، وهي المسؤولة عن جمعه وحفظه وترميمه وتسجيله وحمايته وضبطه، وهي التي تعمل على استصدار القوانين والأنظمة الكفيلة بإنجاز تلك المهمات، وهي المسؤولة أيضًا عن إصدار الفهارس المختصة بالمخطوطات، والعمل على تيسير استفادة الباحثين منها. والمكتبات الوطنية عادة تكون بمنزلة هيئات وطنية مستقلة يتوافر لها من الإمكانات ما لا يتوافر لغيرها. فضلاً عن أن أنظمتها تخصها بتلك المسؤوليات تحديدًا، مما يوفر لها إمكانات التنفيذ أفضل من غيرها من المكتبات والمراكز.

على أن تقاعس بعض المكتبات الوطنية في أرجاء العالم الإسلامي والعربي كان من أهم

الأسباب التي أدت إلى تشتت التراث العربي المخطوط وضياعه، إذ من المعروف - تاريخياً - أن معظم الأعمال التراثية ارتبطت بأنماط من المكتبات الوقفية الصغيرة في المساجد والمدارس والرُّبط و(الخانقاهات) والأضرحة ودور الأيتام، وبعض المكتبات الوقفية المخصصة، إضافة إلى ما توافر من مجموعات صغيرة بأيدي الأفراد. ولا تلقى تلك المجموعات عناية الهيئات التي تشرف عليها، بل أدت مظاهر الإهمال إلى ضياع العديد منها. وكان بالإمكان قيام المكتبات الوطنية إما بتجميع تلك المجموعات، أو الحصول على مصوراتها، وتوثيقها وضبطها حماية للتراث الوطني.

ولعلي أشير إلى أن وزراء الثقافة العرب كانوا قد عقدوا اجتماعاً منذ ما يقرب من عقدين من الزمان ناقشوا خلاله وضع صيغة موحدة لقانون حماية التراث المخطوط، وتضمنت توصياتهم حث الدول العربية على إصدار قانون مخصص لحماية التراث المخطوط في كل دولة على حدة. وتبين بالبحث عدم صدور أي قانون مخصص باستثناء نص مقتضب جاء في قانون الآثار الصادر في دولتين عربيتين.

ثم يبقى أن نطرح السؤال الذي يثيره عنوان هذه الدراسة: **هل تتوافر الجدوى لإنشاء شبكة عربية لمعلومات التراث المخطوط؟**

إن الاعتبارات التي طرحت بداية تجيب عن السؤال دون أيّ تردد، يضاف إلى ذلك أن التعامل مع التراث العربي المخطوط يبلور حقائق عديدة منها:

- ضخامة حجمه عددياً وتميز سماته نوعياً.
- تعرضه للتشتت بين أنواع عديدة من الهيئات القادرة أو غير القادرة على التعامل معه.
- الفقدان القسري بسبب ضعف أدوات ضبطه تصنيفياً (ببليوجرافياً).
- تعدد مناهج فهارسه وتحقيقه.
- وضوح الازدواجية والتكرار في التعامل معه ضبطاً وتحقيقاً وصيانة واستخداماً.

وقد نخطئ التقدير إذا اعتمدنا على مقولة «ضعف الإنفاق» الحكومي. فهناك - بلا شك - إنفاق يتم عبر قنوات كثيرة، بيد أن الإنفاق في ظل تلك الحقائق التي أشرنا إليها لا يؤدي في الغالب إلى نتائج ملموسة.

وتعتمد جدوى إنشاء شبكة عربية لمعلومات التراث المخطوط على مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة التخطيط

وتسعى هذه المرحلة إلى وضع خطة شاملة يتم فيها التعرف إلى:

- حجم التراث العربي المخطوط بصورة شاملة (تطوير دراسات بروكلمان وسيزكين).
- المتوافر من التراث العربي المخطوط حول العالم. (تجميع فهارسه وأدواته).
- تقويم مجموعات المخطوطات المتوافرة (صناعة وتأليفاً) بحيث تنتهي إلى وضع صياغات بشأن إنشاء «شبكة عالمية لمعلومات التراث العربي المخطوط» تنحصر مهمتها في إدخال البيانات (الببليوجرافية) ومستخلصاتها. وعلى أن تركز تلك البيانات على:
- الوصف الببليوجرافي للمخطوطة الأصلية.
- الوصف المادي للمخطوطة الأصلية.
- المستخلص.
- موقع المخطوطة.

على أن تعتمد قاعدة الشبكة على التقنيات الآلية باستخدام التقنيات المتاحة عبر مواصفات شبكة الإنترنت.

وعند وضع مواصفات الشبكة يمكن اختيار الأبدال المتاحة من حيث قيامها تعاونياً عبر الجهات المشاركة، أو قيام هيئة مركزية بإنجازها واستثمارها فيما بعد عن طريق تقديم خدماتها عن بُعد لقاء رسوم معينة عبر نوافذ الإنترنت.

والشبكة على هذا النمط تعدل مساراً وقع



مزايا عديدة لاستخدام شبكة معلومات في حفظ التراث المخطوط

فيه المخطوط العربي من حيث الضبط مما أدى إلى تعثر السيطرة على ضبطه بطرق سهلة ميسرة. فقد عمل المصنفون (الببليوجرافيون) الأوربيون خلال القرون من السابع عشر إلى التاسع عشر إلى وصفه ضمن مناهج نقد النصوص للتحقق من صحته الزمنية، وبالتالي إقامة البراهين على صحته الموضوعية. وهو نهج خصص في الأصل للتحقق من النصوص اللاتينية القديمة، واستخدم في مقارنة النصوص الشكسبيرية، ويصعب إعداد القائمين عليه في الوقت الحاضر.

وفهارس المخطوطات في حاضرنا تعد أدوات حصر وإيجاد، FINDING TOOLS والاقتصار على العناصر التي سبق ذكرها يؤدي الأغراض على أحسن حال.

المرحلة الثانية: برامج التنسيق والتعاون

ولن يتأتى للشبكة استكمال مقوماتها إلا بوضع برامج للتعاون والتنسيق بين المراكز التي تضم مجموعات من التراث العربي المخطوط. ولا تتشكل بنية التعاون والتنسيق إلا من خلال برامج حقيقية تتولى وضعها جهة مركزية، ثم توالي تعميمها على الجهات المعنية. ومن تلك البرامج:

١ـ صياغة برنامج تجهيزي آلي يضع مواصفات:

- الوصف الببليوجرافي للمخطوطات الأصلية.
- الوصف المادي للمخطوطات الأصلية.
- بناء المستخلصات.
- ترميز مواقع المخطوطات.

بحيث يتم تعميمه على المكتبات والمراكز المشاركة التي استكملت بنيتها التقنية الأساسية المتوافقة مع متطلبات الشبكة ومتطلبات الإنترنت.

٢ـ إعداد برامج تدريبية متكاملة لفهرسة المخطوطات وفق المعطيات الآلية.

٣ـ ترويج البرنامج الآلي بين الهيئات التي تقتني المخطوطات العربية كافة.

٤ـ إنشاء صندوق إقليمي أو دولي بمساندة الهيئات المحلية والإقليمية والدولية، ومنها منظمة اليونسكو، لمساعدة الهيئات التي تقصر مصادرها عن تمويل مشاريع ضبط التراث المخطوط، وتقديم المساعدات التجهيزية والمادية لتمكينها من المشاركة في الشبكة.

٥ـ ربط الهيئات المشاركة بقاعدة الشبكة مما يعين على المشاركة التعاونية في تجهيز بيانات الشبكة.

المرحلة الثالثة: مرحلة تداول النصوص آليًا FULL TEXT

وتتكامل غايات الشبكة بإتاحة تداول النصوص آليًا عن بُعد. ويتم في هذه المرحلة استثمار الشبكة ماديًا بحيث تحقق الجهات المشاركة مردودًا ماديًا لقاء تداول النصوص، مما يتيح لها إمكانات التطوير المستمر، فضلاً عما تحققه الهيئات من استثمار لمجموعاتها من ناحية، وترويج للتراث العربي المخطوط من جهة أخرى.

وتتكامل مجمل غايات الشبكة بإنجاز المرحلة الثالثة حين تتاح النصوص الكاملة للمخطوطات آليًا عبر شبكة عالمية تتحقق لها مظاهر الإنجاز، كما تتحقق لنا فرص التعريف بأعظم تراث خلدته الإنسانية في عصورها الوسطى، مما يعطي زخمًا لمزيد من الدراسات

تخوض جامعة الملك عبد العزيز تجربة رائدة لإنشاء قاعدة معلومات خاصة بمجموعتها من المخطوطات العربية

العلمية للكتاب الإسلامي صناعة وتأليفًا، وتلك أعظم غايات العناية به.

تجربة جامعة الملك عبدالعزيز

تخوض جامعة الملك عبدالعزيز ممثلة في عمادة شؤون المكتبات تجربة رائدة في هذا الميدان عن طريق البدء في مشروع إنشاء قاعدة معلومات خاصة بمجموعاتها من المخطوطات العربية؛ فقد تولت شراء نظام «المستشار» بتجهيزاته التنظمية والمادية، وعملت على توسيع سعة الإدخال فيه بما يعادل ٥٠٠٠ ميجابايت. وأثبتت التجربة إمكان التوسع المرحلي بحيث يكفي النظام إدخال ما يعادل خمسة آلاف مخطوطة بنصوصها الكاملة.

وتتكامل خطوات التنفيذ عبر المراحل التالية:

١ـ تحويل حقول فهرس المخطوطات المطبوع إلى برنامج تجهيزي يستند إلى الحقول التالية:

- حقل الموضوع.
- حقل التاريخ.
- حقل التأليف.
- حقل العنوان.
- حقل الناسخ والمكان.
- حقل الوصف المادي:
  الوعاء.
  الخط.
  الملاحظات المادية.
- حقل المحتويات.
- حقل الترميز.

وتعدّ تلك الحقول حقول استرجاع جزئي أو كلي بالنسبة إلى القاعدة.

٢ـ إدخال بيانات القاعدة من خلال فهرس المخطوطات المطبوع بناء على الحقول التي يتيحها البرنامج الآلي.

٣ـ استحضار المخطوطة الأصلية وإجراء المسح الضوئي لنصوصها كافة، وتخزينها بالمضاهاة مع الحقول المعدة لوصفها ببليوجرافيًا وماديًا.

وقد أنجز حتى الآن ما يقارب ١٠٪ من المجموعات، والسبب في التأخير هو المراجعة المستمرة في المراحل التجريبية، ومحاولة تفادي احتمالات الـ GIGO مما يمكن أن يؤثر في استمرار التجربة.

وقد لاحظنا خلال مراحل التجريب الأولي توافر حد كبير من إمكان التنفيذ، مع الأخذ في الحسبان التوسع المستمر في سعة التجهيز الآلي عن طريق إضافة ميجابايت إضافية، أو البحث عن بديل آخر وهو تنفيذ النصوص الكاملة على أسطوانات مدمجة يتم تلقينها آليًا عند الحاجة إليها.

ومن أهم مزايا النظام في القاعدة تحقيق:

- مرونة وسهولة مبررة إلى حد كبير.
- إمكان تكبير النص أو الكلمة بمعدلات كبيرة مما يساعد على تحقيق النصوص.
- إمكان إخراج نصوص ملونة يتم استخدامها للتعبير عن السمات المادية في المخطوط.
- إمكان طباعة النصوص كاملة أو جزئية وبثها عن بُعد.

وإذا ما قدر لهذا المشروع النجاح التام، فإنه يؤكد إمكان قيام شبكة معلومات تعاونية للتراث العربي المخطوط.

طرائق تعليم اللغات الأجنبية وتعلمها بين البنوية والوظيفية التبليغية

شريف بوشحدان

في أوائل القرن الحالي، ظهر كتاب صغير الحجم، عظيم الفائدة، لصاحبه اللساني السويسري فرديناند دي سوسير F.de.Saussure بعنوان: «Coups de linguistique generaleå وكان الناس حينها في أمس الحاجة إلى نظرية عامة للغة، تحدّد موضوعها، وتوضّح مفاهيمها، وتعالج عناصرها معالجة شاملة بوصفها كُلاً لا على أنها عناصر معزولة بعضها عن بعض.

وهذا ما وجده الباحثون في كتاب سوسير، إذ لاحظوا أنّ الرجل يسلك منهجًا يختلف تمامًا عمّا سبقه من مناهج، فهو ينظر إلى اللغة نظرة شاملة لا جزئية، وهي نظرة آنية Synchronique غير تطورية لظواهرها، وبهذا المنهج انتقلت اللغة من الدراسة التاريخية إلى الدراسة الوصفية البنوية بالالتفات إلى بنيتها structure والنظر في هيكلها في زمن معيّن، وأصبح اللسان بذلك نظامًا Systeme ترتبط فيه الأجزاء ارتباطًا تتحدّد به قيمة كلّ عنصر من خلال الحضور المتزامن للعناصر الأخرى من المجموعة التي ينتمي إليها(١).

هذا عن البنوية الأوربية التي برزت مع المفاهيم التي جاء بها سوسير، والتي انطلق منها اللسانيون من بعده، ومنها تشكلت معظم المدارس اللسانية.

أما البحث اللساني في أمريكا، فقد تناول الظاهرة اللغوية تناولاً مختلفًا عمّا هو عند سوسير وأتباعه، إذ لم يكن الباحثون الأمريكيون على اتصال وثيق بما كان يجري في أوربا، وقد اتخذ هذا البحث وجهته الخاصة به بعد أن نشر بلومفيلد (ت: ١٩٤٩م) كتابه الشهير اللغة Language سنة ١٩٣٣م، وكانت الفلسفة السلوكية في الثلاثينيات من هذا القرن التيار الذي لا ينازع في حق العلوم النفسانية، وكان واطسن J. B. Watson أحد روادها.

وانتقل أثر هذه الفلسفة إلى العلوم اللسانية بفضل بلومفيلد الذي كان من أكبر المتحمسين لها. وقد طبق فرضيات السلوكيين في دراسة اللغة التي عدّها كذلك سلوكًا يخضع لعاملي المثير والاستجابة(٢) واللساني ـ في نظره ـ لا يعالج إلا الأحداث المحدّدة بالزمان والمكان، والخاضعة لكل الملاحظين مهما كانت صفتهم(٣)؛ لذلك فلا يتعدّى عمل اللساني المظهر الخارجي للغة؛ لأنّه غير قادر على معالجة المسائل المتعلقة بعمل الأعصاب Neurolgie، ورفض بذلك كل المصطلحات الذهنية التي لا تزيد ـ في نظره ـ البحث اللساني إلا غموضًا وتعقيدًا مثل الفكر Pensee والمدلول Concept. ويفهم من ذلك أن البحث الدلالي Semantique ينبغي إبعاده عن كل دراسة وصفية(٤).

أما اللغة عنده فليست إلا سلسلة من المراتب المتدرّجة Rangs hier-archises الصوتية والصرفية والجملية حيث يُحدّد كلُّ عنصر بارتباطاته في السُّلم الأعلى.

ولتحديد العناصر في كل مستوى، ينبغي تقطيع السلسلة الكلامية بكيفية تمنع اللجوء إلى المعنى إلا في بعض الأمور التقنية للتأكد من هوية الأقوال في حدود الاستطاعة(٥).

ومجمل القول أن البنوية الأمريكية خلافًا للأوربية تقوم بتقطيع الكل إلى عناصر مكوّنة، وتحدّد كُلّ واحد منها بحسب موضعه من ذلك الكل، وما يمكن أن يحدث من تحولات في ذلك الموضع(٦).

أما الوظيفية Fonctionnalisme فهي اتجاه لساني مستوحى من دروس سوسير، انطلقت مع أعمال حلقة براغ اللسانية(٧). التي كان العالم الروسي الكبير رومان جاكوبسن R.Jakobson المحرّك الأساسي لها، وامتدّ أثرها بقوة إلى فرنسا مع أعمال مارتيني A.Martinet وأتباعه.

واللسانيات الوظيفية ترفض كون اللغة نظامًا شكليًا أو موضوعًا مغلقًا للتحليل يُدرس لذاته. فهي تربط كلَّ وصف لساني بالوظيفة المركزية للغة، وهي التبليغ.

وقد كان تأثير اللسانيات البنوية وعلم النفس السلوكي في مناهج تدريس اللغات عميقًا واضحًا. فقد ظهرت طرائق متعددة تعطي الأولية للجانب الشفوي، وترفض الاعتماد على الترجمة، لأنّ اللغات أنظمة مختلفة، وأنّ اكتساب اللغة يتمُّ عن طريق تكوين العادات اللغوية التي تتمُّ بواسطة التكرار.

وبعد فترة وجيزة من ظهور الطرائق المتنوعة في حقل تعليمية اللغات، بدأ الإحساس بعدم فاعليتها يتزايد. وظهر للجميع أن النتائج المحصّل عليها لم تحقق الأهداف التي وضعت من أجلها تلك الطرائق، فقد اتضح أنّ المتعلمين بهذه الطرائق ليسوا بأحسن حالاً من المتعلمين بالطرائق القديمة(٨). وفي تلك الأثناء برزت طرائق جديدة تقوم على أفكار ومبادئ مغايرة للطرائق البنوية. أهم هذه المبادئ تغيُّر النظرة إلى مفهوم اللغة، وإلى طبيعتي تعليمها وتعلمها، فمسّ التحوّل العناصر المكوّنة للعملية التعليمية وهي: المادة اللغوية، والمتعلم، والطريقة.


واطسن

وتنضوي هذه الطرائق كلّها تحت الاتجاه الوظيفي في تعليمية اللغات. ويمكن أن نرصد مظاهر هذا التحوّل في العناصر التالية:

أولاً: الجمهور المقصود: ونستطيع تحديده بطرح السؤال التالي: من نُعلّم؟ والمنهجية البنوية تعامل المتعلّم بوصفه تلميذاً(٩) يتلقى تعليمًا مفروضًا من المؤسسة، لا يختلف عن التعليم العام حيث يُصنّف الجمهور بحسب السن أو المستوى العلمي في أحسن الأحوال.

أما المنهجية الوظيفية فتتعامل مع متعلمين Learners يستعان بهم في وضع المشاريع التربوية التي تخدمهم. وهؤلاء المتعلمون هم في الغالب راشدون، يُنظر إليهم على أنهم مختلفون، ويصنفون بحسب مستواهم الثقافي العلمي أو الاجتماعي المهني، وتكون احتياجاتهم بذلك مختلفة وخصوصية، ولا يدوم هذا التعليم إلا فترة قصيرة.

ثانيًا: الأهداف: وهي تلك التي يمكن التعبير عنها بالسؤال التالي: «لماذا نعلّم؟» وبالإجابة عن هذا السؤال تبرز العناصر الأساسية التي تختلف في ضوئها المنهجية الوظيفية عن المنهجية البنوية.

- بين الملكة اللغوية والملكة التبليغية: إن هدف المنهجية البنوية، مع تركيز أصحابها على قيمة الإفادة لتحضير الفرد للحياة العملية، لا يتعدى الملكة اللغوية. لكنّ المنهجية الوظيفية، وإن كانت تلتقي مع المنهجية البنوية في التركيز على قيمة الإفادة، تختلف عنها عند التطبيق، إذ تولي اهتمامًا كبيراً لاستعمال اللغة في الحياة الاجتماعية المهنية. لذلك فهي تفرّق جيداً بين تعليم يولي اهتمامًا باللغة بوصفها نظامًا، ويكون هدفه إكساب الملكة اللغوية، وتعليم يعطي الأولية للاستعمال، ويكون هدفه إكساب الملكة التبليغية Compelence Communicative.

أما النوع الأول: فلا يأخذ بالحسبان إلا البعد اللساني، أي القدرة على فهم وإحداث عدد لا نهائي من الجمل الصحيحة نحويًا. ويرى أصحابه أن التصحيح النحوي ضروري كاف؛ ذلك أن التعليم البنوي يختبر المعرفة النحوية لا المهارة، ويتوقف نجاح الفرد هنا على مدى اكتسابه للمعارف النحوية.

وأما النوع الثاني: فيهتم بالبعدين اللغوي وغير اللغوي للتبليغ، أي الجمع بين اللغة بكونها معرفة نظرية ومعرفة عملية، ويتطلب ذلك من المتعلم معرفة القواعد اللغوية التي تمكّنه من الاستعمال الصحيح للغة، ومعرفة القواعد الاجتماعية الثقافية التي تيّسر له استعمال اللغة في المقام الاجتماعي المناسب(١٠) وهنا يصبح التصحيح النحوي غير ضروري؛ لأننا نستطيع أن نفهم جملاً خاطئة نحويًا، وغير كاف لأنّه لا يستطيع أن يعوّض الجوانب المتعلقة بالبعْد غير اللغوي Poralinguistique. ذلك أن التعليم الوظيفي مرتبط بما يستحسنه المستمع لا بالمعرفة النحوية لأنّ اللغة عند أصحابه مهارة تكتسب مع الملكة اللغوية في الوقت نفسه.

- بين المشافهة والكتابة: كانت المنهجية البنوية تعطي الأولوية للجانب الشفوي الذي أهملته الطرائق التقليدية، وذلك للأمور التالية:

- أن البدء بالمنطوق من اللغة يساير المسار الطبيعي لاكتساب اللغة.
- أن البدء بالمشافهة يُجنب تداخل النطق مع الكتابة والقراءة.

أما الوظيفية فلا تعطي الأولوية للجانب الشفوي؛ لأن الأهداف فيها تحدّد حسب خصوصية المتعلمين ورغباتهم، وليس انطلاقًا مما يعتقد علماء النفس في نظرية اكتساب اللغة. إنّ تعليم اللغة في هذه المنهجية يمكن أن ينطلق من تعليم الكتابة أو الجمع بينها وبين لغة المشافهة، فالتعليم هنا يردُّ الاعتبار للجانب المكتوب.

- بين البرنامج المدرسي والبرنامج الوظيفي:

فالأهداف في المنهجية البنوية مستوحاة من المبادئ التربوية العامة، وهذه المبادئ توضع انطلاقًا من احتياجات الطلبة المؤهلين وقدراتهم العالية، تقوم بها الموسسة الرسمية، وتقدّم إلى الأساتذة على شكل تعليمات رسمية.

أما المنهجية الوظيفية فتحدَّد الأهداف فيها انطلاقًا من احتياجات المتعلمين ورغباتهم في القيام بتحقيقات Enquettes ميدانية. والبرنامج الوظيفي ينطلق من تحديد الوظائف والأدوار الاجتماعية التي ينتظر أن يقوم بها وما يناسبها من عبارات وأساليب لغوية مختلفة(١٢)، وقديمًا أشار الجاحظ إلى أنّ «كلام الناس في طبقات كما أنّ النّاس أنفسهم في طبقات»(١٣).

ثالثًا: المحتوى المناسب: ويحدّد انطلاقًا من السؤال التالي:

ماذا نُعلّم؟

فالمنهجية البنوية تنطلق من محتوى شكلي (الأشكال اللسانية) لتحدّد من خلاله المفاهيم التي ستعلم، ولذلك فأصحابها يهتمون بإحصاء الأشكال اللغوية لاستخراج البنى النحوية والوحدات المعجمية الأكثراستعمالاً.

اللسانيات الوظيفية تربط كل وصف لساني بالوظيفة المركزية للغة وهي التبليغ

أما المنهجية الوظيفية فتنطلق من محتوى دلالي (أي المفاهيم) للوصول إلى الأشكال اللسانية الحاملة لها.

فالمدرسون هنا يرتكزون على إحصاء المفاهيم التي تلائم الجمهور المقصود والأساليب التعبيرية المناسبة المأخوذة من خطابات حقيقية سجلت في أثناء التحقيقات.

إن المنهجية البنوية، بالنظر إلى اهتمامها الواضح بالأشكال اللغوية، تقلّل من شأن المحتوى الدّلالي للرسالة، وتهمل الأحوال التي حدثت فيها (من يتكلم؟ ولمن؟ ومتى؟ وبأيّ مكان؟ ولأيّ غرض؟ وبأي واسطة؟).

أما الانتقاء Selection عند البنويين فقائم على تحديد العناصر اللغوية، أي يتجه إلى تقليص المدوّنة؛ لأنّها ستوجه إلى جميع المتعلمين، ومثل هذا التعليم تعزّز فيه المادة التعليمية، ويتّسم فيه الانتقاء بالاقتصاد والشمولية.

المنهجية البنوية تقلل من شأن المحتوى الدلالي للرسالة، وتهمل الأحوال التي حدثت فيها

وهو إلى ذلك صارم في تطبيق المقاييس العلمية التي تساعد على التحليل الموضوعي للمادة اللغوية مثل (التواتر والتوزيع والتهيّؤ)(١٤)، ولا يبالي أصحابه بالاختلافات بين المتعلمين.

أما في الوظيفية فإن الحدث الكلامي هو المعزّز، وتكون الأحوال التي حدثت فيها الرسالة في بؤرة الاهتمامات، فكل حدث كلامي في نظر أصحاب هذا الاتجاه يتحقق من خلال خطاب متفرّد في بنيته ومحتواه، ويتوقف ذلك على طبيعة المتكلمين، ومكان إحداث الرسالة وزمانه، وأحوال أدائها. لهذا فالانتقاء قائم على القاعدة الشهيرة: «لكل حسب حاجته». ويشترط في المدوّنة ملاءمتها للطلب وجعلها عملية. فأصحابها يثقون في المتعلمين ويُحملونهم جزءًا من المسؤولية، بأن يكتشفوا بأنفسهم ما هم بحاجة إليه في اللغة التي ستُعلّم. وقد فطنوا إلى قيمة الجهود التي يبذلها المتعلّم لتحصيل ما يحتاج إليه فعلاً في تواصله الاجتماعي والثقافي والعلمي.

من تدريج المادة إلى التركيز على جهود المتعلّم

كان أصحاب المنهجية البنوية ينطلقون من تحليل اللغة لاستخراج العناصر التي ينبغي أن تُعلّم، وبعد ذلك يقومون بتدريجها وفق مقاييس أهمها التواتر والانتقال من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المعقد. إلخ.

ولذلك، فإن البرنامج البنوي هو جزء منظم من الأشكال اللغوية يُحضّر مسبقًا، ويفرض على المتعلمين فرضًا.

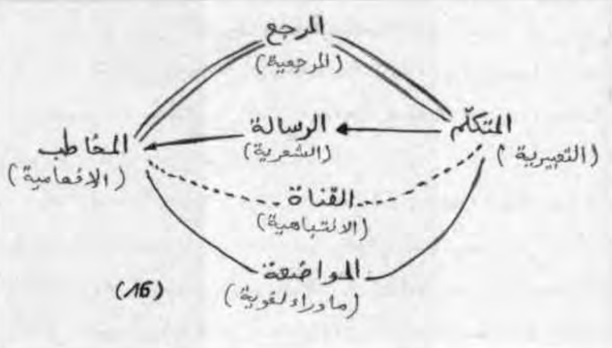
ومن هنا يكون التركيز من جانب المتعلمين على المادة اللغوية خدمة لعنصر التعليم Enseignement لا التعلّم Apprentissage.

أما أصحاب المنهج الوظيفي فيرون أنّه يجب ألا نُعلّم مادة واحدة لجميع المتعلمين، بل أن ننطلق من المتعلم لنحدّد المادة التعليمية، ومنه أيضًا إلى تدريجها، ونتيجة لذلك يمكن أن نضع تدرجًا لكل فرد أو لكل فئة لها احتياجات واحدة، وتشترك في المستوى الثقافي الفكري والاجتماعي المهني. وحتى النحو ينبغي أن يكيّف حسب مقتضيات أحداث الكلام، ومن هنا، فإنّ هذا البرنامج يحضّر بعد معرفة المتعلمين، ثم إنه خاضع للتغيير المستمر.

من الوظيفة المرجعية إلى كل الوظائف الأخرى

إذا ما بحثنا عن الوظائف اللغوية التي يركز عليها أصحاب المنهجيتين في تدريسهم للمحتوى، وجدنا المنهجية البنوية لا تكاد تهتمُّ إلا بالوظيفة المرجعية(١٥) Referentielle؛ لأنها تمثل أساس رسائل كثيرة، إذ من دون مرجع لا يكون هناك تواصل إطلاقًا، فالمرجع قوامه المواضعة. ويزداد التركيز على هذه الوظيفة في تدريس اللغة للمبتدئين.

أما أصحاب المنهجية الوظيفية فواعون أهمية كل الوظائف، خصوصًا تلك الصادرة عن المتكلم وهي الوظيفة التعبيرية Fonction Expressive أو المخاطب، وهي الوظيفة الانفعالية Impressive، ثم الوظيفة الانتباهية Pho-tique وهي تلك التي تصدر عن قناة اتصال بين المتكلم والمخاطب، ولذلك، فهم يضعون كل الوظائف اللغوية موضع اهتمام في عملية التبليغ، والمخطط التالي يوضّح ذلك:



رابعًا: الطرائق التربوية (البيداغوجية) المعتمدة:

إن الطريقة هي التي تحدّد لنا كيفية تعامل المدّرسين مع المادة اللغوية والمتعلمين. وهي التي تجيب عن سؤالنا: كيف نعلّم؟ ولا يتّضح ذلك إلا بمعرفة الأسس النظرية التي تبنى على ضوئها الطريقة Methode(١٧) التعليمية. أي ما المعارف والعلوم والنظريات التي استعان بها المدرسون أو المشرفون على العملية التّعليمية التعلّمية.

والإجابة عن هذا السؤال تبين بوضوح الفارق بين طريقة وأخرى؛ فقد كانت الطرائق البنوية تستوحي مبادئها من اللسانيات البنوية وعلم النفس السلوكي، ذلك أن الاتجاه السلوكي يعمل بإلحاح على إكساب العادات اللغوية، واللسانيات البنوية تقوم أساسًا على الجملة كوحدة أساسية للقول، لا تتعدّى وظيفتها الداخلية، ولا تهتمُّ بظروف أحداثها.

أما الطرائق الوظيفية فلم تكن تتقيّد بعلم معيّن، بل تنفتح على علوم كثيرة كعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة التداولي Pragmalinguistique وإثنوغرافيا التبليغ(١٨)، وعلوم التربية، والأيديولوجيا، والسياسة.. إلخ. لأن زمن الاعتماد على علوم اللغة وحدها لتطوير تعليم اللغات قد ولّى. فقد أصبح الفعل التربوي مركزًا على المتعلم بوصفه عنصرًا اجتماعيًا متكاملاً، وليس آلة لتخزين اللغة فحسب، ولذلك فإنّ هذا الاتجاه يُلحُّ على التواصل في كُلّ الحالات التي يقتضيها الاستعمال، ونستنتج ممّا سبق أنّ أصحاب الاتجاه السلوكي، بفعل تركيزهم على المنعكس

الشرطي القائم على قانون المثير والاستجابة، قد أولوا اهتمامًا بالغًا لما يسمى بالتمارين البنوية، وهي، وإن كانت تمارين ناجعة في إكساب العادات اللغوية، ليست كافية لإكساب المتعلم ملكة تبليغية تمكّنه من الاتصال بعفوية ويسر، ذلك أنّ هذه التمارين تقوم بالدرجة الأولى على المحاكاة: محاكاة الأساليب والنماذج التي ينتقيها لهم الأساتذة من نصوص معيّنة، فيكون شغل المتعلم هو الحفظ أكثر من التصرف العفوي في استعمال اللغة. ذلك أن الأساتذة يهمُّهم أن يستظهر المتعلمون ما يُقدم لهم، ولا يلتفتون إلى ما يدور في فكر كُل طالب؛ لأنّهم يقدّمون المظهر اللفظي على حساب المعنى.

أما أصحاب الاتجاه المعرفي Cognitive بفعل تركيزهم على التفكير، فقد انطلقوا من مبدأ الإبداعية Creativite، ووضعوا طرائق تربوية (بيداغوجية) تشجع الملاحظة والتأمّل والاكتشاف والبحث المشترك مع بقية عناصر الفوج، ولذلك فإنّ شُغل أساتذة هذا الاتجاه أن يعرفوا الكيفية التي يفهم بها الطالب الأخبار التي يتلقّاها ويتعامل بها، والطريقة التي ينظمها بها.

من الطريقة المنغلقة إلى الطريقة المنفتحة

إن صاحب الطريقة في المنهجية البنوية هو الذي يفرض ما يريد تعليمه، ولا دور للمتعلم في المساهمة في وضع الطريقة، لذا فقد توصف هذه المنهجية بأنها استبدادية Autochrata، كما توصف طريقتها بأنها تكنوقراطية تبحث عن الفعالية والمردودية في إطار الوضع التعليمي الراهن. كما توصف بالشمولية Universaliste؛ لأنّها صالحة في كل الأحوال، ومع كل الأفراد، لذلك، فهي لا تعرف إلا أسلوبًا تعليميًا واحدًا لكل المتعلمين.

فهي طريقة منغلقة على نفسها، والمادة فيها واحدة لا تتغيّر، ولا مكان فيها للمتعلم كشخص متفرّد، أما الأستاذ فليس إلا معيدًا للطريقة(١٩).

من استراتيجية التّعليم إلى استراتيجية التّعلّم

الاستراتيجية هي مجموعة إجراءات يتّبعها المعلّم للوصول إلى هدفه، واستراتيجية التعلّم هي في استثمار الحالة التي يكون فيها المتعلم لتحسين وتيرة التعلّم والإسراع في عملية التعليم(٢٠).

والاتجاه البنوي، بتركيزه على الطريقة، يؤسس لمشروع تربوي يعزّز التعليم، ويقلل من شأن التّعلم.

وهم بهذا يجعلون اللغة عنصرًا مستقلاً عن متكلّمها، أو متعلمها، بمعنى أنه شيء خارج عن الفرد. ومثل هذا المشروع الذي تظهر فيه هيمنة الأستاذ، وتختفي فيه شخصية المتعلمين، وإن تنوّعوا، لا يتّبع إلا إستراتيجية تعليم واحدة.

أما أصحاب الاتّجاه المعرفي فيركّزون على المتعلّم، وهم بذلك يؤسسون لمشروع تربوي يعزّز التعلُّم، ويعدّون اللغة جزءًا لا يتجزأ من متحدثها أو متعلّمها. فهي شيء متصل بالفرد، نابع منه، والأفراد يتميّز بعضهم من بعض بوضعهم الاجتماعي، وبدوافعهم الخاصة.

وفي هذا الاتجاه يتحرّر المتعلّمون من سلطة الأستاذ الذي يتحوّل إلى مُنشّط، ومحاور، ويقوم في كل لحظة بتقويم معارف طلابه، والوقوف على نقائصهم، يحثُّهم على التحرّر من كل القيود التي تعيقهم عن التّعلم، وتُحيي فردية العمل فيهم.

ومثل هذا المشروع تتعدّد فيه الاستراتيجيات، إذ يسعى كُلّ معلّم أن يكيّف استراتيجيته التعليمية مع استراتيجيات طلبته التعلمية.



الاتجاه المعرفي يركز على المتعلم

من منع الخطأ إلى الاعتماد على الخطأ في التعليم

الخطأ(٢١) في الاتجاه البنوي عادة سيئة ينبغي أن تُحارب بكل وسيلة. وينظر إليه على أنّه معرقل للتعليم كابحٌ للتّعلم.

أما في الاتجاه المعرفي الوظيفي فالخطأ شيء طبيعي ينبغي الاستعانة به في المسار التّعلّمي، ولا يمكننا لذلك منعه، ويُنظر إليه على أنه من أهمّ الوسائل المدعِّمة للتعلّم، فإذا ما تعرّفنا أخطاءنا سهل علينا اجتنابها، وانطلاقًا من نسبة تواتر الخطأ يتعرّف الأساتذة الصعوبات والعراقيل التي تواجه المتعلمين.

من التقويم الانتقائي إلى التقويم التكويني Formative

تتحدّد وظيفة التقويم في الاتجاه البنوي في قياس الملكة اللغوية ومدى نجوع الطريقة التي سلكها الأستاذ. أما وسائل التقويم فواحدة لكلّ الناس حيث الاختبارات إجبارية تقدّم حسب تواريخ مضبوطة، فهي امتحانات صارمة

تنعدم فيها المرونة مثلما تنعدم فيها العناصر الضرورية للاختبار كالملاءمة والصدق والثبات .. إلخ.

أما التقويم في الاتجاه المعرفي الوظيفي فمهمته الأساسية قياس الملكة التبليغية ومجهودات المتعلّم الحقيقية. ويعتمد في ذلك على وسائل قابلة للتغيير، لأنها تُكيّف حسب نوعية المتعلمين، فهي اختبارات تُوصَف بالمرونة.

من الوثائق المصطنعة إلى البحث عن الوثائق الأصلية

ونقصد بالوثيقة المصطنعة كُلّ نصّ منطوق أو مكتوب صيغ خاصًا لتدريس اللغة. وضدّها الوثيقة الأصلية Document Authentique وتطلق على كُلّ نصّ يُستثمر في تأدية وظيفة تبليغية إخبارية أو تعبير لغوي حقيقي مثل(٢٢) تسجيل حوار عفوي بين شخصين، أو الاستعانة بمقال صحفي من جريدة، أو نبأ صحفي، أو لوحة إشهارية، أو إرشادات، أو مقطع من رسالة الغفران مثلاً.

فالاتجاه البنوي يعتمد على الوثائق المصطنعة المُعدّة سلفًا لأمور تربوية محدّدة، لذلك فهي تخضع لتدريج مخطط له، هو مجموعة من العناصر والأشكال اللغوية المرتبة حسب درجة تواترها (كلمات، بنى نحوية، جمل..).

أما الاتجاه الوظيفي: فيعتمد على الوثائق الأصلية المأخوذة من المحيط الاجتماعي، وليس من قاعة الدّرس. أما التطبيقات المعتمدة في الاتجاه فمنبثقة من نظريتين هما:

- الأولى اجتماعية: هدفها إكساب الملكة التبليغية والتحكم في كُلّ أشكال الخطاب اليومي.

- الثانية نفسانية: مستوحاة من علم اللغة النفسي الذي يرى أنّ اكتساب اللغة نشاط مختلف تمامًا عن عمل اللغة في حدّ ذاتها(٢٣).

وإذا كان الاتجاه المعرفي الوظيفي يرى أن ملكة الفهم أسرع اكتسابًا من ملكة التعبير، فإنّ أصحابه قد أولوا اهتمامًا خاصًا لتمارين الفهم، لأنّ تلك التمارين تُعطي للمتعلم حرية التعبير بإمكاناته الذاتية، وأسلوبه الخاص، إذ يختار الكيفية التي يترجم بها ما فهمه إلى أشكال متميّزة مناسبة، لذا كان التعبير السيِّئ لا يدلُّ بالضرورة على الفهم السيّئ، إذ كثيرًا ما لا يتطابق التعبير مع الفهم، وقد كان أصحاب الاتجاه الوظيفي يحكمون على الفهم الصحيح من خلال التعبير السليم، إذ يعتقدون بأنّه كلمّا كان التعبير جميلاً كان الفهم أحسن وأصدق.

من الصورة الدلالية إلى الصورة الخطابية

ويقصد بالصورة الدلالية تلك التي تعبّر عن الحقائق مباشرة، وقد استعان بها أصحاب الاتجاه البنوي السلوكي في نقل المعنى المعجمي، ونقل بعض المعاني دون اللجوء إلى الترجمة. ذلك أنّ لغة المنشأ - في نظرهم - هي السبب الرئيس في كثرة الأخطاء المرتكبة.

أما الصورة الخطابية فليست تلك التي تنقل المعنى فحسب، بل تلك التي تخلق خطابات جديدة، وتثير خيال المتعلّم، وتدفعه إلى التحدّث(٢٤). والصورة عندما تنقل لنا الواقع اليومي بوفاء، تفتح لنا بذلك نافذة شاسعة على الجانب الحضاري الثقافي في اللغة المتعلّمة، وهذا ما لا نجده عند أصحاب الاتجاه البنوي.

وخلاصة البحث أن الاتجاه المعرفي الوظيفي أعاد الأهمية للمتعلّم وجعل منه مصدر العملية التعليمية. لذلك، فالمعلّم مطالب بأن يعمل على تحسيس المتعلّم بأنه المقصود بالكلام، وإثارته في انفعاله، حتى يستجيب طبيعيًا للغة الأجنبية ويحدث كلامًا أصيلاً، كالذي يحدثه بلغته الأصلية خارج المدرسة، كا يدفعه إلى استثمار كلّ الإمكانات غير اللغوية كالإشارة والإيماء وكُلّ ما له صلة بعملية التبليغ، وبهذا الدور تعظم مهمة الأستاذ ليصبح عنصرًا نشيطًا داخل فريق منظّم، فهو الذي ينظم اللعبة، ويديرها، ويوجّهها بكفاءة تامّة لتحقيق الهدف، إنّه مفَنّ (فنّان).

المراجع والهوامش:

1-F.De Saussure: Cours de Linguistique General. Payot,1983, P 159.

2-Julia Kristeva, Le Language, cet inconnu. Editions du Seuil, 1981, p283.

٣- المرجع نفسه، ص ٢٣٨.

4-G.Mounin, La Linguistique du 20e: Siecle Presses universitaires de France2e edition, paris, 1975, P55.

5-J. Dubois, Dictionnaire de Linguistique. Larousse, Paris, 1973, p156.

٦- جورج مونان، المرجع السابق، ص ٢٣٥.

٧- تكونت الحلقة سنة ١٩٢٦م، وضمّت مجموعة من اللسانيين الأوربيين، نذكر منهم التشيكي ماتزيوس Mathesius والروسيين: جاكوبسن وتروباتسكوي، والفرنسيين تيارTesniere وفندرياس Vendreyes ومارتيني Martinet وبنفينيست Benveniste.

٨- موسى الشامي، اللسانيات التطبيقية إلى أين؟ المجلّة المغربية لتدريس اللغات، العدد الأول، أبريل ١٩٨٨م، الدار البيضاء، ص٢٣.

٩- المتعلّم هو الفرد الذي يقوم بتعليم نفسه بنفسه، وليس ذلك الذي يتكل على المعلم، فكلمة «تلميذ» أو «طالب» لا تتماشى مع الكبار في حالة تكوين مستمر.

١٠- للتوسع انظر: H,Besse, R. Galisson: Polemique en didoctique des langauges, C.L.E. international, Paris,1980. p30.

١١- نايف خرما وعلي حجاج، اللغات الأجنبية، تعليمها وتعلّمها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨م، ص١٨٥.

١٢- المرجع نفسه، ص٢٢٤.

١٣- الجاحظ، البيان والتبين، ص١٣٣، دار المعارف، تونس، ١٩٩٠م.

١٤- فالكلمة التي نصادفها في كل نصّ أو خطاب أفضل من تلك التي توجد في نص معين، ومثل هذه الكلمة تتوزّع توزيعًا واسعًا. ونقصد بالتهيّؤ Disponibilite المقياس الذي نعرف به الكلمات التي تظهر في مكان ولا تظهر في آخر، فهناك كلمات نجدها في المطالعة مثلاً.

١٥- الوظيفة المرجعية أساسها المواضعة بين المتكلم والمخاطب. ففي قولك لزميلك «ناولني قلمك الأزرق»، فإن القلم يحيلك إلى فئة الأقلام، والأزرق إلى فئة الألوان.

١٦- في هذا المخطط، يميز اللساني الروسي جاكوبسن بين ست وظائف في مسار عملية التبليغ انطلاقًا من ستة عناصر، فمتكلم يبعث رسالة إلى مخاطب بالاعتماد على قانون مواضعة مشتركة، وهذا التبادل الكلامي يحصل في سياق معيّن (مرجع) بواسطة قناة اتصال. انظر: F.Marchand, Manuel de Linguistique appliquee, Tomey. p60. de Lagrave, Paris 1975.p60.

١٧- يُستعمل مصطلح طريقة في الغالب للدلالة على معنيين مختلفين، الأول افتراضي مبدئي يطلق عليه بعضهم الاتجاه Approach، وهو التوجه الفلسفي الذي تُبنى عليه الطريقة، ويتضمن النظريات العامة حول اللغة وطبيعة تعليمها وتعلُّمها. الثاني إجرائي عملي يقابل معنى Method عند الغربيين، وهو تخطيط عام لانتقاء المادة اللغوية وترتيبها وعرضها وترسيخها. وكلاهما يختلف عن الأسلوب The technique الذي يُطلق على مجمل النشاطات المختلفة داخل قاعة الدّرس، التي بفضلها تُبلّغ المادة اللغوية للمتعلمين مثل: الحوارات، التمارين البنوية، لعبة الأدوار.. إلخ انظر:

Richards, Platt,weber Longman of Applied Linguistics (Approach), 1985, G, Britain.

١٨- وهي الدراسة الوصفية (الإثنوغرافية) لإحداث التبليغ، وتخص الجانب الثقافي في مجتمع معين، يقول هايمز Hymes: لكي تتواصل مع الآخرين، فلا يكفيك أن تعرف اللغة ونظامها، بل أن تعرف أيضاً كيف تستعملها في سياقها الاجتماعي.

انظر:

Bachman.C: Langage et Communications Sociales, Credif, Paris, 1981, p53.

19- R.Galisson: Hier a Aujourd: hui Ladidactique des Langues Etrangere, C.L.E. Paris,1981. p45.

٢٠- المرجع نفسه، ص٢٨.

٢١- الخطأ لغة ضد الصواب، وهو بمعنى الغلط. وهو ما لم يتعمّد، وقيل خَطِئ إذا تعمّد، وأخطأ إذا لم يتعمّد، والمخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره، والخاطئ من تعمد لما لا ينبغي.

ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، مادة (خطأ).

23-R.Galisson, D.Coste: Dictionnaire de didactique des Langues, Hachette. Paris, 1976, p59.

23-R. Galisson, Hiera, Aujourd' hui La. D. L. E. p91.

٢٤- يقول فيتجنشتاين L. Wittgenstein: «لا تبحثوا عن معنى الكلمة، ولكن ابحثوا عن استعمالاتها» انظر: D. Maingueneau, in-itiation, aux methodes de L'analyse du discours, Hachette, Paris, 1976, p47.

استطلاع



ليل الرياض

إعداد: **محمد بن عودة المحيميد ـ هاشم بكير الشريف**

وصف العرب قديماً وحديثًا الليل وما يجلبه لهم من ضيق أو مسرة في كثير من أشعارهم، فهذا امرؤ القيس يتوجس من الليل وما يجلبه له من هموم، فيقول:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي





أحد الشوارع



مشروع مبنى الفيصلية ونموذج العمارة الحديثة



منطقة قصر الحكم



أمسية ثقافية في نادي الرياض الأدبي



مكتبة الملك عبد العزيز العامة



استاد الملك فهد الرياضي

وهذا مجنون ليلى يتخذ من الليل ملجأ يتفرد فيه لعله يسلو، فيقول:

وأخــــرج من بين البــيــوت لـعلني
أحــدث عنك النفس بالليل خـــاليًـــا

ويقول قيس بن ذريح:

أُقـــضّي نـهــاري بـالحــديـث وبالمنى
ويجــمــعني والـهمّ بالليل جـــامع

أما أبو فراس الحمداني فيقول:

إذا الليلُ أضــواني بـسطتُ يـد الهــوى
وأذللت دمـعًـا مـن خـلائقــه الكِبْــرُ

وردد الحصري القيرواني:

يا لـيـلُ الـصبُّ مـــتــى غـــده؟
أقــيـــام الـســاعـــة مـــوعـــده

وإذا كان الليل يجلب معه الهم لبعض الشعراء فإن شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة يختلف عن أولئك فهو ينتظر في شوق قدوم الليل، لكي يسرق نفسه إلى خباء محبوبته، ويقول بعد أن شفى ما بنفسه من لقاء المحبوبة:

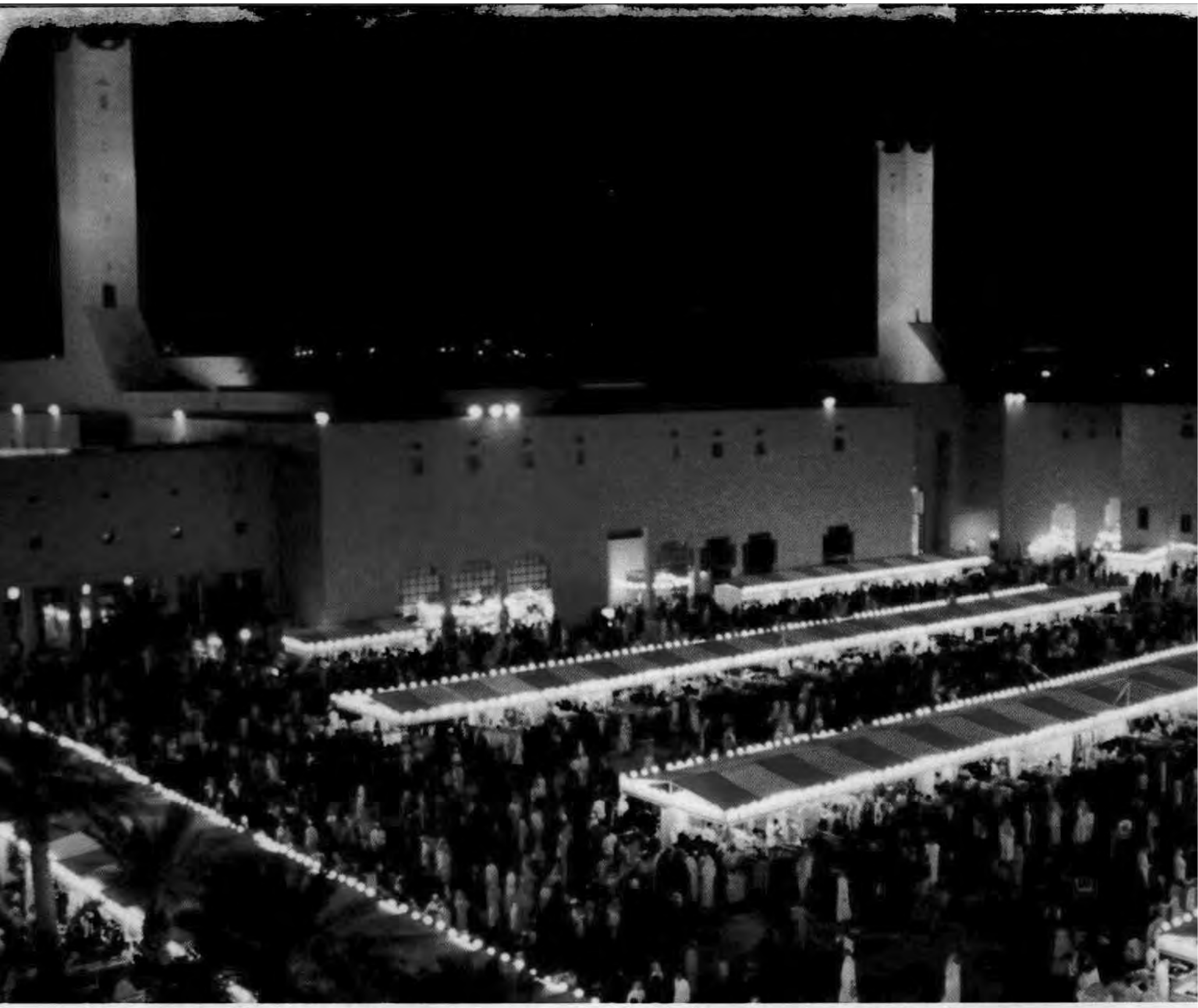
فـيـــا لَكَ من لـيلٍ تـقــاصَــرَ طولُه
ومـا كــان لَيلي قــبلَ ذلك يـقــصُـرُ

وهناك الكثير مما يتردد عن الليل في الشعر العربي والليالي، إذ إن لهذا الجزء من اليوم سحره، على الرغم من ظلامه، ففيه السكون لمن يرغب، وفيه الصخب لمن يبحث عن ذلك، ولعل مدينة الرياض توضح حركة الليل في المدن بشكل عام حيث يتقاطر الناس ويكثر تزاحمهم في الشوارع والأسواق والأماكن العامة مثل: الحدائق والمقاهي، وفي المنتديات الثقافية والفكرية.

في بداية هذا الاستطلاع الذي يتناول الليل في مدينة الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، وما يجري فيه، خلال الليل نقدم للقارئ الكريم نبذة تاريخية جغرافية سكانية عن مدينة الرياض.

نبذة تاريخية

قامت مدينة الرياض على أنقاض مدينة «حَجَر» القديمة التي كانت مركزًا لإقليم اليمامة. وكان هذا الإقليم من أخصب مناطق الجزيرة وأكثرها ماء وزرعًا ونخيلاً. وكانت حجر مدينة كبيرة متسعة الأرجاء تحيط بها المزارع التي تسقى من عيون كانت مياهها تجري إلى وقت قريب. وكانت المدينة في عهد بني حنيفة



منطقة قصر الحكم

في الجاهلية ثم في صدرالإسـلام سوقًا من أسواق العرب الرئيسـة يفدون إليها من جميع أنحاء الجزيرة.

ومع تعاقب القـرون على هذه المدينة توزعت إلى أحـيـاء اتصلت بعـضهـا ببعض، مكـونة «الرياض» الحالية على المحلات القديمة من مـدينة حَجْـر (معكال ومقرن والعـود وغيرها)، وما حولها من بسـاتين ورياض، ولعلها اكتسبت اسـمها من هذه الرياض الخضراء.

وفي العام ١١٨٧هـ دخلهـا الإمام عبدالعزيز بن مـحمد بن سعـود بن مقرن وضمها إلى مدينة الدرعية التي كانت قاعدة حكم الدولة السعودية الأولى. وحين قام الإمام تركي بن عـبدالله بن محمد بن سـعود بتأسيس الدولة السعـودية الثانية في عام ١٢٤٠هـ جـعل الرياض عاصمـة حكمه، واستـمرت كذلك حتى عـهد الملك عـبدالعزيز آل سعـود مـوحد الجـزيرة العربية ـ يـرحمه الله ـ الذي اتـخذها عاصمة للمملكة العربية السعودية.

وقد أخذت مدينة الرياض في النمو والتـوسع في جميع الاتجاهات حتى بلغ النمـو والتوسع العـمـراني ذروته منذ عـهـد الطفـرة الاقتـصـادية في منتـصف السبعينات، ولا يزال مستمراً حتى يومنا هذا.

لمحة جغرافية

تقع مـدينة الرياض على دائرة ٤٢ و ٢٤ وخط طول ٤٢ و ٤٦ وبهذا فـهي تتوسـط المملكة العربيـة السعـودية تقريبًا مما يجعلهـا محور أغلب الطـرق الجوية والبرية. وقد نشـأت على ربوات قليلة الارتفاع وسط حوض تنساب إليـه السيول فـتغـمره الميـاه، لكنها لا تـرقى إلى الربوات التي عمـرت بالمبـاني السكنية. وقـد توافرت في أرض الحوض المياه والتربة فكانت الأرض الخـصبة المنتجة للزراعة التي كانت عماد اقتصاد المجتمع السكاني القديم.

وقـد أدت مظاهر السطح دوراً أسـاسيًـا في تحـديد مـعالم مـوضع مـدينة الرياض، كما أنها لا تزال تؤدي دوراً أساسيًا في نموها وتطورها، إذ شكّل واديا حنيفـة والبطحاء مع تلال البلاد الصـخرية الصغيـرة الواقعة إلى المشـرق منها، وكذلك التلال الواقعة بين الوديان الخطوط الطبيعـية التي يسير عليها النمو العام للمدينة.

لوقوع الرياض في قلب جـزيرة العرب فإنه يسـودها المناخ الصحراوي، فـهو حار جاف صـيفًا وبارد شتاءً مع وجود أمطار مـوسمية متفـاوتة الغزارة من موسم إلى آخر.



مسرحية محلية



أحد النشاطات الرياضية

الرياض الحديثة

تشغل مدينة الرياض مساحة تربو على ٣٠٠٠كم٢، مبني منها ٢١٠٠كم٢، يسكنها أكثر من ٣٫٥ مليون نسمة. وكان سبب هذا التوسع العمراني والتزايد السكاني عوامل عدة منها: الهجرات الداخلية من مختلف مناطق المملكة إلى مدينة الرياض، لتوافر الفرص التعليمية والعملية والوظيفية. إضافة إلى توافد العمالة الأجنبية القادمة من جميع أنحاء الدول العربية والإسلامية وغالبية دول العالم للإسهام في النهضة التنموية، وطلب الرزق في هذا البلد المعطاء.

وقد ترتب على وجود هذه الزيادة السكانية وجوب توفير الخدمات اللازمة للوفاء باحتياجات سكان المدينة. من هذه الخدمات نذكر إنشاء الطرق الحديثة بمختلف مرافقها من جسور وأنفاق وخلافها، ووسائل الاتصالات الحديثة كالهاتف بشبكاته المتنوعة، والخدمات البلدية مثل الحدائق والمتنزهات وغيرها، والمرافق التعليمية والصحية والثقافية. وتعد مدينة الرياض من أكثر مدن المملكة ازدحاماً بالحركة والنشاط البشري. فتبلغ حركة السيارات على طريق الملك فهد مثلاً ٢٢٢٫٠٠٠ سيارة يوميًا، وكذلك يشهد طريق مكة المكرمة ٢٠٣٫٠٠٠ سيارة يومياً.

وإذا كانت بعض المدن العالمية توصف بأنها مدن لا تنام، فكذلك الرياض التي تعج بالحركة إلى ساعة متأخرة من الليل بنشاطات بشرية متعددة، ولا تختلف عن مدن العالم الأخرى سواء أكانت غربية أم شرقية إلا بوسائل الترفيه وأماكن المتع البريئة.

ونورد فيما يأتي لمحات عن الحياة في الرياض وتنوعها، والأمثلة والصور هي على سبيل المثال لا الحصر.

أنشطة ثقافية وإخوانيات

تتمتع الرياض بوجود أماكن مختلفة للنشاطات الثقافية، فهناك النادي الأدبي وما يعقده من ندوات ومحاضرات، فهو مكان لتجمع مثقفي المجتمع من المواطنين والمقيمين في الرياض، لما تقدمه من نشاطات مختلفة في ميادين الثقافة، إذ يشهد النادي مناقشات ثقافية وفكرية تختلف فيها الآراء وتتباين الطروحات، تبعًا لتباين التوجهات والقناعات، والاختلاف الطبيعي بين أجيال المشاركين، مما يجعل هذه النشاطات وسيلة للتواصل الفكري بين الأجيال. وتنظم الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون منتديات أدبية وثقافية، ومعارض للفن التشكيلي، كما أن هناك المكتبات الخاصة والعامة، مثل: مكتبة الملك فهد الوطنية، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ومكتبة جامعة الملك سعود، ومكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومكتبة مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، ومكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ومكتبة الرياض العامة، ومكتبة الرياض السعودية، ومكتبة دارة الملك عبدالعزيز، ومكتبة الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض وغيرها، وهذه المكتبات يرتادها الباحثون وطلاب المعرفة خلال الفترات المسائية إضافة إلى الفترات الصباحية. كما أن هذه المراكز الثقافية تقوم بتقديم العديد من النشاطات الأخرى مثل تنظيم المحاضرات واستقطاب المحاضرين من الداخل والخارج، وعقد الندوات الأدبية والعلمية والمؤتمرات الفكرية والثقافية، والعديد من الأنشطة الثقافية الأخرى. ويمثل المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) أهم التظاهرات الثقافية التي تشهدها مدينة الرياض سنويًا، ويشارك فيها الأدباء والمفكرون والعلماء والفنانون من كل أقطار العالم، وهو يطرح كل عام قضايا فكرية يتم التداول فيها لساعات متأخرة من الليل، إضافة إلى العروض الفنية التراثية والأمسيات الشعرية التي تتوزع بين النبطي والفصيح.



أمسية في خيمة جمعية الثقافة والفنون

ولا يقتصر النشاط الثقافي في مدينة الرياض على المستوى الرسمي فحسب، بل إنه يتعداه إلى المستوى غير الرسمي، حيث تعقد العديد من الندوات في منازل بعض وجوه المجتمع، ويحضرها لفيف من المثقفين ومحبي العلم، وقد كانت ندوة عبدالعزيز الرفاعي - يرحمه الله - إحدى أشهر هذه الندوات، إلى جانب الندوات التي لا تزال مستمرة مثل ندوة عثمان الصالح وندوة راشد المبارك وندوة أحمد باجنيد وندوة أنور عشقي، وندوة محمد بن سعد بن حسين، وهذه الندوات تدور موضوعاتها حول ما يشغل المجتمع من مختلف القضايا، إضافة إلى أمور أدبية وإخوانيات، كما أن هناك لقاءات فكرية غير منتظمة تتم بين الأصدقاء من خلال الاتفاق على زمان ومكان معينين، وتتخللها أنواع من السمر البريء، وكل هذه النشاطات من شأنها توطيد العلاقات الأخوية والفكرية.

نشاطات رياضية: رسمية وعامة

يتوافر في مدينة الرياض كثير من المجالات الرياضية، فهناك الأندية الرياضية التي يفتح معظمها أبوابه للمستفيدين؛ إضافة إلى التدريبات وإقامة الأنشطة الرياضية والمباريات. ومن أهم تلك الأندية الرياضية الهلال والنصر والشباب والرياض، كما أن في الرياض ملعبًا (استاد) يعد أحد أجمل الملاعب الرياضية في العالم وهو (استاد) الملك فهد الدولي الذي يشهد سنويًا العديد من المباريات المحلية والقارية والدولية التي يقام معظمها ليلاً.

كما أن هناك بيوت الشباب التي تزاول فيها الأنشطة الرياضية بأنواعها خلال الليل. وهناك الأندية الخاصة ببعض القطاعات مثل نادي الضباط، والاتحادات السعودية مثل الاتحاد السعودي للرياضة للجميع. كما أن هناك المراكز الخاصة والأندية الملحقة بالفنادق. ومن الملاحظ أن غالبية الأنشطة والمسابقات



سوق البطحاء

الرياضية تقام في أثناء الفترات المسائية، وذلك يعود لعدة عوامل منها الظروف الجوية المناسبة، وتفرغ الناس لمتابعتها في المساء بالحضور أو من خلال شاشات التلفاز.

وتنقسم الأنشطة الرياضية قسمين: أحدهما رسمي يشمل المسابقات المحلية أو المسابقات الدولية، والآخر أنشطة عامة على سبيل ما نراه في المراكز الرياضية الخاصة أو الفنادق أو الأنشطة الشعبية، مثل المباريات التي تقام بين الأحياء، والدورات الرياضية الودية التي يشارك فيها المواطنون وأبناء الجاليات في المملكة، وهناك بعض الميادين الشعبية المشهورة في الرياض مثل: ملاعب خنشليلة والحائر والجرادية والملز (بجوار استاد الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز)، ولا يخلو حي من الأحياء من مثل هذه الملاعب التي تمارس فيها - بشكل رئيس - رياضة كرة القدم، التي يولع بها المواطنون وأبناء الجاليات العربية، إضافة إلى رياضة الكريكيت التي تشيع أكثر بين أبناء الجالية الهندية، أو السلة التي يمارسها بشكل واضح أبناء الجالية الفلبينية، كما أن هناك أماكن مشهورة تمارس فيها رياضتا المشي والجري من قبل الجنسين من مختلف الأعمار.


مكتبة الملك عبد العزيز من الداخل

أنواع من التجارة والدعاية

إذا ما جنّ المساء في مدينة الرياض يزداد النشاط التجاري حركة حيث تزدحم الأسواق والمراكز التجارية المنتشرة في جميع نواحي العاصمة بالزبائن والمتسوقين؛ لأن هذه الفترة هي من أنسب الفترات للأسر في الرياض للتوجه إلى شراء حاجياتهم، أو التمتع بزيارة الأسواق وقضاء بعض الوقت مع أسرهم وأطفالهم.

ومن المعروف أن مدينة الرياض تضم كثيراً من المراكز التجارية الفخمة والجميلة التي تجذب الراغبين في التسوق والاستمتاع بمشاهدة كل ما هو جديد من المنتجات المختلفة، وتناول بعض الوجبات الخفيفة المتوافرة داخل الأسواق، وممارسة الترفيه بالنسبة للأطفال. وهذه الأسواق تتنوع، فمنها ما هو على شكل مجمعات متكاملة، أو أسواق تتناثر فيها الدكاكين التي تباع فيها مختلف أنواع الكماليات، وما يحتاج إليه الإنسان، كما أن هناك الأسواق المركزية للخضار


محطة القطار


مقاهي الهواء الطلق


سهرة في صالون أدبي





مكتبة الملك فهد



المقاهي الحديثة

والفواكـه وأكبرها سـوق عتـيقة المركـزي للخضار والفـواكه الذي يعج بالحـركة خلال فترة المساء.

وتَفتَنُّ المحلات والمجمعـات التجـارية في اجتذاب الزبائن، مـن خلال تنظيم أنواع مخـتلفة من المسابقـات التي ترصد لها جـوائز قيمة، كـما أنها تقـوم بعمل تنزيلات في فترات معينة من العام، وتبـعًا لذلك تنشط شركات الدعاية والإعلان في إبداع وسائل جديدة مبتكرة للترويج. كمـا أن في الرياض محلات كثيرة لبيع الكتب أو مكتبات تجارية تـباع فيها أحدث الكتب العربيـة والأجنبية المنشورة في عـواصم عربيـة وعالميـة، إضافـة إلى وجود مـحـلات أخرى لبـيع الكتب النادرة والكتب المستـعملة، وعند التـجوال في الرياض مـساء يدهش المرء برؤية كـثافـة المترددين على هذا النمط من المحلات التجارية.

من أشكال الترفيه ووسائله

بعـد عناء العمل والجـد يبحث الإنسـان عادة عن التـرويح عن النفس. وفي





للأرصفة عشاقها

مدينة الريـاض تتعدد المجـالات التي تمكّن ساكن الرياض من قـضاء وقت جـميل بصحبة الأهل أو الأصدقاء. ومن هذه المجالات تجد:

مقاهي ومتنزهات

تتوزع في بعض شوارع الرياض وأسواقها مقاه صـغيرة تتميز بالهدوء، يلتقي فيها الأصدقاء وعشاق الهدوء للتسامر واحتساء بعض المشروبات. كما تتناثر على أطراف المدينة بعض المتنزهات التي يقـبل عليهـا الشبـاب، والتي تعد عند الكثـير منهم ضـمن برنامجهم الـيومي يلتقـون فيـها، ليمـضوا جـزءاً من ليلهم يدخنون النرجيلة (الشـيشـة)، ويمارسون بـعض ألعاب الورق المسلية، أو بعض الألعـاب الإلكترونية، أو يشاهدون البرامج التلفازية، أو المباريات المنقولة عبر الفضائيات، أو لمجرد الحديث وتزجية الوقت. وبعض هذه المتنزهات كبيـرة في حجمها حتى إنها يمكن أن تضم مئـات الأشخـاص في وقت واحد، ومما يميزها وجـودها في مناطق بعيدة من العمـران، مما يجعل جوها نقيًا، كمـا أنها تقدم مأكولات شعبية وعربية وأجنبـية، ويأخذ تصـميـمهـا طابعًا شعبيًـا في البناء والأثاث، لتعـريف المواطنين بالماضي وإمتاع المقيمين والزائرين بنمط جديد لا يألفونه.

مطاعم ومأكولات من هنا وهناك

بسـبب التغيرات الـتي طرأت على أساليب الحـيـاة (السكن أوقات العـمل والزحام... إلخ) اتجهت بعض الأسر إلى ارتياد مختلف الأماكن التي يجدون فيها تسلية لهم، ومن بين هذه الأماكن المطاعم، منها مـا هو مختص بالعائلات، ومنها ما هو ملحق به أقسام خاصة بالعائلات.

وتتوزع هـذه المطاعم بين مطاعم الفنادق ومطاعم قائـمة بذاتها، وهـي تقدم المأكولات المحلية، وبعضـها يقدم المأكولات الشرقية المتنوعة، وأخـرى تقتصرعلى الوجبات الغربيـة السريعة مثل الهمبـرجر والبيتزا، وقد انـتشرت في الآونة الأخيرة المطاعم التي تعنى بالمأكولات المحلية، والتي تطبق أساليب الضيافة العربية في تقديم خدماتها، وتنتشر فيها الجلسات العـربية في إطار تصميم عام مستوحى من التراث المعماري المحلي.

وتزدحم هذه المـطاعم في المسـاء وتـعج بالرواد. وتضم بعض هـذه المطاعم وسائل تـرفيهـية للأطفـال، وتقدم لهم بعض الـهدايا، وتجرى مـسابقـات للزبائن كوسيلة من وسائل الترويج.

الاستراحات وجلسات البر

تنتشر حول مدينة الرياض ما يسمى بالاستراحات، وهي أماكن أقامها أصحابها لأغراض مختلفة. فمنهم من يجعلها خاصة للأسرة، ومنهم من يقوم بتأجيرها للراغبين. وتقام في بعضها المناسبات الجماعية واللقاءات الأسرية، وتعد أحد المتنفسات الرئيسة التي يلجأ إليها الناس هربًا من ضغوط الحياة اليومية. وتختلف مستويات تجهيز هذه الاستراحات، ومن ثم تتباين قيمة أجورها، وكذلك نجد بعض الأسر يتجهون إلى الأماكن المفتوحة حول المدينة سواء أكان ذلك بسبب ضيق اليد أم لمجرد الإحساس بالانطلاق والحرية، فيجتمعون حول الطرقات خارج المدينة يتناولون وجبات العشاء هناك، ويمضون وقتًا جميلاً مع أسرهم. كما يمارس الشباب بعض الألعاب، وتجد النساء فرصة للتمشي بحرية والاستمتاع بالجو العليل.

الحدائق والملاهي

من جملة الأماكن التي يرتادها سكان مدينة الرياض خلال الليل الحدائق والمتنزهات التي تقوم برعايتها وصيانتها أمانة المدينة. ومن هذه المتنزهات



مدينة ألعاب

والحدائق: حديقة ابن زيدون، وحديقة البديعة، ومتنزه أبي مخروق، ومتنزه الحزام، وحديقة الحيوانات، ومتنزه الدوح، ومتنزه السويدي، وحديقة الشعيب، ومتنزه العليا، ومتنزه عليشة، وحديقة العود، وحديقة الغرفة التجارية والصناعية، وحديقة المكتبة، ومتنزه مناخ الملك عبدالعزيز، ومتنزه المنصورة، ومتنزه الوادي، بالإضافة إلى الحدائق الخاصة بالأحياء. ومن بين هذه الحدائق ما هو عام وآخر خاص بالعائلات. وتتراوح مساحات هذه الحدائق من ٤١٠م٢ (حديقة الأثل بحي السفارات) مثلاً إلى ٧٥٥١٥م٢ (متنزه محمد بن القاسم، حي الروابي).

كما أن هناك الملاهي العامة الملحقة بالمجمعات السكنية وحدائق الأمانة والملاهي الخاصة (التجارية) وهي في الغالب مخصصة للأطفال والعائلات.

العمران: حركة لا تهدأ

لا شك أن حركة العمران والإنشاء في مدينة الرياض لا تتوقف في أثناء الليل شأنها شأن الأنشطة الأخرى، وقد باتت الفترات خلال النهار لا تكفي للسباق المعماري الذي تشهده المدينة. فالمدينة تسابق الزمن، حتى لتجد بعض المنشآت لا يتوقف العمل فيها ساعة واحدة، فالعمل يجري فيها على مدار الساعة يتغير خلالها العاملون على نظام الفترات كل ثماني ساعات.

ومن الأمثلة على ذلك ما تشهده مدينة الرياض حاليًا من مشاريع معمارية مثل مشاريع تطوير وسط الرياض، ومشروع مؤسسة الملك فيصل الخيرية وكذلك مشروع مؤسسة المملكة وغيرها.

حلٌ وترحال

يغلب في مدينة الرياض النقل الخاص، وذلك راجع في الأساس إلى امتلاك معظم الأسر السعودية والوافدة سيارات خاصة بهم، حيث تشير الإحصاءات إلى أن معدل ملكية السيارات في الرياض يبلغ ١٫٤٨ سيارة لكل أسرة. وترتفع هذه النسبة للأسر السعودية حيث تبلغ ١٫٧٩ سيارة لكل أسرة، مقارنة بما مقداره ٠٫٨٥ للأسر غير السعودية. كما تشير الإحصاءات إلى أن السيارات الخاصة تستحوذ على ٨٧٪ من إجمالي الحركة في المدينة، بينما يستحوذ النقل العام على نحو ٢٪ فقط من الرحلات التي تتم في الرياض، وهو يستخدم بصفة رئيسة من قبل الذكور غير السعوديين.

وعلى الرغم من ذلك فهناك وسائل النقل التي لا تهدأ ليلاً ولا نهارًا. فالمطار يعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة، تقوم منه الرحلات الداخلية والخارجية. وهناك محطات الحافلات التي تقل الركاب من الرياض إلى المدن الأخرى في المملكة وخارجها وإليها. بالإضافة إلى ذلك نجد محطة السكة الحديدية التي تسيِّر رحلات منتظمة خلال الليل والنهار بين الرياض والمنطقة الشرقية.

مراكز طبية وعلاجية

تحظى الرعاية الصحية في الرياض بما تستحقه من اهتمام، فهناك كبريات المستشفيات والمراكز الطبية المتخصصة الموجودة بالمدينة، مثل مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث، ومستشفى القوات المسلحة (العسكري)، ومستشفى الملك خالد (الجامعي)، ومستشفى الملك فهد (الحرس الوطني)، ومستشفى الملك عبدالعزيز، ومستشفى الملك خالد التخصصي للعيون، والمستشفى المركزي (الشميسي)، وغيرها مثل المراكز الصحية المنتشرة في جميع أحياء المدينة. هذا إلى جانب المستشفيات والمراكز الطبية الخاصة، وجميعها تقدم خدماتها على مدار الساعة.

إعلام راصد

ما كان للإعلام أن يغيب عن متابعة هذه الحركة الدائبة في مدينة الرياض وغيرها من مدن المملكة، إضافة إلى ما يحدث في هذا العالم القرية من أحداث متلاحقة تستحق المتابعة الدقيقة خبرًا وتحليلاً، ففي الرياض عددٌ من المؤسسات الصحفية التي لها إصداراتها اليومية والأسبوعية والشهرية، وهي جميعها حريصة على السبق الصحفي، مما يجعل الحركة فيها لا تتوقف أبدًا في كل ساعات اليوم.

من أهم الصحف اليومية التي تصدر في الرياض: الرياض والجزيرة والمسائية، بالإضافة إلى مجلتي اليمامة والدعوة الأسبوعيتين،ومجلة الفيصل والمجلة العربية والمنهل ومجلة عالم الكتب ومجلة الدارة ومجلات كليات الجامعات... وتصدر باللغة الإنجليزية صحيفة الرياض ديلي RIYADH DAILY الموجهة للجاليات الأجنبية، كما أن هناك صحفًا تصدر في أماكن أخرى لها طبعاتها التي تصدر في مدينة الرياض.

ويعمل التلفاز والإذاعة بدأب لتوفير البرامج المتنوعة لإرضاء الأذواق المختلفة، ولملء ساعات الإرسال الطويلة التي غالبًا ما تمتد إلى ما بعد منتصف الليل بكثير.

إن ليل الرياض بتعدد مساحات الانتقاء فيه، ورحابة عطائه يستهوي قلوب ساكني هذه المدينة، فيحولهم إلى عشاق يهيمون وجدًا بالمدينة التي تحفل بحياة ليل بريئة تتسق مع العادات والتقاليد، وبكل ذلك لا تخرج عن حدود المقبول دينًا وشرعًا.

من وجوه العرب:
حُميد بن عبدالحميد الطائي

هزاع بن عيد الشمري

اشترك أعيان بني الصامت بن غَنم النبهانيين، من طيء، في تأسيس الدولة العباسية وقيامها، ووضع أفراد منهم جسومهم على صهوات الخيل وسيوفهم في نحور أعدائها، وقادوا الجيوش لها، وساسوا العرب وغير العرب من أجل ذلك. ومن هؤلاء الأعيان الشجعان (بتصرف من الطبري): قحطبة واسمه زياد بن شبيب بن خالد بن معدان بن شمس بن قيس، النبهاني.

كان جليلاً سيدًا شجاعًا داهية، وهو أحد نقباء بني العباس الاثني عشر، أصحاب الدعوة العباسية، وهو الذي قاد جيوش العباسيين التي قدمت من خراسان، فاجتاحت الأرض حتى وصلت إلى العراق فأسقطته من يد الأمويين، فلما قتل قحطبة هذا في إحدى المعارك (عام ١٣٢هـ) من قبل جيوش الأمويين بقيادة أمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، وكانت الحرب على نهايتها تولى قيادة جيوش المسودة العباسية: الحسن بن قحطبة بن شبيب خليفة لأبيه، فأكمل المهمة بنجاح مذهل وتدبير في الحرب فائق. فكان على يديه سقوط العراق بكامله بيد العباسيين، وعلى يديه كان تسليم يزيد بن عمر الفزاري بأمان من الحسن بن قحطبة فسلمه الحسن إلى أبي العباس السفاح فأمضى أمان الحسن ليزيد بن عمر ولكن السفاح نكث عهده لابن هبيرة فيما بعد وقتله. وفي عهد السفاح أيضا قاد الحسن بن قحطبة الجيوش في أطراف الدولة من الشمال، واستخلفه أبو جعفر المنصور في عهد السفاح على أرمينية ثم أغزاه المنصور سنة ١٤٩هـ مع العباس بن محمد الصائفة، أرض الروم. وفي سنة ١٦٢هـ أغزاه المهدي الصائفة في ثلاثين ألف مرتزق سوى المتطوعة، فبلغ حَمّة «أذرُولية» فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم من غير أن يفتح حصنًا، ويلقى جمعًا، وسمته الروم «التنين»، وقيل: إنه إنما أتى هذه الحمّة الحسن ليستنقع فيها للوَضَح الذي كان به ثم قفل بالناس سالمين. ومات الحسن سنة ١٨١هـ في خلافة الرشيد.

وحُميد بن قحطبة بن شبيب كان أيضًا من قواد العباسيين، وله بلاء في تأسيس دولتهم تحت قعقعة السيوف، وولي الجزيرة لأبي جعفر المنصور، ثم ولي مصر، وعزل عنها سنة ١٤٣هـ، وفي سنة ١٤٨هـ وجهه المنصور إلى أرمينية لحرب الترك الذين قتلوا حرب ابن عبدالله، وعاثوا بـ «تفليس»، فسار حُميد إلى أرمينية فوجدهم قد ارتحلوا، فانصرف، ولم يلق منهم أحدًا، ثم ولاّه المنصور خراسان سنة ١٥٢هـ، وفيها غزا «كابُل»، ومات بها وهو أمير عليها للمهدي سنة ١٥٩هـ، ومحمد بن الحسن



ابن قحطبة ولي خراسان وسجستان سنة ١٨٠هـ، وعلي بن الحسن بن قحطبة ولي خراسان للرشيد، وعبدالله بن حُمَيد بن قحطبة كان مع المأمون بخراسان ثم تنحى عنه إلى الأمين بالعراق، وصار من قواده. ولما كانت الغلبة لطاهر بن الحسين قائد المأمون في حروبه ضد الأمين بالعراق وهزائمه له، كاتب عبدُالله بن حُميد وإخوتُه وأبناءُ الحسن بن قحطبة طاهراً، وانضموا إليه. وسعيد بن الحسن بن قحطبة كان من قواد المأمون في ولايته، وولي الجانب الغربي من بغداد، وشبيب بن حُمَيد بن قحطبة كان على حرس جعفر بن يحيى البرمكي أمير الشام لهارون الرشيد، وكان بها سنة ١٨٠هـ وقد بعث هارون الرشيد جعفراً وشبيبًا هذا إلى الشام حيث قامت بها فتنة عارمة بين أهلها فأخمداها.

اعتمد بنو العباس على حُميد الطوسي ورموا به أعداءهم، وندبوه للمهمات الصعبة، إما لقمع فتنة أو لصد غزوة

ومن بني الصامت بن غَنْم أيضا القائد الفذ المشهور أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري صاحب الثغور والغزوات الذائعة، وقد مات قبيل سنة ٢٥٠هـ، وكان، فضلاً عن شجاعته وإمارته، جواداً مُمدَّحًا. وللبحتري ولأبي تمام وغيرهما فيه مدائح من غرر الشعر، وابنه الأمير القائد الممدح يوسف بن محمد بن يوسف الذي خلف أباه في الثغور وأرمينية وغيرها.

وأما ابن عم قحطبة بن شبيب لحاً: عبدالحميد بن ربعي بن خالد فقد كان أحد أعيان عصره وشجعانهم، أميرَ جيوش وقائداً من قواد قحطبة بن شبيب في ثورته على الأمويين بخراسان. وكان على شرط قحطبة حين دخوله العراق، وقتاله ليزيد بن عمر سنة ١٣٢هـ، ثم كان من قواد السفّاح. وقاد أيضًا أحد الجيوش العباسية التي دخلت دمشق سنة ١٣٢هـ، واستخلفه عبدالله بن علي العباسي أمير دمشق عليها، فثار به أهل دمشق حين بيّضوا، وهزموه وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة. وعبدالحميد هذا هو والد حُميد الطوسي الذي نحن بصدده.

نسبه ومجمل من أخباره

هو أبو غانم حُميد بن عبدالحميد بن ربْعي بن خالد بن معدان بن شمس بن قِيس بن أكلب بن سعد بن عمرو بن عمرو بن الصامت بن غَنْم بن مالك بن سعد بن نبهان، الطائي، النبهاني (جمهرة أنساب العرب) الشهير بحُميد الطُّوسِي، نسبة إلى بلدة «طوس»، بخراسان حيث سكنها أهله أيام الفتوح الأموية، على أن أصوله من جبلي طيء. وكان أحد أشهر رجالات العرب وأفذاذها في زمانه، وكان جواداً ممدحًا وشجاعًا همامًا جباراً فيه قوة وبطش، جليل القدر اعتمد عليه بنو العباس، ورموا به أعداءهم، وندبوه للمهمات الصعبة؛ إما لقمع فتنة، أو لصد غزوة، أولولاية قصيرة، ثم ما يلبث حتى يعود إلى دهاليز الخلفاء ببغداد لحاجتهم إلى قدراته والاستئناس بوجاهته وآرائه الحازمة، وكان مقربًا منهم جداً، وبخاصة هارون الرشيد وابنه المأمون، إذ كان محل ثقتهم الكاملة، ويقابل هو تلك الثقة بالوفاء والإخلاص لهم حتى وفاته.

ولاه أبو جعفر المنصور سنة ١٤٣هـ دمشق على الرغم من صغر سنه، فمكث فيها سنة واحدة (صبح الأعشى)، ولما كانت ثورة إبراهيم بن المهدي والعباسيين بالعراق ضد المأمون، واضطراب العراق، وقيام الفتنة فيه خلال سنوات ٢٠١ - ٢٠٣هـ، وكان نائب المأمون ببغداد الحسن ابن سهل، ندب حُميد الطوسي لقيادة جيوش المأمون لإخماد تلك الفتنة وبعد عدة حروب سلمت له بغداد سنة ٢٠٣هـ فأمّن أهلها، وهزَم إبراهيم بن المهديّ، ووطدها حتى قدم إليها المأمون نفسه.

ومن الإشارات التي تدلل على وجاهة حُميد الطوسي الاجتماعية، وعلو قدره سواء عند الخلفاء العباسيين أو في أوجه الحياة العامة نذكر: أنه في بيته بـ «طوس» مات هارون الرشيد (الطبري، حوادث سنة ١٩٣هـ). وما رواه القالي بسنده في أماليه قال: قال حُميد الطوسي: كنت حاضراً دهليز المأمون، فدعا بالناس لقبض أرزاقهم (ذيل الأمالي)، يعني الوزراء، ثم القضاة ثم الفقهاء والمعدِّلين ثم الشعراء ثم... وما رواه ابن عبد ربه في عقده في قصة المتظلم من حُميد الطوسي: يا أبا غانم، لا تغتر بموضعك من إمامك، فإنك وأخسَّ عبيده في الحق سيّان (العقد الفريد، جـ٤، ص٢٦٧). وروى أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن محمد بن عيسى الحربي (الأغاني، ص ١٣٠٩) قال: كنت جالسًا مع أبي العتاهية، فمر بنا حُميد الطوسي في موكبه، وبين يديه الفرسان والرجّالة، وكان بقرب أبي العتاهية سوادي (قروي من السواد) على أتان، فضربوا وجه الأتان ونَحّوْه عن الطريق، وحُميد واضعٌ طَرْفَه على معرفة فرسه، والناس ينظرون إليه يعجبون منه، وهو لا يلتفت تيهًا، فقال أبو العتاهية:

للموت أبناءٌ بهم
ما شئتَ من صَلَفٍ وتيه
وكأنني بالموت قد
دارتْ رَحاهُ على بنيه

قال: فلما جاز حُميد قال أبو العتاهية:

ما أذلّ المقلَّ في أعين النا
س لإقلاله وما أقماهُ
إنما تنظر العيونُ من النا
س إلى من ترجوه أو تخشاه

وروى أبو الفرج كذلك بسنده (الأغاني ص ٧٦٦١) أن حُميداً ركب يوم عيد في جيش عظيم لم يُرَ مثله، فقال علي بن جبلة يصف ذلك:

غدا بأمير المؤمنين ويُمنه
أبو غانم غَدْوَ الندى والسحائب

وروى أبو حيان التوحيدي (الإمتاع

والمؤانسة، جـ٣، ص ٨٣): أن الحسن بن سهل قال: أشياء تذهبُ هباء، دين بلا عقل، ومالٌ بلا بذل، وعشق بلا وصل. فقال حُميد: بقي عليه مائدةٌ بلا نقل، ولحسة بلا فضل. وإن كان الحسن بن سهل وزير المأمون وركنه فإنه لم يسلم من تبرم حُميد الطوسي كما رأيت.

حُميد والشاعر علي بن جبلة

كان حُميد، كما مرّ بنا، جوادًا غاية في العطاء والبذل، وكان شهيرًا بين أعيان عصره وأميرًا قائدًا، وكان من خاصة هارون الرشيد والمأمون، ملازمًا لهما، ودلالته عليهما بالغة. فرجل كانت هذه حاله لا يستغرب تقرب الشعراء وذوي الحاجات إليه يتلمسون منافعه وأعطياته؛ وعلى كثرة الشعراء الذين أفادوا منه، ونالوا نواله من جراء مدائحهم، فقد كان أشهرهم عليّ بن جَبَلَة الكندي بالولاء المعروف بـ (العَكَوَّك) الشاعر المشهور: الذي استنفد شعره في مدح أبي دلف العجلي، وحُميد الطوسي، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة (الأغاني ص ٧٦٤١) حيث مدحه برائية غاية في الشهرة حتى جاوز بها الحد. أما أخباره مع حُميد الطوسي فقد كانت هي من ملاحم الشعر جودة، ومن ملاحم العطاء بذلاً وسخاءً من قبل الأمير الطائي حيث كان شديد العطف على هذا الشاعر الخطير للصعاب التي تعترضه ويحسن إليه. وفي قصائد العكوك في مدح حُميد ما يغني عن غيرها.

من دلائل وجاهة حُميد الطوسي الاجتماعية أن الخليفة هارون الرشيد مات في بيته بطوس

قال الطبري: (وذُكر عن أبي نزار الضرير الشاعر أنه قال: قال لي علي بن جبلة: قلت لحُميد بن عبدالحميد: يا أبا غانم، قد امتدحتُ أمير المؤمنين بمدْح لا يحسن مثله أحد من أهل الأرض، فاذكرني له، فقال: أنشدنيه، فأنشدته، فقال: أشهد أنك صادق، فأخذ المديح فأدخله على المأمون، فقال: يا أبا غانم، الجواب في هذا واضح، إن شاء عفونْا عنه، وجعلنا ذلك ثوابًا بمديحه، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دلف القاسم بن عيسى، فإن كان الذي قال فيك وفيه أجودَ من الذي مدحنا به ضربنا ظهره، وأطلنا حبسَه، وإن كان الذي قال فينا أجود أعطيتُه بكل بيت من مديحه ألف درهم، وإن شاء أقلناه. فقلت: يا سيدي من أبو دلف! ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك! فقال: ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة في شيء، فاعرض ذلك على الرجل. قال علي بن جبلة: فقال لي حُميد: ما ترى؟ قلتُ: الإقالة أحبُّ إليّ، فأخبر المأمون، فقال: هو أعلم، قال حُميد: فقلت لعلي بن جبلة: إلى أي شيء ذهبت في مدحك أبا دلف وفي مدحك لي؟

قال: إلى قولي في أبي دلف:

إنّما الدنيا أبو دُلف
بين مَغزاهُ ومُحتَضَرهْ
فإذا ولى أبو دلف
وَلّت الدنيا على أثره

وإلى قولي فيك:

لولا حُميدٌ لم يكُنْ
حسبٌ يُعَدُّ ولا نَسَبْ
يا واحد العَرَبَ الذي
عَزّتْ بعزّته العربْ

قال: فأطرق حُميد ساعة، ثم قال: يا أبا الحسن، لقد انتقد عليك أمير المؤمنين. وأمر لي بعشرة آلاف درهم وحُملان وخلعة وخادم، وبلغ ذلك أبا دلف فأضعف لي العطية، وكان ذلك منهما في ستر لم يعلم به أحد إلى أن حدثتك يا أبا نزار بهذا (الأغاني، ص ٧٦٥٣) والطبري، حوادث سنة ٢١٨).

وروى الأصفهاني بسنده عن سالم مولى حُميد الطوسي (الأغاني ص٢٦٧١) قال: جاء علي بن جبلة إلى حُميد الطوسي مستشفعًا (به) إلى أبي دلف، وقد كان غضب عليه وجفاه، فركب معه إلى أبي دلف شافعًا، وسأله في أمره، فأجابه.

قلت: وكان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي صديقًا لحُميد الطوسي.

وذكر أبو الفرج أيضًا بسنده عن أبي سعيد (سعد) المخزومي (الشاعر المشهور) (الأغاني، وذيل الأمالي، ص٩٦). قال: دخلت على حُميد الطوسي فأنشدته قصيدة مدحته بها وبين يديه رجل ضرير، فجعل لا يمُرّ ببيت إلاّ قال: أحسن، قاتله الله! أحسن ويحه، أحسن لله أبوه! أحسن أيها الأمير! فأمر لي حُميد ببدرة، فلما خرجتُ قام إليّ البوابون، فقلت: كم أنتم؟ عَرّفوني أولاً من هذا المكفوف الذي رأيته بين يدي الأمير، فقالوا: علي بن جبلة العَكَوَّك، فارفضضتُ عرقًا، ولو علمت أنه علي بن جبلة لما جسرتُ على الإنشاد بين يديه.

ولعل شيئًا من نتف الأخبار يدل على بذل حُميد الطوسي للعكوك: فقد روى الأصفهاني بسنده (الأغاني، ص ٧٦٦٠)

قال: قال رجل لعلي بن جبلة: ما بلغت مديح أحد ما بلغته في مديحك حُميد الطوسي، فقال: وكيف لا أفعل؟ وأدنى ما وصل إليّ منه أني أهديتُ له قصيدة في يوم نيروز، فسُرّ بها، وأمر أن يحمل إليّ كُلُّ ما أهدي له، فحُمل إليّ ما قيمتُه مئتا ألف درهم، وأهديتُ له قصيدة في يوم عيد، فبعث إليّ بمثل ذلك. ودخل عليُّ بن جبلة على حُميد في أول يوم من شهر رمضان فأنشده:

جعل الله مدخلَ الصوم فوزًا
لحُميد ومتعةً في البقاء

فأمر له بخمسة آلاف درهم وقال: استعن بهذه على نفقة صومك. ثم دخل إليه ثاني شوال فأنشده:

عللاني بصفو ما في الدنان .....

فأمر له بعشرة آلاف درهم وقال: تلك كانت للصوم فخفّفنا، وهذا للفطر، فقد زدْتَنا وزدناك (الأغاني، ص٧٦٦١ و ٧٦٦٥).

كان أبناء حُميد من أمراء الدولة العباسية وقوّادها وكانوا أجوادًا وجهاء

قال أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن وهب بن يزيد المروزي: كاتب حُميد الطوسي (الأغاني، ص٧٦٦٩) قال: جئت حُميدًا في أول يوم من شهر رمضان، فدفع إليّ كيسًا فيه ألف دينار، وقال: تصدقوا بهذه، وجاء ابنه أصرم، فسلم عليه، ودعا له، ثم قال له: خادمك علي بن جبلة بالباب، فقال: وما أصنع به؟ جئتني به يا بُني تُقابلني بوجهه في أول يوم من هذا الشهر. فقال: إنه يجيد فيك القول، قال: أنشدني بيتًا مما تستجيده له، فأنشده قوله:

حيدي حيادِ فانّ غزوةَ جيشه
ضَمِنَتْ لجائلة السباع عيالها

فقال: أحسن! ائذنوا له فدخل فسلم، ثم أنشده قوله:

إن أبا غانم حُمَيدًا
غيثٌ على المعتفين هامي

قال: فالتفت إليّ حُميد وقال: أعطه ذلك الألف الدينار حتى يُخرج للصدقة غيره.

قلتُ: أما مدائح العكوك لحُميد الطوسي فهي من الغرر في الشعر العربي، وبدائعه، وفيها ما يكفي لبيان جود حُميد وشجاعته وفحولته، وتضفي على حياته ما يغني عن ذكره في سطور وإن كثرت، وها نحن أولاء نورد بعضًا منها:

قال يمدحه (الديوان ص٣٠):

جَعَلَ الله مدخلَ الصوم فوزًا
لحُميد ومتعةً في البقاء
فهو شهر الربيع للقُرّاء
وفراق النّدْمانِ والصَّهباء
وأنا الضامن المليّ لمن عا
قَرَها مُفْطرًا بطول الظَّماء
وكأني أرى الندامى على الخَسْـ
ـف يُرَجُّون صُبحَهُمْ بالمساء
قد طَوَى بعضُهُمْ زيارة بعضٍ
واستعاضوا مصاحفًا بالغناء
بحُميد وأين مِثْلُ حُميد
فَخَرَتْ طيئٌ على الأحياء
جُوده أظهر السماحة في الأر
ض وأغنى المُقوي على الإقواء
مَلِكٌ يأمل العباد نداه
مِثْلَ ما يأملون قَطْرَ السماء
صاغهُ اللهُ مُطعم الناس في الأر
ض وصاغ السحابَ للإسقاء

وله يمدحه (الديوان ص٣٨) منها:

إلى أكرم قحطانَ
وصَلْنا السُّهْبَ بالسهب
إلى مُجتمع النبل
وملقى أرحُل الرّكب
حُميد مَفزع الأمّـ
ـة في الشرق وفي الغرب
كأنّ الناس جسمٌ وهـ
ـو منه موضعُ القلب
إذا سالم أرضًا عـ
ـنيتْ آمنةَ السّرْبِ
وإنْ حاربها حلّتْ
بها راغية السّقب
إذا لاقى رعيلَ المو
ت بالشّطبة والشطب
وبالماذيّة الخضر
وبالهندية القُضْبِ
غدا مجتمعَ القلب
له جُندٌ من الرُّعب
فيا فوزَ الذي والى
ويا بُؤسَى أخي الذّنْب
وما يَشفي صُداعَ الرأ
س مثلُ الصّارم العَضْبِ
أيا ذا الجود فاسلم ما
جَرَتْ حُقْبٌ إلى حُقْب
فأنت الغيثُ في السِّلم
وأنت الموتُ في الحَرْب
وأنت الجامع الفا
قُ بين البُعْد والقُرب
بك الله تلافى النا
س بعد العَثر والنكب
وردّ البيض والبيض
إلى الأغماد والحُجْب
بإقدامك في الحرب
وإطعامك في اللَّزْب
فكم أمّنت من خوف
وكمْ أثغبتَ مِن ثَغْب
وكم أصلحت من خطب
وكم أيّمت من خَطْب
وما تَمْهَرُها إلاّ
دراك الطّعنِ والضرب
تناهتْ بك قحطانُ
إلى الغاية والحسْب
ففاتت شرفَ الأحيا
ءِ فوتَ الرأس للعَجب

وله فيه (الديوان ص٤٣):

والجُود في كفّ غيره خشنٌ
وهو بكفّيه ليّنٌ سَرِبُ

وقال يمدحه وقد ركب حُميد يوم عيد في جيش عظيم لم ير مثله، وقد تجاوز الشاعر في بعض الألفاظ (الديوان، ص٤١):

غدا بأمير المؤمنين ويُمنه
أبو غانم غَدْوَ النّدى والسّحائب
وضاقت فِجاج الأرض عن كل موكب

أحاط به مستعليًا للمواكب
كأنّ سُمُوَّ النَّقْع والبِيضُ تحتهُ
سماواتُ ليل أسفرتْ عن كواكب
فكان لأهل العيد عيدٌ بنُسكهم
وكان حُميدٌ عيدَهم بالمواهب
ولولا حُميدٌ لم تَبلج عن الندى
يمينٌ ولم يُدْرك غنًى كسْبُ كاسب
ولو مَلَكَ الدنيا لما كان سائلٌ
ولا اعتامَ فيها صاحبٌ فضلَ صاحب
له ضحكة تستغرق المال بالندى
على عَبْسة تُشجي القنا بالتّرائب
ذهبتَ بأيام الندى فاردًا بها
وصرّمتَ عن مسعاك شأو المطالب
وعدّلتَ ميْل الأرض حتى تعدّلتْ
فلم ينأ منها جانبٌ فوق جانب
بلغت بأدنى الحزم أبعدَ قُطرها
كأنّك منها شاهدٌ كلّ غائب

قال ابن المعتز (طبقات الشعراء، ص١٧٩): أهدى علي بن جبلة إلى حُميد الطوسي في يوم نيروز - وأهدى الناس من فنون الهدايا ما بلغ خطرًا عظيمًا - هذه القصيدة، فسر بها حُميد وقال: والله إنها أحبّ إليّ من جميع ما أهدي إليّ في هذا اليوم،

دِمَنُ الدار دُثُورُ
ليس فيهنّ مُجيرُ
بَليت منها المغاني
مثلَ ما تبلى السطورُ
قسَمَ البينَ عليهـ...
ـنّ رَواحٌ وبُكورُ
وليالٍ ساجيات
نام عنهنّ السميرُ
فطوتْ أخبيةَ الحيّ....
كما يُطوى الحَبيرُ
فاستجرتْهُمْ فَدَوّتْ
من نَوى البين جَرُورُ
وبعينيكَ حُمولُ الـ
ـحي والبين الشّطيرُ
كذُرا النخْل أشاعتْ
زَهوها الريح الدّبُورُ
خُلِّفتْ بالدار حُورٌ
وغدتْ في الظُّعْن حورُ
بُدِّلا ما استبدل الدا....
ئرُ فيها والمُديرُ
نُفّرٌ مُستجفلاتٌ
لم تُرَبِّبْها الخُدُورُ
وبما أعتسف العيـ....
ـس أُسَدِّي وأُنيرُ
وأزورُ الكاعبَ الخَوْ
دَ تُواريها السُّتورُ
إذْ عُيونُ الدار صُورٌ
وإذا الجيرةُ خيرُ
اعْذِلي، إنّ سَفاهًا
من كبير لَكَبيرُ
ألفتْ عينُك عَيني
فأبى ذاك القتيرُ
لم يَدَعْ لي وَلأَخْدا
نك ما يَخْشى الغيورُ
فارْقُدي ما وَسِنَتْ عَيْـ
ـناك والنومُ غزيرُ
قلقَ الجَسْرَةُ والرَّحـ
ـلُ عليها والضُّفُورُ
وقِران البيد بالبيـ
ـد كما يُلوى المرير
وقطًا نازَعْتُهُ المو
ردَ والليلُ كَفُورُ
لم يُذرَّ في نَواحيـ
ـه من الصُّبح ذَرُور
بنَواجٍ حَزَّ منْهُنْـ
ـن النَّجاءُ المُستطيرُ
لحُميد وحُميدٌ
قَمَرُ الأرضِ المُنيرُ

قال أبو العباس (ابن المعتز): ما سمعتُ أحسن من هذا التخلص من النسيب إلى المدح مع جودة هذه المعاني:

لو حَمَى الدنيا حُميدٌ
لم يكن فيها فقيرُ
مَلِكٌ كلتا يَديْه
بعَطاياه دَرُورُ
وكِلا يوميه في الأر....
ض بشيرٌ ونذير
مُستبدٌ الشأو لا يـ....
ـلُغُ مَسْعاه الفخورُ
انّ مَنْ حاوَلَ في الأف....
ق اطّلاعًا لحسيرُ
وكفاه أنّهُ يَم....
مٌ تساميه البُحُورُ
أرْيحيٌّ مُنهِبٌ الما....
ل وبالسيف شَتُورُ
ورَكُوبٌ ثَبَجَ الخُطْـ....
ـطَة يخشاها الجَسُورُ
ضَمِنَ الأرضَ حُميدٌ
فهو للأرض خفيرُ
بيدٍ تَنْهلُ خلْفيـ....
ـن فتُحيي وتُبيرُ
يَقْلَقُ المالُ عليها
وبها تشجى الدُّثُورُ
صامتيٌّ فَرَعَ المجْ....
ـدَ وزَكّته النُّجُورُ
فلَهُ الحمدُ المُبدَّى
وله الحمدُ الأخيرُ
كَدرَ الناسُ وصافي النْـ
ـنَيل ما فيه كُدُورُ
وعَجُولٌ بعطايا
وعلى الرّوْعِ قَتُورُ



يا أبا غانمِ الغنْـ....
ـمُ على مَن يستميرُ
وأبا الأمنِ إذا ضا....
قتْ منَ الخوفِ الصُّدُورُ
بكَ رُكْنُ الأرضِ يَرْسو
ورَحى المُلْكِ يَدُورُ
أنتَ للمُلْكِ نصيرٌ
ولَكَ اللهُ نَصيرُ
رُبَّ مُلتَفِّ السرايا
غَرَّهُ منكَ الغَرُورُ
أبْطَرَتْهُ دَعَةُ النِّعـ
ـمَةِ والعِزُّ النَّميرُ
ألِفَ النَّكثَ إلى النَّكـ
ـثِ يُغَزّي ويُغيرُ
قُدْتَهُ بالخَيلِ قَوْدًا
يومَ قودِ الخيلِ زُورُ
وخميسٍ تُقْبَضُ الأر....
ضُ لَهُ ظَلَّ يسيرُ
تَصِلُ البيضَ خُطاه
وَقَنا الخَطِّ شَجيرُ
ويُناجي فيه للمَوْ....
تِ أيامى وتُمُورُ
مِثْلَ ما لَفَّ إليه
قَزَعَ المُزْنِ الصَّبيرُ
قد تركتَ الطيرَ جاءت
لِمَّةً وهو عَقيرُ
يَسْتَهِلُّ العَلَقُ السا....
ئلُ منْهُ والنَّعيرُ
أنتَ للصبحِ ضياءٌ
ليس للصبحِ نَكيرُ
وإلى مَجْدِكَ يَنمي
كُلُّ مَجدٍ ويَحُورُ
ونَدَى كَفَّيكَ بحرٌ
منْهُ تَنْشَقُّ البُحُورُ
كُلُّ ذي مَجدٍ طويلٍ
عِنْدَ مَسْعَاكَ قَصيرُ
وقليلٌ مِن أيادي....
ـكَ على النَّاسِ كثيرُ
فابْقَ ما عُدَّ من الدهـ
ـرِ سنُوهُ والشُّهُورُ

وفيه قال مادحًا (الديوان، ص٩٣):

بأبي مالَكَ عَنِّي
مائلَ الطَّرْفِ كَليلا
وأرى بِرَّكَ نَزْرًا
وتَحَفِّيكَ قليلا
وتُسَمّيني عَدُوًّا
وأُسَمّيكَ خليلا
أتَعلَّمْتَ سُلُوًّا
أمْ تَبدَّلْتَ بديلا
أحمدُ اللهَ فما أغـ
ـنى الرَّجا فيكَ فتيلا
ليس لي ذَنْبٌ سوَى أنْـ....
ـني أُسَمّيك خليلا
وأُناديك عزيزًا
وتُناديني ذليلا
أنا أهواك وحالَيْـ....
ـكَ صَرُومًا ووَصُولا
ثِقْ بوُدٍّ ليس يَفنى
وبعهدٍ لن يَحُولا
جعلَ اللهُ حُمَيدًا
لبني الدنيا كفيلا
ملكٌ لمْ يجعلِ اللـ....
ـهُ له فيهم عديلا
فأقاموا في ذَرَاهُ
مُطمَئنِّينَ حُلُولا
لا ترى فيهمْ مُقِلاًّ
يَسْألُ المثرَي فُضُولا
جادَ بالأموالِ حتى
عَلَّمَ الجُودَ البخيلا
وبَنَى الفَخْرَ على الفخـ....
ـرِ بناءً مُستطيلا
صارَ للخائفِ أمْنًا
وعلى الجُودِ دليلا

وقال يمدحه (الديوان، ص٩٩):

حِيدي حَيادِ فإنَّ غَزْوَةَ جيشه
ضَمِنتْ لجائلةِ السِّباعِ عِيالَها
فرَّجْتَ سُدْفَتَها بوجهكَ مُعْلَمًا
وجَعَلْتَ عاليةَ الرِّماحِ ذُبالَها
أعطيتَ حتَّى لم تجدْ لك سائلاً
وبدأتَ إذ قَطَعَ العُفاةُ سُؤالَها

قال ابن المعتز (طبقات الشعراء، ص١٧٨): لما امتدح علي بن جبلة حُميدًا الطوسي، واستأذن فدخل عليه ينشده قال: وما عسيت أن تقول فينا؟ وهل بقَّيت لأحد مدحًا بعد قولك في أبي دلف:

إنما الدنيا أبو دلف
بين مغزاه ومحتضره
فإذا ولَّى أبو دلف
ولت الدنيا على أثره

قال: أصلح الله الأمير ما قلت فيك أحسن. قال: وما قلت؟ فأنشده:

إنما الدنيا حُمَيدٌ
وأياديه الجسامُ
فإذا ولَّى حُمَيدٌ
فعلى الدنيا السلامُ

قال: فتبسم حُميد ولم يقل شيئًا، وتعجب كل من حضر المجلس من جودة بديهته، لأنهم علموا أنه إنما قالهما على البديهة في ذلك الوقت، فأحسن حُميد جائزته وأرغد له، وسار بيتاه في أبي دلف بين الخاصة والعامة، ولم يسر بيتاه في حُميد حسب ذلك، وإنما يرويهما أهل الأدب وخاصّةُ الناس.

وقال العَكوَّك يمدحُ حُميدًا الطوسي (الديوان، ص١٠٧):

إنّ أبا غانمٍ حُمَيدًا
غيثٌ على المعتفينَ هامي
صَوَّرَهُ اللهُ سيفَ حَتْفٍ
وبابَ رزقٍ على الأنامِ
يا مانعَ الأرضِ بالعوالي
والنِّعَمِ الجَمَّةِ العظامِ
ليس منَ السُّوءِ في مَعاذٍ
مَنْ لم يكنْ منكَ في ذِمامِ
وما تعمَّدْتُ فيكَ وصفًا
إلا تقدَّمتَهُ أمامي
فقد تناهَتْ بكَ المعالي
وانْقطَعَتْ مُدَّةُ الكلام
أجِدَّ شهرًا وأبْلِ شهرًا
واسْلَمْ على الدهرِ ألفَ عام

وفاة حُميد الطوسي

ذكر الطبري في حوادث سنة ٢١٠ أن حُميدًا مات في يوم الفطر منها، فقالت جاريته عَذَل:

مَنْ كان أصبحَ يومَ الفطرِ مُغْتَبطًا
فما غُبطْنا به واللهِ محمودُ
أو كان منتظرًا في الفطرِ سَيِّدَهُ
فإنَّ سَيّدَنا في التُّرْبِ ملحودُ

ورجَّح ابن خلكان (وفيات الأعيان، جـ٣ ص٣٥٤) أنه توفي بفم الصلح، لأنه كان مع المأمون لما توجه إليها للدخول على بوران، فرثاه أبو العتاهية:

أبا غـانم أمـا ذَراك فـواسعٌ
وقبرك معمورُ الجوانب محكمُ
وما ينفع المقبور عُمرانُ قبره
إذا كان فيه جسْمهُ يتهدّم

قلت: ورُويَ البيتان في الأغاني (ص٦٩٣٥) لمساور الوراق وقد مر بمقبرة حُميد الطوسي، وكان له صديقًا، فوقف عليها مستعبرًا.

وقد رثاه أيضا أبو تمام فقال (الديوان، ص٢١٢):

مات حُـميـدٌ وأي نفسٍ
تبـقى على الأرض لا تموتُ
أبكي عليه بدمع عيني
كـأنه لؤلؤٌ بتيتُ
غـرٌ ألَمَّت به المنايا
فلستُ أنساه ما حييتُ

قال أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن أحمد بن عبيد قال (الأغاني، ص٧٦٧٣): ثم مات حُميد فرثاه علي بن جبلة، فلقيته، فقلت له: أنشدني مرثيتك حُميدًا فأنشدني:

نعاءِ حُميدًا للسرايا إذا غدتْ
تُذادُ بأطراف الرماح وتُوزَعُ

حتى أتى على آخرها، فقلت له: ما ذهبَ على النحو الذي نَحَوْتَه يا أبا الحسن، وقد قاربته وما بلغته، فقال: وما هو؟ فقلت: أردتَ قول الخزيمي في مرثيته أبا الهيذام:

وأعددته ذُخرًا لكل مُلمةٍ
وسهمُ المنايا بالذخائر مُولعُ

فقال: صدقتَ والله، أما والله لقد نحوته وأنا لا أطمع في اللحاق به، لا والله ولا امرؤ القيس لو طلبه وأراده ما كان يطمع أن يُقاربه في هذه القصيدة.

قال أبو معاوية: أبو الهيذام عامر بن عمارة المري، من ولد الحارث بن سنان بن أبي حارثة، الجاهلي المشهور، وكان أبو الهيذام قد رأس النزارية في الفتنة التي وقعت بالشام بين النزارية والقحطانية أيام الرشيد سنة ١٧٦هـ، أما مرثية العَكَوَّك حُمَيدًا الطوسي فقد أثنى عليها أبو الفرج الأصفهاني (الأغاني، ص٧٦٥٧)، وقال: إنها عينية مشهورة، وهي من نادر الشعر وبديعه. وهي (الديوان، ص٨١)

أللدَّهر تبكي أم على الدهر تجزعُ
وما صاحبُ الأيام إلاّ مُفجَّعُ
ولو سَهَّلَتْ عنك الأسى كان في الأسى
عَزاءُ مُعَزٍّ للبيب ومَقْنعُ
تَعَزَّ بما عَزَّيتَ غيرَك إنَّها
سهامُ المنايا رائحاتٌ وَوُقَّعُ
أصِبْنا بيوم في حُميد لَوَ انَّه
أصاب عروش الدهرِ ظلت تَضَعْضَعُ
وأدَّبنا ما أدَّبَ الناسَ قَبْلَنا
ولكنَّه لم يَبْقَ للصبر موضعُ
ألم تَرَ للأيام كيف تصرَّمَت
به، وبه كانت تُذاد وتُدفعُ
وكيف التقى مثوًى من الأرض ضَيِّقٌ
على جبل كانت به الأرض تُمْنَعُ
ولَمَّا انقضتْ أيامه انقضى العُلا
وأضحى به أنْفُ الندى وهو أجدعُ
وراحَ عدوُ الدِّين جَذْلانَ ينتحي
أمانيَّ كانت في حشاه تَقَطَّعُ
وكان حُميدٌ مَعْقلاً رَكَعَتْ به
قواعد ما كانت على الضيم تركعُ
وكنت أراه كالرَّزايا رُزِئْتُها
ولم أدْرِ أنَّ الخَلْقَ تبكيه أجمعُ
حِمامٌ رماه من مواضع أمْنه
حِمامٌ كذاك الخطب بالخَطب يُقْدَع
وليس بغَزْوٍ أنْ تُصيبَ مَنيَّةٌ
حِمى أختها أو أن يَذِلَّ المُمنَّعُ
لقد أدركَتْ فينا المنايا بثأرها
وحَلَّت بخطبٍ وَهْيُهُ ليس يُرقعُ
نَعاءِ حُميدًا للسَّرايا إذا غدت
تُذاد بأطراف الرماح وتُوزَعُ
وللمُرْهَق المكروب ضاقَتْ بأمره
فلم يَدْرِ في حَوْماتها كَيفَ يَصْنَعُ
وللبِيض خلَّتْها البعول ولم يَدَعْ
لها غيرَه داعي الصباح المفَزَّعُ
كأنّ حُميدًا لم يَقُدْ جيش عسكرٍ
إلى عسكرٍ أشياعُهُ لا تُرَوَّعُ
ولم يَبْعَث الخيلَ المغيرة بالضُّحى
مِراحًا ولم يَرْجعْ بها وهي ظُلَّعُ
رَواجعَ يَحْمِلْنَ النِّهابَ ولم تكُنْ
كتائبُهُ إلاّ على النَّهب تَرجِعُ
هَوَى جبلُ الدنيا المنيعُ وغيثُها الـ
ـمَريعُ وحاميها الكميُّ المشَيَّعُ
وسيفُ أمير المؤمنين ورُمْحُهُ
ومفتاحُ باب الخَطْب والخَطْبُ أفْظَعُ
فأقنَعَهُ من مُلكه ورباعه
ونائله قَفْرٌ من الأرض بَلْقَعُ
على أيِّ شَجْوٍ تَشتكي النفس بعده
إلى شجوه أو يَذْخُر الدَّمعَ مَدْمَعُ
ألم ترَ أنَّ الشمسَ حَال ضياؤها
عليه وأضحى لونُها وهو أسْفَعُ
وأوحشَت الدنيا وأودَى بهاؤها
وأجدب مَرْعاها الذي كان يُمْرِعُ
وقد كانت الدنيا به مُطْمئنةً
فقَدْ جَعلَتْ أوتادها تتقلَّعُ
بكى فَقْدَهُ روحُ الحياة كما بكى
نَداه النَّدى وابنُ السَّبيل المدَفَّعُ
وفارَقَت البِيضُ الخُدورَ وأُبرزَت
عَواطِلَ حَسْرى بَعْدَه لا تقنَّعُ



وأيقظَ أجفانًا وكان لها الكَرَى
ونامتْ عيونٌ لم تكن قبل تَهْجَعُ
ولكنّه مقْدارُ يوم ثوى به
لكُلِّ أمْرئٍ منْهُ نهالٌ ومَشْرَعُ
وقد رأبَ الله المَلاَ بمحمد
وبالأصل يَنْمي فَرْعُهُ المُتفَرِّعُ
أغرُّ على أسيافه ورماحه
تُقَسَّمُ أنفالُ الخميسِ وتُجْمَعُ
حَوَى عَن أبيه بَذْلَ راحَته الندى
وطَعْنَ الكُلى والزاعبيَّةُ شُرَّعُ

قال أبو معاوية: وهكذا تنطوي صفحة فذة من صفحات رجال العرب ذهبت رميمًا ولكن بقيت أخبارها لم تذهب.

أولاد حُميد الطوسي

من أولاده القائد المشهور الأمير محمد بن حُميد بن عبدالحميد كان من قواد الدولة المشاهير جدًا، وكان جوادًا ممدحًا كأبيه وهو الذي عارك (بابَك الخُرَّمي) في وقائع مشهورة في تاريخ العرب، وقد قتله بابك بـ «هَشْتادْسَر» يوم السبت، لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢١٤هـ، وفض جمعه، وقتل جمعًا كثيرًا من عسكره، وكان المأمون قد وجهه إلى بابك سنة ٢١٢هـ لمحاربته فسلك محمد بن حُميد في جيش لجب طريق الموصل فتغلب على ثورة أهل أذربيجان، وأخذ يعلى بن مرة ونظراءه وبعث بهم إلى المأمون. ولما قتل محمد بن حُميد رثاه أبو تمام بقوله (ثمار القلوب، ص٥٦٥):

محمد بن حُميد أُخْلقتْ رَمَمُهْ
أريقَ ماءُ المعالي مذ أُريق دمُه

ورثاه أبو تمام بقصيدة رائعة (الديوان، ص٢١٩) منها:

وما مات حتى مات مضربُ سيفه
من الضرب واعتلّتْ عليه القنا السمر
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردّه
إليه الحفاظ المرُّ والخُلُقُ الوعر
ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنه
هو الكفرُ يوم الرَّوع أو دونه الكفرُ
فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها: من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائه
فلم ينصرف إلاّ وأكفانه الأجرُ
تردّى ثياب الموت حمرًا فما دَجَا
لها الليلُ إلا وهْي من سندس خُضرُ
كأنّ بني نبهان يوم وفاته
نجوم سماءٍ خرّ من بينها البدرُ
يُعزُّون عن ثاوٍ تُعزّى به العُلا
ويبكي عليه البأس والجود والشعرُ
فتىً كان عذبَ الروح لا من غضاضة
ولكنّ كبرًا أن يقال به كبرُ

وكان محمد بن حُميد هذا يكنى أبا نهشل وكان مُمدَّحًا لجوده وشجاعته وبطولته ووجاهته، مدحه البحتري بعدد من القصائد، وكذلك أبو تمام وغيرهما.

ومما أجاد البحتري فيه قوله (الديوان، ص٥٧٥):

محمدَ بنَ حُميد أيُّ مكرُمة
لم تحوها بيد بيضاءَ بَعْدَ يَد
شمائلٌ من حُميد فيك بينةٌ
لها نسيم رياض الحَزْن والجَلَد
تبسّمٌ وقُطُوبٌ في ندى ووغى
كالبرق والرَّعد وسْطَ العارض البَرِدِ
أعطيتَ حتى تركت الريح حاسرةً
وجُدت حتى كأنّ الغيث لم يجُد

ومن أولاد حُميد الطوسي أيضًا: أبو نصر محمد بن حُميد، وهو غير أبي نهشل محمد بن حُميد الذي مر بناء، وكذلك قحطبة بن حُميد وأصرم بن حُميد وكلهم من أمراء الدولة العباسية وقوّادها في زمانهم، وكانوا أجوادًا وجهاء.

ذكر الثعالبي في (ثمار القلوب، ص٩٨) أنه نظر أصرم بن حُميد الطوسي إلى رجل يقول: أنا مسلوب الغنى، فنزل عن بِرْذونه وأعطاه إياه، فأنشأ يقول أبياتًا منها:

إليّ مسلوب الغنى إليّ
حاتم طيٍّ وحُميد طيّ

مدار أحياء العلا عليّ

وبنتٌ لحُميد الطوسي نَشَعَها كرم البيت الطائي وجود أبيها وشهامته ومروءته فصارت تكرم وتبذل مثلهم. وقد كتب لها البحتري عند دخول شتاء جديد (ديوانه، ص٨٣٧):

جُعلتُ فداءك من كل سوءٍ
أتاني الشِّتاء بقُرٍّ شديدِ
ولي حُرمة حقُّها واجب
بعمّي حُميد بن عبدالحميد

فوجهت إليه بثوبين قيمتهما أربعون دينارًا.

وابن أخي حُميد: مهدي بن أصرم ابن عبدالحميد بن ربعي، أمير هو أيضًا، وقد مدحه الشعراء، وبينهم أبو تمام، مدحه بعينية رائعة فائقة.

المراجع:

- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الشعب بمصر.
- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، طبعة مصورة، العصرية بصيدا.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي، دار المعارف بمصر.
- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، بتحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر.
- ديوان أبي تمام، بيروت.
- ديوان البحتري، بتحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر.
- ذيل الأمالي، للقالي، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.
- صبح الأعشى، للقلقشندي، مصورة عن الطبعة الأميرية.
- الطبري، طبعة دار المعارف بمصر.
- شعر علي بن جبلة، جمعه وحققه حسين عطوان، دار المعارف بمصر.
طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبدالستار فراج، دار المعارف بمصر.
- العقد الفريد، لابن عبدربه، تحقيق محمد سعيد العريان، مصورة
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، دار صادر بيروت.

الثقافة العربية في داغستان



شرح الأنموذج للزمخشري منسوخ في شروان عام ٨٧٤هـ

ف. ف غودافا - ترجمها عن اللغة الروسية: **عاطف أبو جمرة**

قضية دور الشرق في تاريخ الثقافة الداغستانية، ولاسيما تأثير الأدب العربي في تطور التقاليد الأدبية الداغستانية، قضية معقدة تحتاج إلى دراسة خاصة.

أتى الفتح الإسلامي وامتدّ أمده في القفقاس، وترافق مع نشر الإسلام بين شعوب البلاد المفتوحة، وقد كان ذلك كله سابقًا لتغلغل ثقافة الشرق في القفقاس.

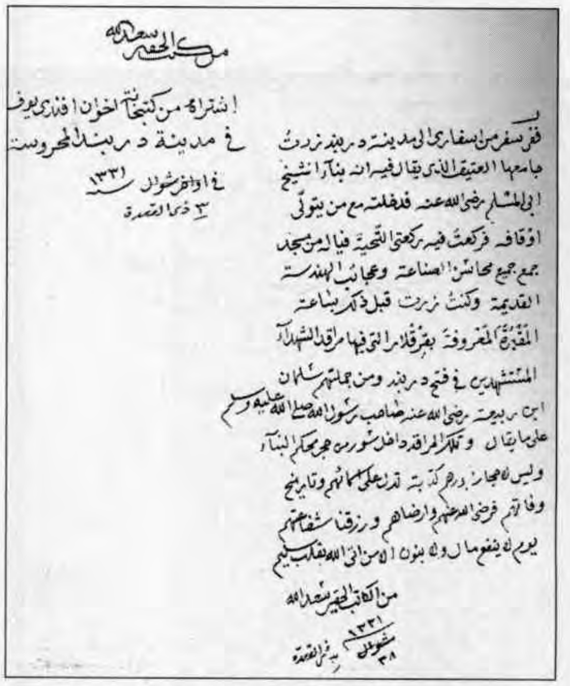
من المعروف أن ترسيخ الإسلام ونشر التعليم باللغة العربية قد بدأا في داغستان بشكل غير متواز وغير متكافئ منذ القرن السابع الميلادي. ويعتقد أن نشر الإسلام بدأ شمال داغستان في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، بينما بدأ الإسلام ينتشر في بعض مناطق داغستان الجبلية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

ويعد استخدام اللغة العربية للكتابة واحدًا من العوامل الثقافية التاريخية المهمة في خصوصية تطور شعوب داغستان، وقد تحولت اللغة العربية التي تغلغلت في البداية بوصفها أداة لترسيخ الإسلام، ونشر لغة القرآن، تحولت في داغستان تدريجيًا إلى مصدر لتعرف الثقافة عامة، وثقافة شعوب الشرق الأوسط بشكل خاص.

إلى جانب انتشار اللغة العربية، راحت تتوغل في داغستان الكتب ذات المواضيع الدينية المكتوبة باللغة العربية، وكذلك كتب التاريخ والثقافة والفلسفة والشعر والرياضيات والفلك وقواعد اللغة والطب والجغرافيا وغير ذلك . ويفترض العلماء أن مجموعات المصنفات الموجودة لدى الأفراد، وكذلك في الجوامع كانت قد بدأت بالظهور قبل القرن الثامن عشر بزمن طويل.

وإلى جانب مصنفات المؤلفين العرب راحت تظهر في داغستان كتب باللغة العربية ألفها العلماء المحليون.

وقد رصد الأكاديمي أغناطيوس كراتشكوفسكي موجتين من التأثير العربي في القفقاس: الموجة الأولى هي الموجة التي أتت مع الفتوح الأولى التي لم تمس السكان المحليين في القفقاس بشكل



كتابة بالعربية على نسخة من كتاب نور المقابس في تواريخ الجراكس

عـميق، والموجـة الثـانية هـي تلك التي بدأت تكبر منذ القـرن السادس عشر، والتي أخذت تُكَوِّنُ بالتدريج ثقافة محلية أصلية باللغـة العربيـة في داغسـتـان والشيـشـان وايـنـغوشـيا وقـبـردينيـا وشركيسيا.

ونحن، بتصـدّينا لمسألة ظهور الثقـافة العربية في داغـستان وتطورها، لا يجـوز أن نغفل مسـألة روابط داغسـتـان مع بلـدان الشرق. وكثيرًا ما تنـاولت الأعمـال العلميـة هـذه المسألـة(١). يجب أن ننوه، عـند حـديثنا عن الـعلمـاء الداغـسـتـانيين، بأن الكثيـرين منهم كانوا يتقنون اللغـة العربية الفـصحى بكل غناها وصعـوباتهـا، إضـافة إلى أن عـددًا من علمـاء داغـستـان كـانوا يتمتـعون بسمعة طيبة في الشرق العربي لكونهـم متضلعين من اللغة العربية. وقد كتب المستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكي يقول: «كان الداغـستانيون يثبـتون حيثمـا حلوا خارج وطنهم، كانوا يثبـتون لمثلي عالمهم الإسـلامي أنهم ذوو سمعة مـعترف بها». وكـان يقصد بذلك اهتـمامات المستـعربين الداغـستانيين وخدمـاتهم لثقـافة بلدان الشـرق العلميـة وحيـاتها مثـل سورية واليـمن وإيران وتركـيا ومـصـر والهند. وبهـذا نرى أن الروابط الثقافية الداغستانية العربية لم تكن أحادية الجانب.

وضع العلماء الداغستانيون الكثير من التصانيف في مختلف ميـادين العلوم. أكثـر هذه التصـانيف تنوعًا يعود إلـى القرن الرابع عشـر، ولكن لم يحفـظ من هذه الآثار إلاّ النَّزْر اليسير. وتشـهد الآثار التي وصلـت إلينا بوضـوح على أن الداغـسـتـانـيين كـانوا يتمتـعون بسعة اطلاع كبيـرة ومعارف متعـددة، وكانوا يحيطون إحاطـة تامة بالتراث العربي في عصرهم.

ما يزال في داغـستان عـدد كبيـر من التصانيف المخطوطة باللغة العـربيـة بـأقـلام العلـمـاء المحليـين، ويعـود الـقـسم الرئيس من هذه المخطوطات إلى القـرنين الثامـن عشـر والتاسع عـشر، أما المخطوطات الأقدم فـعددها أقل. وتلك المخطوطات الموجـودة في داغـستان تتناول مـواضيع علوم الدين والفـلسفـة وقواعـد اللغـة وفقـه القضـاء. أما مـا يتطرق إلى التاريخ والأدب والطب والعلوم التقنية فعدده محدود(٢).

نحن نعرف اليـوم الكثيـر من مؤلفات العلمـاء الداغـسـتانيين من خلال المقاطع التي بقيت أو من خلال عناوين التصانيف فقط.

لا يجوز أن نبحث في الأدب الداغستاني المكتوب باللغة العربية بمعزل عن العلماء الداغستانيين المستعربين ـ واضعي التصانيف، ذوي الأسـمـاء التي كـانت ذات يـوم واسـعـة الشـهـرة داخل داغـسـتـان وخارجها.



لم تذكر كتب تصنيف العلوم (الببليوغرافية) التي وضعها المصنفون العرب (مثل ياقوت الحموي وابن بطوطة) إلاّ بعض العلماء الداغستانيين الذين ولدوا في دربنت وعاشوا قبل القرن الثامن، ولم ترد عندهم أسماء العلماء الداغستانيين الذين ألّفوا باللغة العربية؛ لأن الإسلام، كما قلنا، لم يبدأ بالانتشار في تلك المناطق إلاّ في القرن الثاني عشر.

أول العلماء الداغستانيين ممن وصلتنا أعمالهم وأكثرهم شهرة هو علي الكومخي (من كوموخ) (ت:١٤٤٨م)، وقد كان كتابه «المختصر» مادةً لشروح العلماء الداغستانيين مرات، كما تناوله كذلك العالم المصري أستاذ الجامع الأزهر عبدالله الشّرقاوي (ت:١٨١٢م) ومن تصانيفه الشهيرة جداً في علم الحديث كتاب: «درر الأزهار».

من أقدم الآثار الداغستانية التي بقيت حتى الآن الكتاب التاريخي «تاريخ داغستان» لمصنفه محمد رافي (القرن الرابع عشر) وكتاب «دربنت نامه» لمحمد أوابي من أقطشة (القرن السابع عشر).

تثير شخصية محمد موسى من كودوتل (أو محمد الكودوكي) (ت: ١٧١٦م في حلب) اهتمامًا متميزًا، فهو عالم متعدد المعارف، ومعلم، وتلميذ صالح اليمني (ت: ١١٠٨هـ - ١٦٩٦م)، وقد اكتسبت تصانيف محمد الكودوكي في الفقه الإسلامي شهرة خاصة. وما تزال تصانيف هذا العالم في قواعد اللغة العربية باقية حتى أيامنا هذه مثل «إعراب الأنموذج» و«شرح الجاربردي» ومقاطع من تصانيف في المنطق والبلاغة والرياضيات والفلك.

وكان أبو بكر الأيمكي (ت: ١٧٩٠م) وداود الأوسيشي (ت: ١٧٥٧م) وشعبان من أوبود (ت: ١٧٠٤م) من أشهر علماء الفقه الداغستانيين، وما تزال شذرات من تصانيفهم في الفقه موجودة، منها شرح شعبان على مجموعة الأحاديث المسماة «مصابيح السنّة»، التي جمعها «البغوي» (ت: ٥١٠هـ)، وشروح شعبان على كتاب الإمام الغزالي (ت: ٥٠٥هـ): «منهج العابدين».

تثير الاهتمام كذلك شخصية الرياضي الداغستاني عيسى الشمغادي (القرن السابع عشر)، الذي حصل على تعليمه في شيروان، وبفضله أتيحت للداغستانيين إمكانية التعرف إلى رسالة عالم الرياضيات بهاء الدين العاملي (القرن السابع عشر) «خلاصة الحساب».

هناك عدد من التصانيف المهمة التي ألفها عيسى الشمغادي في الرياضيات والفلسفة والمنطق؛ والكثير من الشروح على مؤلفات كثيرة في الرياضيات والفلك والهندسة بقلم إسماعيل الشهنازي، وهو من تلاميذ عيسى الشمغادي.

يعد قربانالي من آخالتشي (توفي في القرن السابع عشر) أبا المدرسة الداغستانية في المنطق. وقد بقيت حتى أيامنا هذه ملاحظاته النقدية على تصنيف عالم المنطق محمد أمين الشرواني، كما أن قربانالي هو صاحب الشروح المتعددة على أعمال المؤلفين العرب في الفلسفة وعلوم الدين.



من شرح الأنموذج للزمخشري المنسوخ في شروان



تعليقات على مخطوطة عربية من داغستان

يعد دامادام من ميغيب (ت:١٧١٨م) مؤسس علوم الرياضيات والفلك والطب في داغستان، وهو الذي ترجم بتصرف كتاب عبدالعلي محمد حسين البورزاندي «شروح على مقدمة أولوغ بيك» من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، ويعتمد دامادام على «بدايات» أفكاليدوس، وأعمال نصير الدين الطُّوسي (ت:٦٧٢هـ).

من الأعمال المعجمية التي قام بها علماء داغستان قبل القرن التاسع عشر، والتي تثير الاهتمام المعجم الفارسي التركي ذو الشروح العربية الذي يعود إلى العالم الداغستاني الشهير ديبركادي من خونزاج (ولد في عام ١٧٤٢م)، وهو ذاته صاحب كتاب اللغة الفارسية الذي كتبه باللغة العربية، وأسماه «تبيان اللسان لتعليم الصبيان»، وهو كذلك صاحب أول ترجمة لكتاب «كليلة ودمنة» إلى اللغة الأوارية.

لا يجوز لنا ونحن نتحدث عن المؤلفات الداغستانية باللغة العربية إلا أن نذكر، توخيًا لاكتمال الصورة، تراث العلماء الداغستانيين من الإبداع الشعري. لقد وصلنا الكثير من مؤلفات فخرو من أرغوان وسعيد الأراكاني ومحمد موسى الكودوكي ومحمد نور الغيمراني ويوسف من أكساي وأبي بكر الأيمكي وحجي محمد من ساغراتل، والكثيرين غيرهم. هذه الآثار تعود بشكل رئيس إلى القرن التاسع عشر، لذلك لن نتطرق إليها بالتفصيل في مقالتنا هذه، ولكن نشير فقط إلى أن الشعر العربي الداغستاني يتناول كل مواضيع الشعر العربي المعروفة: (المدح والهجاء والمراثي والنسيب والفخر)، كما أن هناك نماذج مهمة من النثر المقفَّى غير الموزون (السجع). أكثر البحور استخدامًا في هذا الشعر هي الرجز والطويل والبسيط والكامل والسريع.

من الواضح تمامًا أن الشعر الداغستاني العربي كان موجودًا قبل القرن التاسع عشر، إلاَّ أنه مع الأسف، لا يوجد بين أيدينا ما يكفي من نماذجه.

يجب أن نأخذ بالحسبان، ونحن ندرس تاريخ الأدب الداغستاني باللغة العربية، أن كل تنوعه كان موجهًا إلى القارئ الداغستاني، وما كان إلا ليلبي متطلبات مؤلفه وقرائه الجمالية والفكرية (الأيديولوجية). هذا الواقع يؤكد مرة أخرى وجهة نظر بعض العلماء بصدد انتماء هذا التراث الثقافي إلى التقاليد الأدبية لشعوب داغستان، إذ إن كل أساس أدبيات داغستان باللغة العربية تغوص عميقًا في التربية الداغستانية ذات السمات الخاصة بها. لقد تأثر الأدب الداغستاني المكتوب باللغة العربية في ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر بأدب العصور الوسطى العربي، وكان بكل جذوره مرتبطًا بثقافة داغستان، وبهذا فإنه في الواقع يشكل تراثًا روحيًا لشعوب داغستان التي كانت في مرحلة من مراحل تطورها تستخدم اللغة العربية.

الهوامش:

١ـ كتب أغناطيوس كراتشكوفسكي مثلاً مقالة خاصة عن علاقات داغستان مع اليمن.
٢ـ مخطوطات تصانيف المؤلفين الداغستانيين التي يدور عليها الحديث محفوظة بشكل أساسي في خزائن المخطوطات لدى معهد الآداب واللغات الأجنبية التابع لفرع أكاديمية العلوم الروسية في داغستان، وفي معهد كيليدزه للمخطوطات التابع لأكاديمية العلوم الجيورجية، وفي بعض المكتبات الخاصة.

المصادر:

١ـ غ. غ. حمزاتوف : تشكُّل المنظومة الأدبية المتعددة القوميات في داغستان قبل الثورة. محج قلعة، ١٩٧٨ (باللغة الروسية).
٢ـ أ. ا. غينكو : اللغة العربية في القفقاسيات. أعمال الدورة الثانية لرابطة المستعربين. موسكو، لينينغراد ١٩٤١م (باللغة الروسية).
٣ـ م. ت. غودافا : بعض المعطيات عن الإبداع الشعري للمؤلفين الداغستانيين باللغة العربية. تبليسي ١٩٨٥م (باللغة الروسية).
٤ـ م. ت. غودافا : حول تقاليد دراسة اللغة العربية في داغستان. أخبار أكاديمية العلوم الجيورجية ـ سلسلة اللغة والأدب، رقم ١. تبليسي ١٩٧٩م (باللغة الروسية).
٥ـ غ. م. كايمارازوف: نبذات من تاريخ ثقافة شعوب الشرق. محج قلعة ١٩٧١م (باللغة الروسية).
٦ـ ا. ي. كراتشكوفسكي: الأدب العربي في القفقاس الأعلى. المؤلفات المختارة، المجلد ٦ موسكو، لينينغراد ١٩٦١م (باللغة الروسية).
٧ـ ا. ي: كراتشكوفسكي داغستان واليمن. (المؤلفات المختارة)، المجلد ٦، موسكو، لينينغراد ١٩٦٠م (باللغة الروسية).
٨ـ نبذات من تاريخ داغستان، المجلد ١ محج قلعة ١٩٥٧م.
٩ـ فيلشتينسكي ا. م. : أدوار الأدب العربي في القرون الوسطى. مجلة شعوب آسيا وإفريقية. العدد ٤، ١٩٦٢م (باللغة الروسية).
١٠ـ شيخسعيدوف أ. ر. : حول انتشار المسيحية والإسلام في داغستان. النشرات العلمية لمعهد تاريخ اللغة والأدب التابع لفرع أكاديمية العلوم في داغستان، المجلد الثالث، محج قلعة، ١٩٥٧م.
١١ـ شيخسعيدوف أ. ر. معطيات جديدة حول تاريخ دغستان في القرون الوسطى. النشرات العلمية، المجلد ٩، محج قلعة، ١٩٥٩م.
12- Bartold, Daghistan, The Encyclopaedia of islam,v. 2, Leiden.1965.
13- Hurgronye Snouck, Mekka, II, 1889.
14- M. Saidov, The Daghestan Arabic Literature of the Eighteenth And Nineteenth Centuries, Papers of the XXV International Congress of Orientalists, Moscow, 1960.

محمود شاكر... آخر العمالقة

محمد حسان الطيان



محمود محمد شاكر

«ولو قد يسَّرَ الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقًا وفيًا ينقله إلى الناس أحاديث وأخبارًا وأعمالاً - كما يسَّرَ الله للرافعي - لما أضلّت العربية مجد أدبائها وعلمائها، ولما تفلّت من أدبها علم أسرار الأساليب، وعلم وجوه المعاني التي تعتلج في النفوس وترتكض في القلوب حتى يُؤذن لها أن تكون أدبًا يُصطفى وعلمًا يتوارث».

محمود محمد شاكر

وما كان قيس هُلكه هُلك واحد
ولكنّه بنيانُ قَوم تهدما

شهد عام ١٩٩٧م رحيل رجالات علم وأئمة بيان وفكر لا نظير لهم ولا خلف منهم، بدءاً من شيخ نحاة العصر الأستاذ سعيّد الأفغاني (١٨فبراير/شباط١٩٩٧م) وانتهاءً بشيخ أدباء العصر محمود محمد شاكر (٧ أغسطس/آب١٩٩٧م) ومروراً بشيخ شعراء العصر محمد مهدي الجواهري (٢٩يوليو/تموز١٩٩٧م) وبشيخ مؤرخي العصر شاكر مصطفى (١أغسطس/آب ١٩٩٧م).

حلف الزمان ليأتينّ بمثلهم
حنثت يمينك يا زمانُ فكفّر

لكنّ أبعدهم أثرًا في حمل راية العربية ونصرتها والدفاع عنها، والذّود عن حماها، والتصّدي لمن ابتلاها(١)، أبو فهر محمود محمد شاكر الذي تفرّد بالسؤدد بعد أن مضى عصر العمالقة، وغيّب الثرى كبار أئمة البيان أمثال الرافعي والعقاد والمازني والزيات وكرد علي وزكي مبارك وطه حسين، فكان أبو فهر الشاهد الوحيد على ذلك العصر، والبقية الباقية لثلّة نفحت العربية بروح نابضة حيّة بعد أن أتى عليها حينٌ من الدهر لم تعد شيئًا مذكوراً، ولكم كان يسوءه هذا التفرّد فينشد بيتِ حارثة بن بدرِ الغُداني:

خلت الدّيار فسُدتُ غير مسوّد
ومن الشقاء تفرُّدي بالسُّؤدد

ولعلّ خير عزاء لنا في فقده قول الآخر:

لقد عزّى ربيعةَ أنّ يومًا
عليها مثل يومك لن يعودا

لقد كان أبو فهر صاحب البيان الأعلى في دنيا الأدب، والأسلوب الأمثل في دنيا الكتابة، تقرأ له فتسمو نفسك وتعلو مشاعرك حتى تكاد تلامس نجوم السماء، يأسرك أسلوبه الجزل، ويروعك تركيب جمله وعباراته، ويبهرك روعة استشهاده وحسن تأتّيه، ويخلبك تخيّره لمفرداته وانتقاؤه لكلماته:

في نظام من البلاغة ما شكْ.....
ـكَ امرؤ أنه نظام فريد
هي السحر الحلال لمجتليه
ولم أرَ قبلها سحرًا حلالاً

وإذا ما وقع الاختيار منه على كلمة غريبة أو غير مألوفة، لم يدعها حتى يشرحها، فإذا ما شرحها استبان لك أنّ كل مرادفاتها التي قد تخطر في البال لا يمكن أن تفي بمعناها، أو أن تحل محلّها في بنيان ذلك التركيب. استمع إليه يبيّن طبيعة ما سمّاه «ميدان ما قبل المنهج» «وأمر النازلين فيه أمرٌ شديد الخطر، يحتاج إلى ضبط وتحرٍّ وحذر، ولايغرُرك ما غَري به (أي أولع) بعض المتشدقين المموّهين: «أن القاعدة الأساسية في منهج ديكارت هي أن يتجرّد الباحث من كلّ شيء كان يعلمه من قبلُ، وأن يستقبل بحثه خالي الذهن خلوًا تامًا مما قيل» «في الشعر الجاهلي: ١» فإنه شيء لا أصل له، ويكاد يكون، بهذه الصياغة، كذبًا مُصفى لا يشوبه ذرو من الصدق «والذّرو: دقيق التراب»، بل هو بهذه الصورة خارج عن طوق البشر»(٢).


زكي مبارك

وكان أبو فهر القارئ الفهم، والمتذوق الحصيف، والناقد المتبصّر لإبداعات العرب في شتى فنون الفكر والتاريخ والأدب ولا سيما الشعر.

فقد نشأ مشغوفًا بالشعر، منهومًا بالأدب، كلفًا بالتاريخ، وسلخ شبابه يعمل في العربية حتى أمكنته اللغة من قيادها وألقت إليه بأسرارها.

ولا أحسب أحدًا أوتي في ملكة النقد الأدبي وتذوّق الكلام العربي عمومًا والشعر العربي خصوصًا، واكتناه أسراره وتحسس خباياه ودفائنه - بعد الإمام الجرجاني - مثلما أوتي أبو فهر، ومن شاء الوقوف على حقيقة ذلك فليقرأ كتابه «أباطيل وأسمار» حيث قرأ أبو فهر شيئًا من شعر أبي العلاء ففهمه على وجهه، وهدى الناس إلى فهمه، وأماط عنه ما لحقه من أذى أدّى إليه سوء الفهم؛ وَلْيقرأ مقالاته التي جعل عنوانها «نمط صعب ونمط مخيف» حيث تناول القصيدة اللامية المنسوبة إلى تأبّط شرًا:

إنّ بالشعب الذي دون سلع
لقتيلاً دمه ما يُطَلُّ

رحلة طويلة مع الشعر

في سبع مقالات طوال، دار فيها الكلام على كل مسائل التحقيق والعروض وعلاقة البحر العروضي باللغة والمعنى، وتذوق الشعر ونقده، ونقد السند والرجال، وتمحيص الكتب والروايات، وقضية الوحدة العضوية في القصيدة الجاهلية، وترجمة الشعر من لغة إلى لغة. بل ليقرأ ما كتب عن سيد شعراء العربية «المتنبي»، حيث أعاد أبو فهر قراءة شعر أبي الطّيب ليخرج لنا عمود صورته من خلال شعره على نحو يغاير كل ما كتب الناس وألفوا عن المتنبي مذ كان يسعى بينهم حتى يومهم هذا.

واستمع إليه إن شئت يصف منهجه في القراءة وطريقته في التذوق:

«ويومئذ طويت كل نفسي على عزيمة حذّاء ماضية: أن أبدأ وحيداً منفرداً، رحلة طويلة جداً، وبعيدة جداً وشاقة جداً ومثيرة جداً. بدأت بإعادة قراءة الشعر العربي كلّه، أو ما وقع تحت يديّ منه يومئذ على الأصحّ، قراءة طويلة الأناة عند كلّ لفظ ومعنىً، كأنّي أقلبهما بعقلي وأروزهما «أى: أزنهما مختبراً» بقلبي، وأجُسّهما جسّاً ببصري وببصيرتي، وكأني أريد أن أتحسّسهما بيدي، واستنشي «أي: أشم» ما يفوح منهما بأنفي، وأسمّع دبيب الخفيّ فيهما بأذني، ثم أتذوقهما تذوُّقًا بعقلي وقلبي وبصيرتي وأناملي وأنفي وسمعي ولساني، كأني أطلب فيهما خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنّه وبراعته، وأتدسسُ إلى دفين قد سقط من الشاعر عفواً أو سهواً تحت نظم كلماته ومعانيه دون قصدٍ منه أو تعمّد أو إرادة»(٣) أي كلام هذا وأيُّ بيان؟!!.

قراءة لا تحقيق

وكان أبو فهر المحقق الثبت الذي لا يُشقّ له غبار، بل كان شيخ المحققين كما نعته كثير من علماء عصره، وما أجمل ما وصفه به الأستاذ عباس محمود عقاد حين قال: «هو على رأس المحققين لأنه أديب فنّان»(٤). أخرج لقراء التراث أسفاراً لا يقوى عليها إلا أمثاله من فحول التحقيق، من أشهرها «طبقات فحول الشعراء» لابن سلاّم في جزأين كبيرين، و«تفسير الطبري» الذي حقق منه ستة عشر جزءاً في كل منها علم غزير هو علم الأوائل الفحول، و«دلائل الإعجاز» للجرجاني في مجلد ضخم ألحق به «الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز وأسرار البلاغة» للجرجاني أيضًا، و«تهذيب الآثار» للطبري، و«جمهرة نسب قريش وأخبارها» للزبير بن بكّار.

وكان في التحقيق أمّة وحده، لم يرتض أن يوصف بالمحقّق وإنما أصرّ على أن يضع على أغلفة ما أخرجه من كتب التراث: «قرأه وشرحه» وكأن في هذه العبارة الحدّ الفاصل بين طبيعة عمله وطبيعة عمل غيره من أعلام التحقيق. يقول مبيّنًا ذلك : «وكذلك نبذتُ أيضًا مُستنكفًا لفظ «حقق، وتحقيق ومحقّق» وما يخرج منها نبذاً بعيداً دبْرَ أُذني، لما فيه من التبجّح والتعالي والادّعاء، واقتصرت على «قرأ» لأن عملي في كل كتاب لا يزيد على هذا، أن أقرأ الكتاب قراءة صحيحة، وأؤديه للناس بقراءة صحيحة، وكلُّ ما أعلّق به عليه فهو شرح لغامضه، أو دلالة للقارئ من بعدي على ما يعينه على فهم الكلام المقروء والاطمئنان إلى صحّة قراءته وصحّة معناه لا أكثر، ولا أقل، إن شاء الله»(٥). إنه يوجّه النص، ويبيّن معناه على نحو يجعل منه النص المحرّر المقروء الميسّر لطلاب المعرفة، ذلك لأنه يصدر عن قراءة ترفدها خبرة عالية موسوعية عميقة بطريقة الكتابة العربية ونوع منطقها وطبيعة أساليبها، وهو إذا مال بالقراءة ناحية معينة أتى شرحه مقاربًا، وضبطه مقنعًا، وأفق فهمه واسعًا، فخلع على النص بعض تفسيره، وأصبح كأنّه صاحبه ومبدعه(٦).

ولا غرو في ذلك فكلام الشيخ محمود شاكر - كما يقول الدكتور الطناحي - موصول بكلام الأوائل، منتزع منه، ودالٌّ عليه، ومكمّل له، وهو يسير في طريق الفحول من علماء أمتنا المتقدّمين لا تخرِم مشيته مشية واحد منهم(٧).

فن لا يغني عن فن

وكان أبو فهر العالم الموسوعي الذي نُثرت أمامه علوم العربية كلُّها فراح يعُبُّ منها ويرفدنا بسيل من المعارف، ففي آثاره ما شئت من فقه باللغة، وبصر بالعربية، وتذوق للشعر، ومعرفة بالتفسير ودراية بالحديث، ورواية للأخبار، وتتبّع للآثار، وحفظ للشواهد، وتمثّل للتاريخ، وتحليل لوقائعه لا يرقى إليه نوابغ المختصين فيه. وإلى هذا كله ذهن لمّاح، وبصر حديد نافذ. وحسن مواتاة أوفى فيه على الغاية، وصار مضرب المثل.

ولا غرو فعلم الأمّة عنده كلٌّ متكامل لا يستغني بعضه عن بعض، ولا يغني فن عن فن.

وكثيراً ما كان يُسأل عن مسائل أعيت أصحابها بحثًا عنها في المظانّ وتنقيراً في المصادر والمراجع فيستخرجها من غير مظانّها.

تحسس دبيب المكر الخفي

والأستاذ شاكر - فوق ذلك كلّه وقبل ذلك كله - قلب نابض بحبِّ أمته وتحقيق آمالها، وعقل واعٍ لتاريخها وثقافتها، وعينٌ راصدة لعالمها المتراحب، وحارس أمين يحرسها من كلِّ خطر دقّ أو جلَّ، ومن كل عدو تخفّى أو تبدّى، سخّر قلمه وعلمه للدفاع عن العربية لغة القرآن. يقول في مقدمة تحقيقه لدلائل الإعجاز: «وأسأله أن يُعينني على ما أقحم نفسي فيه من عمل أريد به وجهه سبحانه، ثم ما أضمره من خدمة هذه اللغة الشريفة النبيلة التي شرّفها الله وكرّمها بتنزيل كتابه بلسان عربي مبين»(٨).

ونذر نفسه لفضح ما دُسّ من دسائس، وما حيك من مؤامرات وما دُبّر من مكر ضدّ هذه الأمة وتاريخها ورجالاتها ودينها ولغتها.

وكان شعاره في ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا لا يمنعنّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحقٍّ إذا علمه»(٩).

ها هو ذا يصف تحسُّسه لدبيب المكر الخفي يتسرّب من وراء سطور قرأها: «ولكني كنت امرأ نهمًا يأخذه للكلام المكتوب سُعار، فتناولت الصحيفة وبدأت أقرأ سطراً بعد سطر، وكان الضحك يشقّ عن حلقي، ويباعد بين فكيّ.. حتى فوجئت بشيء أمسك عليّ ضحكي، وكظمه في بلعومي، شيء سمعت حسّ دبيبه من تحت الألفاظ، فجعلت استسمعُه فإذا هو:

كشيش أفعى أجمعت لعضٍّ
فهي تحُكُّ بعضها ببعض(١٠).

وفي كلامه هذا من لطافة الحسّ، وخفة الروح، ورحابة النفس ما لا يخفى على أحد، وهذا ديدنه وهِجِّيراه في كلِّ ما كتب، فروح الفكاهة لا تكاد تخطئه، ولو كان يهجو ويَشتم(١١) وقد أعانه عليها استحضار للشواهد عجيب، وتمثّل للأمثال غريب، وقلب واعٍ، وفؤاد ذكيٌّ لمّاح، وفيضٌ من عذوبة ماء النيل الذي حبا الله به مصر وأهل مصر. يقول بعد أن فضح أساليب المستشرقين وغطرستهم المتعالية معلّلاً غفلة أحدهم عن كتاب كان منه على طرف الثُّمام: «ولكنّ العلة في الحقيقة هي أن الأهواء الكامنة المتسترة تحت التعالم تارة، وتحت التظاهر بالإنصاف تارة أخرى، هي من الحدّة والشراسة بحيث تجعل العقل المستشرق يمشي في كتب لغة العرب، بصفة أبي النجم التي وصف بها نفسه عندما يخرج من بيت صديقه زياد ثملاً يترنح:

أخرج من عند زيادٍ كالخَرِفْ
تخطُّ رجلايَ بخطٍّ مختلف
كأنّما تُكتبان لامَ الف(١٢)

ويقول بعد أن قرأ مقالة المستشرق مرجليوث عن الشك في الشعر الجاهلي في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية: «ثم بعد أيام لقيتُ أحمد تيمور باشا، وأعدتُ إليه المجلة، فسألني: ماذا رأيت؟ قلتُ: رأيت أعجميًا بارداً شديد البرودة، لا يستحي كعادته! فابتسم وتلألأت عيناه، فقلتُ له: أنا بلا شك أعرف من الإنجليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية أضعافًا مضاعفة، بل فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذل العمر، وأستطيع أن أتلعّب بنشأة الشعر الإنجليزي منذ شوسر إلى يومنا هذا تلعبًا هو أفضل في العقل من كل ما يدخل في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي، ولكن ليس عندي من وقاحة التهجّم وصفاقة الوجه، ما يسوّل لي أن أخط حرفًا واحداً عن نشأة الشعر الإنجليزي. ولكن صروف الدهر هي التي ترفعُ أقوامًا وتخفض آخرين، قد أنزلت بنا وبلغتنا وبأدبنا ما يبيح لمثل هذا المسكين وأشباهه من المستشرقين أن يتكلموا في شعرنا وأدبنا وتاريخنا وديننا، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم، وأن يجدوا أيضًا من يختارهم أعضاء في بعض مجامع اللغة العربية!!!»(١٣).



طه حسين

وأبو فهر - كما هو بيّن - من أعلم الناس بمواطن السخرية في الكلام، كيف تكون؟ ومتى تكون؟ ومع من تكون؟ وقلّ من الكتّاب من يجيدها أو يتقنها، لأنها كما يقول: «من أشقّ ضروب الكتابة، وليس يغني فيها أن يشتري المشتهي قلمًا بقرش، وورقًا بقرشين، فإذا هو كاتب ساخر..»(١٤).

وكان أبو فهر - أحسن الله جزاءه - أستاذاً إمامًا تخرّج به رجال صاروا ملء السمع والبصر علمًا وفضلاً، ورواية ودراية، في شتى صنوف المعرفة اللغوية والأدبية والتاريخية والنقدية.

يبني الرجالَ وغيرُه يبني القرى
شتّان بين قرىً وبين رجال

أستاذ وتلاميذ

فقد خلص إليه طلاب العلم وروّاد المعرفة ينهلون من معينه، ويهتدون بسديد رأيه، ويسترشدون بطويل خبرته ونفاذ بصره وبصيرته، يفزعون إليه في مشكلاتهم، ويفيدون من خزائن كتبه ونفائس مخطوطاته ونوادر مقتنياته. وكان شيخنا النفاخ واحداً منهم. وهو الذي يقول في تقديم ما صنعه من

ديوان ابن الدمينة: «ولا يسعني في ختام هذه الكلمة إلا أن أتقدم بأعمق الشكر إلى الأخ الكبير العلاّمة الراوية المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر الذي طالما أفدت من علمه ومكتبته - لا زالت معمورة - وطالما فزعت إليه فيما اعترضني من مشكلات، فكان لي من علمه الجمّ وبصره النافذ خير معين»(١٥).

وهكذا غدا بيته مثابة للعلماء والباحثين، وقبلة لعشّاق العربية ودارسيها، أمّوه من كل مكان على اختلاف أوطانهم وأعمارهم واختصاصاتهم وميولهم وانتماءاتهم ومشاربهم، فانتفعوا بعلمه، وصار لكثير منهم به نباهة وشأن وذكر.

فمن سورية أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ رحمه الله، وهو الذي عرّفنا فضل الأستاذ شاكر وسبقه، ودلّنا على آثاره، وأتاح لنا الاطلاع على بعض ما لم يكن مطبوعًا منها في كتاب(١٦).

ومنهم أستاذنا الكبير الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق حفظه الله وعافاه، والأستاذ الدكتور إحسان النص نائب رئيس



محمد الجواهري



سعيد الأفغاني

المجمع، والأستاذ الدكتور مازن المبارك والأخ الدكتور عزالدين البدوي النجار. وغيرهم كثير. ومن السعودية علاّمة الجزيرة الأستاذ حمد الجاسر «وهو صنو الأستاذ وقرينه»، والأستاذ الدكتور عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، والأستاذ الدكتور عبدالله العسيلان. وغيرهم كثير. ومن الكويت الأستاذ الدكتور يعقوب يوسف الغنيم وزير التربية والتعليم الأسبق وشقيقه الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم وزير التربية الحالي، والأستاذ جمعة محمد الياسين، والأستاذ جاسم المطوع.. وغيرهم كثير. ومن الأردن الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد وزير التعليم العالي، والأستاذ الدكتور محمد حسن عواد وغيرهما. ومن العراق الأستاذ الدكتور عبدالله الجبوري، والأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور نوري القيسي والدكتور بشار عواد.. وغيرهم كثير. ومن فلسطين الأستاذ الدكتور إحسان عباس وغيره. ومن المغرب الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة وغيره. ومن تونس الأستاذ الدكتور إبراهيم شبوح وغيره.

ومن أرض الكنانة خلق لا يحصون، أذكر منهم الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم، والأستاذ الوزير فتحي رضوان، والأستاذ الوزير الدكتور حسن الباقوري، والشاعر حسن كامل الصيرفي، والأستاذ الدكتور حسين نصار، والروائي المعروف الأستاذ يحيى حقي، والشاعر محمود حسن إسماعيل، والأستاذ الدكتور محمود الطناحي، والأستاذ العروضي الحساني حسن عبدالله، والأستاذ الأديب عبدالحميد البسيوني، والأستاذ الدكتور محمود الربيعي.. وغيرهم وغيرهم كثير كثير(١٧)

وكان أبو فهر - أكرم الله مثواه - حفيًا بأصحابه وإخوانه، وفيًا لعهدهم برًا بهم، ألوفًا لصحبتهم، كالذي قال أبو الطيّب:

خُلقتُ ألوفًا لو رجعت إلى الصِّبا
لفارقت شيبي مُوجع القلب باكيا

يتبدى ذلك جليًا في حاله ومقاله، وحلّه وترحاله، ويعرف ذلك عنه كلُّ من قرأ له عن بعد أو من زاره فعرفه من كثب وقرب، أو دنا منه ووصل سببه بأسبابه فجالسه وخالطه، وآكله وسامره وأكرِم به من جليس، وأعظِمْ به من عشير.

ولعل خير شاهد على برّه بشيوخه ما كان من موقفه لدى وفاة أستاذه الرافعي، فقد بلغ به الأمر أن أوقف معركته المشهورة مع الدكتور طه حسين، يقول في مقدمة الجزء الثاني من كتابه المتنبي: «ثم لم أثبت شيئًا مما كتب عن كتابي هذا مما فيه ثناء عليه لقلة انتفاع هذا الجيل به، إلا كلمة واحدة أثبتها، لا لما فيها من ثناء، بل لأنّ صاحبها كان أستاذي وصديقي، ولأن وفاته كانت أحد الأسباب الداعية إلى ترك الاستمرار في نقد كتاب الدكتور طه، رحم الله الرافعي، وغفر له ولنا جميعًا»(١٨).

وهو في هذه المقدمة نفسها يضرب أروع الأمثلة في نسبة الفضل إلى أهله، والثناء على أصحابه، وإن كان من طلاّبه:

«... وأما التراجم الثلاث الأخر فقد بيّنتُ أمرهن في مقدمة الطبعة السابقة، وكان الفضل كل الفضل في الوقوف على هذه التراجم الثلاث الأخيرة مصروفًا إلى إخي وصديقي الأستاذ الجليل أحمد راتب النفاخ عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، نقل بعضها قديمًا بخطّه، وصوّر لي بعضها. وشكري له لا يفي بقليل كرمه، فكيف بالكثير الذي غمرني به آسيًا ومُواسيًا في كل ضرّاء لحقتني، أو آتيًا ومواتيًا في كل سرّاء زادها بهجة إسراعه إليّ وهو أنا، وأنا هو؟ أطال الله بقاءه ونفع به»(١٩).

أسمعتم شيخًا يشكر تلميذه بمثل هذا الضرب من التبجيل والتكريم والحفاوة والتعظيم؟! إنه كرم في النفس وسموٌّ في البيان يفوق كل وصف أو تقدير، بل لقد وصل به الأمر إلى أن سمّاه - أي الأستاذ النفاخ - أستاذه في موضع آخر من الكتاب نفسه حيث يقول: «وذات يوم دخل عليّ يتهلّل وجهه، وتنير أساريره صديقي وتلميذي، وأستاذي فيما بعد، الأستاذ أحمد راتب النفاخ، وهو اليوم عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، ومدّ يده بورقات مكتوبة بخطه..»(٢٠).

فلسفته في إتقان العمل

وكان الإتقان ديدنه في الحياة، حين يكتب، وحين يحقق، وحين يبدع، وحين ينقل إلينا إبداع المبدعين، بل حين يُزاول أيّ عمل من الأعمال، حتى صار كما قال في مقدمة «القوس العذراء»: «وإذا كلُّ عمل يفصم عنه متقنًا، وكأنّه لم يجهد في إتقانه، وإذا هو مشرف فيه على الغاية، وكأنه مسلوب كلّ تدبير ومشيئة، ولكنه لا يفصم عنه حين يفصم، إلا مطويًا على حشاشة

من سرّ نفسه وحياته، موسومًا بلوعة مُتضرِّمة على صبوة فنيت في عشرته ومعاناته»(٢١).

وما قوسُه العذراء هذه سوى عصارة فلسفته في إتقانه العمل:

مـــا هي قـــوس في يـدَيْ نابلٍ
وإنّمـــا ألواح سـحــر نزلْ(٢٢)

وذلك لأنه استلهمها من عمل رجل أتقن عمله حتى أوفى به على الغاية، إنه عامرٌ أخو الخُضر الذي جاء وصفه في قصيدة الشماخ رجلاً يتعيّش بكدِّ يديه، صابرَ الفاقة عامين، ثم شمّر عن ساعد الجدِّ فتخيّر قوسًا من أطيب الشجر وأحسنه، وتوفّر عليها، فأحسن قطعها وصنعها وتمظيعها [أي وضعها في الشمس لتشرب ماء لحائها] وتثقيفها وتقويمها وذوقها مختبرًا شدّتها ولينها، حتى إذا استوت في يديه آيةً في الإبداع:

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت
ترنّم ثكلى أوجعتها الجنائز

وافى بها أهل الموسم، فأغراه مقتنص خبير رائز للنفائس بما بهره، وكاد يُنسيه ما عانى في صنعها وكابد في إتقانها، ولكنه تماسك وجعل يناجي نفسه متردداً بين بؤس مخلٍّ وثراء مذلٍّ، بين حنين تخالطه الفاقة والفقر وأنين دونه النُّعمى والغنى:

يرى نِعْمةً لبست نعمة
ونوراً تدجّى وسحراً بطل(٢٢)

وقطع عليه تردده أصوات أحاطت به من كل ناحية تستحثه على البيع فباعها، وما إن شعر بفقدها حتى بكاها «وفي الصّدر حزّاز من الوجد حامز».

وصف الشماخ هذا القوّاس وقوسه فأجاد الوصف ولا غرو فهو أحد الشعراء الوصافين، أنشد الوليد بن عبدالملك شيئًا من شعره في صفة حُمر الوحش فقال: «ما أوصفه لها! إنّي لأحسب أحد أبويه كان حماراً»(٢٤). وقرأ أبو فهر ما جاء في هذا الوصف فافتُتن به، أعجب بالواصف كما أعجب بالموصوف، وفيه يقول: «لم أعرفه، ولكن حدثني عنه رجل مثْلُهُ، عملُهُ البيان، ذاك فطرته في يديه، وهذا فطرتُه في اللسان»(٢٥) وكان أن عمد إلى قصيدة الشمّاخ هذه ذات الثلاثة والعشرين بيتًا فاستلهم منها بيانها الحافل، وتذوّقها غائصاً في أغوار دلالة ألفاظها وتراكيبها ونظمها، فأثار بهذا التذوق دفائن نظمها ولفظها، واستدرج خباياها المتحجبة من مكامنها، وأماط اللثام عن أخفى أسرارها المكتّمة وأغمض سرائرها المغيّبة، فبعثها من مرقدها ضمن قصيدة تزيد على ثلاثمئة بيت، كلٌّ ما فيها نبيشة مستخرجة من بيان أبيات الشمّاخ ومن ركاز نظمها وكلماتها(٢٦).

وكان أبو فهر يتوخّى في كل ما يعمل وجه ربه، ويرجو أن يكون عمله خالصًا له لا تشوبه شائبة من أمر الدنيا، أحسبه كذلك - وعلى هذا مدار عمله كله - ولا أزكي على الله أحدًا، يتبدّى ذلك جليًا في كل ما كتب وحقق وأخرج للناس، ولعل خير ما يجلو هذا المعنى كلمته في مستهل تحقيقه لتفسير الطبري:

«وبعد فقد بذلت جهدي، وتحرّيت الصواب ما استطعت، وأردت أن أجعل نشر هذا الكتاب الإمام في التفسير، زُلفى إلى الله خالصة.

ولكن كيف يخلص في زماننا عمل من شائبة تشوبه! فأسال الله أن يتقبّل مني ما أخلصت فيه، وأن يغفر لي ما خالطه من أمر هذه الدنيا، وأن يتغمدّني برحمته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم... »(٢٧).

وبعد، فإن أبا فهر أعظم من أن يحيط بفضله مقال، أو يحصي مناقبه ويُعدّد مزاياه كتاب أو خطاب، وكم في القلب من معنى أجدني عاجزاً عن التعبير عنه، وكم في النفس من شعور لم يستطع قلمي أن يترجمه كلامًا يكتب أو بيانًا يُؤثر. إنها مشاعر كل محبٍّ للعربية وأهل العربية وما أحسن ما عبّر أبو فهر عن مثل هذا بقوله:

«وقد وجدت في نفسي شيئًا طلبت الإبانة عنه فلا أدري أأحسنت أم أسأت، أبلغت أم قصرت، وما كل ما تحسُّه واضحًا في نفسك تستطيع أن تحسن الإبانة عنه، ورحم الله إمامنا الشافعي فقد قال عندما سئل عن مسألة: إني لأجد بيانها في قلبي ولكن ليس ينطلق بها لساني(٢٨).

وأنت يا أبا فهر، كأنّي بأبي العلاء المعري ما يعني إلّاك في قوله:

مـن الـنـاس مـن لـفـظـه لـؤلـؤ
يـبـــادره الـلـقـط إذ يـلـفـظ

ويعني شانئيك من دعاة الحداثة والتجديد وتمزيق التركيب العربي وكسر رقبة الشعر العربي بقوله:

وبعضُهُم قولُه كالحصا
يُقال فيُلغى ولا يُحفظُ

ستبقى آثارك الرائعة شاهد صدق على علمك وعلوّ بيانك، وحجّة حق على إيمانك وجهادك، وأرجو أن تكون زُلفى لك عند ربك تنال بها رضاه، وتبلغ بها غايتك وسؤلك.

مِنَ المُؤمنينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عليه فمنهُم من قضى نَحْبَه ومنهم مَنْ ينتظر وما بدّلوا تبديلاً. **الأحزاب**:٢٣.

رحمك الله الرحمة الواسعة وأجزل لك الأجر والمثوبة.

الهوامش:

١- أي من ابتلاها بسوء. والبلاء يكون في الخير والشرّ، يقال: ابتليته بلاءً حسنًا وبلاءً سيئًا، والله تعالى يُبلي العبد بلاءً حسنًا ويبليه بلاء سيئًا، نسأل الله تعالى العفو والعافية.
٢- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص٤١.
٣- المرجع السابق، ص٧.
٤- دراسات عربية وإسلامية، ص٦١٠.
٥- برنامج طبقات فحول الشعراء، ص١٥٨.
٦- الشيخ الذي لم يكن تقليديًا، للدكتور محمود الربيعي، مجلة العربي العدد (٤٦٩).
٧- من كلمة للدكتور محمود الطناحي في مقدمة كتاب الشعر للفارسي، ٦٩/١.
٨- مقدمة دلائل الإعجاز، صفحة ل.
٩- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص٥، وثمة تخريجه.
١٠- أباطيل وأسمار، ص١١ - ١٢.
١١- كان العقاد يقول: «إن مفتاح شخصية الكاتب أو الأديب هو روح الفكاهة عنده»، وقد شهد أن حظ الأستاذ محمود شاكر منها عالٍ زائد، انظر مقدمة الدكتور الطناحي لكتاب الشعر، ٥٦/١، حاشية رقم(١).
١٢- برنامج طبقات فحول الشعراء، ص١٢٤.
١٣- المتنبي، ١٢/١.
١٤- نمط صعب ونمط مخيف، ص٣٩١.
١٥- ديوان ابن الدمينة، ص٧.
١٦- أطلعني رحمه الله على كتاب المتنبي يوم لم يكن منه نسخة واحدة في السوق، وكان الأستاذ محمود قد خصّه بعدد من النسخ، وأعارني - أحسن الله مثوبته - مقالاته السبع (نمط صعب ونمط مخيف) وأشفق عليّ آنذاك من وعورة مسالكها وصعوبة نمطها.
١٧- أعتذر عن الإحاطة بهم جميعًا، فالمقام والمقال لا يتسعان لكل هذا ، وهم حفظهم الله أجلُّ من أن يعتبوا.
١٨- المتنبي، ٣٩٥/٢.
١٩- المتنبي، ٣٩٦/٢.
٢٠- المتنبي، ٥٤/١.
٢١- القوس العذراء، ص٢٨ - ٢٩.
٢٢- من قصيدة «فيها» للشاعر محمود حسن إسماعيل، القوس العذراء، ص٨.
٢٣- القوس العذراء، ص٦٧.
٢٤- القوس العذراء، ص١٠.
٢٥- القوس العذراء، ص٣٠.
٢٦- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص٢٧.
٢٧- مقدمة تفسير الطبري، ٢٠/١.
٢٨- نمط صعب ونمط مخيف، ص١١٦.

الترادف في القرآن بين التسامح والتزمت

ناصر إبراهيم عبداللطيف عون

لئن كان القرآن معجزة حيّة بين ظهرانينا، ولئن كانت المعارك الفكرية فيه ماتزال كائنة لم تحسم - إلا قليلاً - إنّ ذلك كله لا ينفك أن يكون برهانًا على صدقه واستمراريته وثباته في كل أقضيته التي طرحها منذ أن باشر جبريل النزول به على قلب رسول الله وحتى هذه اللحظة، وما أدراك ما تلك اللحظة في قرننا العشرين، إنها لحظة تولد فيها علوم واكتشافات جعلت من أصحابها فراعنة لا يؤمنون إلا قليلاً، أو كما وصفهم القرآن: *يَعلَمُون ظاهرًا مِنَ الحياةِ الدنيا وهُمْ عن الآخرةِ هُم غافلونَ.* **الروم:٧.**

الترادف في اللغة

الترادف في اللغة يأتي بمعنى التتابع، فقد جاء في لسان العرب قوله: الردف ما تبع الشيء، وكل شيء تبع شيئًا فهو ردفه، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف»(١).

وبهذا المعنى نرى أن الألفاظ قد تسد مسد لفظ واحد وقع بينه وبينها اشتراك في ملحظ ما، مثل: «أبصر - لمح - رأى - شاهد - رَمَق - عاين» هذا الملحظ لا يعني أن المعنى في كل لفظ هو عينه في لفظ آخر، بل إن لكل واحد مما سبق وظيفة في الأداء وحسنًا بلاغيًا لا يطّرد في نظيره، وإلا صارت لغة القرآن - وحاشاها - لغة إنشائية خالية من كل موضوعية أو علميّة، وهذا وترٌ يضرب عليه بعض من أصحاب المنهجية العلمية الحديثة.

القائلون بالترادف اللغوي

هم كُثُر، ولغة العرب شاهدٌ على هذه الظاهرة القديمة، ودليل يُرجح مسألة الترادف، وليس أولئك الذين همهم اللفظ القرآني والمفاضلة بين لفظ وآخر، وقضية وأخرى فقط، بل أولئك الذين تناولوا اللغة العربية باحثين في العلاقة بين المبنى والمعنى. نحن أمام ظاهرة لغوية لا نستطيع إنكارها، أو نحكم على القائلين بها بالتخطئة، إذ كل منهم قد أبلى بلاءً حسنًا في هذا المجال باحثين ومنقبين في تراث هائل عن مترادفات لفظية تعدُ بالآلاف أو المئات، ويؤكد أحد الباحثين: أنه توصل إلى جمع أكثر من ٥٦٤٤ لفظًا لشؤون الجَمَل، رفيق الأعرابي في الصحراء، ومؤنسه في وحشته(٢).

وتقول الدكتورة عائشة بنت عبدالرحمن (بنت الشاطئ) في كتابها «الإعجاز البياني للقرآن»: «وحين ننظر فيما وصل إلينا من كتب اللغة ومعاجمها نراها تسلك مسلكين متغايرين، منها ما يذهب إلى وجود الترادف، فيحشد للمعنى أو للشيء الواحد ألفاظًا ذات عدد، دون إشارة إلى كونها لغات فيه، وهذا مذهب أبي مسحل الأعرابيّ ق٢هـ، وابن السكّيت: ق٣هـ، في الألفاظ، وللفيروزآبادي صاحب القاموس، كتاب اسمه «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف» وكتاب آخر في أسماء العسل ذكروا أنه جمع فيه منها ثمانين اسمًا»(٣).

أدلة القائلين بالترادف

ومن قال بالترادف اللغوي يحشد أدلة بالغة يَجْدل بها قوله، وهو لا يجد بأسًا أن يكون دليله من قصة قد تحوم حولها شبهة أو حديثًا شريفًا، أو بيت شعر مما قالته العرب، وقد جمع هذه الأدلة الدكتور محمد بن عبدالرحمن بن صالح الشايع في كتابه «الفروق اللغوية».

أولاً: إن وقوع الترادف في اللغة يغني عن التماس الأدلة لجواز هذا الوقوع كالبر والقمح، والسيف والصارم، والمهند، والإنسان والبشر. إنّ أبا هريرة رضي الله عنه لقي النبي صلي الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين، فقال: ناولني السكين، فالتفت يمنة ويسرة، ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ، فكرر له القول ثانية وثالثة، وهو يفعل ذلك، ثم قال: «آلمديةَ تريد؟» فقيل له: نعم.

فقال: أو تسمى عندكم السكين؟ ثم قال: والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ.
وهذا دليل صريح على ترادف المدية والسكين.
ثانيًا: يسوقون قصة ورد ذكرها في بعض كتب الأدب، وهي أن رجلاً من بني كلاب، أو من سائر بني عامر بن صعصعة خرج إلى ذي جدن من ملوك اليمن، فأطلع إلى سطح والملك عليه، فلما رآه قال له: «ثب» يريد اقعد، فقال الرجل: ليعلم الملك أني سامع مطيع، ثم وثب من السطح، ودقت عنقه، فقال الملك: ما شأنه؟ فقالوا له: أبيت اللعن إن الوثب في لغة نزار الطَّمْر، فقال الملك: ليست عربيتنا كعربيتهم. من دخل ظفار حمّر، أي من دخل مدينة ظفار فليتكلم اللهجة الحميرية.
ويستدلون من هذا على ترادف «وثب» و«قعد»، وأنهما لفظان يعبران عن معنى واحد، كما تشير إلى ذلك المعاجم، فهما إذن مترادفان.
ثالثًا: قالو:! لو كان لكل لفظة غير معنى الأخرى لما أمكن أن نعبر عن الشيء بغير عبارة واحدة، فنحن نقول في «لا ريب فيه»: «لا شك فيه» فلو كان الريب غير الشك لكانت العبارة عن معنى الريب خطأ، فلما عبّر بهذا عن هذا عُلم أن المعنى واحد، وأنه لا حجة في الإتيان بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد كما في قول الحطيئة:

ألا حبذا هند وأرض بها هند

وهند أتى من دونها النأي والبعد

فإنّ النأي هنا هو البعد، والإتيان بهما معًا إنما هو تأكيد ومبالغة.
رابعًا: إن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى القبائل، وباستعراضها نجد أن بعض كتبه قد اشتمل على كلمات لم تكن مألوفة بين قومه صلى الله عليه وسلم، وكثيرًا ما كانوا يسألونه عنها، من ذلك أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيدالك الرجل زوجته؟ فقال صلى الله عليه وسلم: نعم إذا كان مفلجًا. فقال له أبوبكر رضي الله عنه يا رسول الله ما قال لك؟ وما قلت له؟ قال صلى الله عليه وسلم: أيماطل الرجل امرأته، قلت: نعم إذا كان مفلسًا(٤).
ومهما يكن من أمر هؤلاء الذين يرون جواز وقوع الترادف في اللغة، وكذا انصرافه أيضًا إلى اللفظ القرآني، محتجين بهذه الأدلة التي جمعها صاحب كتاب «الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن»، فهي بلاشك تعمل لمصلحتهم، ولكن تظل بعض الأمور التي يجب أن تراعى:
أولاً: إن اللغة العربية بكل ما فيها من سعة قبل نزول القرآن وبعده تظل نتاجًا بشريًا أو ظاهرة بشرية مرّت عليها مراحل التلاقح اللغوي إلى أن نضجت واستوت، ومن هذا المنطلق علينا أن نقيس بين العرف اللغوي عند العرب، أقصد اللغة العربية كصناعة، وفي حياتهم اليومية وأسواقهم الأدبية، وتناول


بنت الشاطئ

النص القرآني كوعاء حمل رسالة الله من السماء إلى الأرض، أقول: علينا أن نقيس برفق، لأن التقعيد القرآني لأقضية البشر في القرآن سماوية وليست بشرية، أي إنها تخضع لحكمة الخبير الحكيم ولاتخضع لمنطق بشري مهما سما.
ثانيًا: إنّ الاحتجاج بلغة قوم على أحقّية الترادف اللغوي منطق مقبول في إطاره القبلي، ولكنه لا يرتفع ليكون دليلاً مطلقًا أو مستطرقًا على لغة القرآن، إذ القرآن أغلبه كتب بلغة قريش وما وافق منه لغات أخرى، فهي مألوفة معهودة في بقية القبائل، ذلك أن لغة قريش هي بوتقة انصهرت فيها لغات العرب جميعًا، فإذا ما قرأ الحجازي أو اليمني أو الأسدي أو التميمي القرآن لم يلحظ عنصرية في لفظه لأنه من شجرة لا شرقية ولا غربية.
ثالثًا: أما الاحتجاج بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم فذلك شأن الداعي، أرأيتم لو ذهب داع إلى الله في هذا العصر إلى بلد لا يتكلم العربية كيف يدعو إلى الله إلا إذا أتقن لغة هؤلاء الناس؟ هكذا شأن الرسول صلى الله عليه وسلم، إنه مؤدَّب من ربه، فهو يجيد لغات العرب، أليس من أوسط القوم؟
رابعًا: إن الاحتجاج على ترادف الكلمات ببيت شعر قاله الحطيئة:

ألا حبذا هند وأرض بها هند

وهند أتى من دونها النأي والبعد

وقولهم: إن النأي هو البعد، صحيح أن النأي هو البعد عند من لا يتقن العربية إلا صناعة، وصحيح أن القارعة هي «الصاخة»، وهي «الحاقة» وهي «الواقعة» وهي «الزلزلة» وهي «الطامة» وهي «الساعة» وهي «القيامة»، كل أولئك عند من لا يحسّ باللغة فطرة.
إن كل لفظة من أولئك لها ملمح فريد، وجمال في موقعه وانسباك في نظمه لا يأتيه ولا يعطيه لفظ غيره، وإلا كان لفظ القرآن لا ينفرد في عطائه عن الكتب السماوية الأخرى، أو كان مثله مثل الحديث القدسي، لا إشكال في اللفظ مادام قد جاءنا المضمون.
وإن كان لفظ القرآن يمكن أن يرادفه ألف لفظ، فما هذه المعركة حول رسمه العثماني والرسم العمري؟ مسألة لا تقاس في لفظه إذا قيست.
وإن كان لفظ القرآن يمكن أن يرادفه ألف لفظ، هل عطاء ألفاظ أخرى للآية الخامسة من سورة السجدة يمكن لها أن تخرج لنا سرعة الضوء، وتسجد عشرات من علماء الفيزياء في روسيا خاضعين لرب هذا القرآن؟ وهل إذا أردفنا ألفاظًا للآيات القرآنية (١٢-١٣-١٤) من سورة «المؤمنون»؟ هل ستعطي الإعجاز العلمي الذي تحمله الآيات؟ هل تحمل كلمة أخرى غير كلمة «علقة» عطاءها العلمي نفسه الذي رئي بالمجهر من خلال تتبع مراحل التكوين داخل الرحم؟ لقد رئيت وهي في رحلتها إلى الرحم ذات أهداب تتعلق بواسطتها عبر قناة «فالوب» حتى تستقر في الرحم.
أليس ذلك دليلاً أن اللفظة القرآنية ذات زخم

علمي منقطع النظير؟.

القائلون بعدم الترادف اللغوي

أحسب أنّ القائلين بعدم الترادف فئة ليست بالقليلة سواء من الأقدمين أو المحدثين، وأحسب أن مقولة ابن الأعرابي:

«كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله»(٥).

أحسب أن هذه المقولة المتداولة في الكتب المعنية بهذا الأمر ترفعها إلى درجة القانون، وهي كذلك، بل إنها مذهب الأكثرين من علماء اللغة، ومن شغلهم اللفظ القرآني. ومن المحدثين الذين أبلوا بلاءً حسنًا في هذه القضية الدكتورة عائشة بنت عبدالرحمن، ولها في هذا المجال أبحاث قيمة في كتابيها «التفسير البياني للقرآن الكريم» و«الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق»، وهي حين تلمس الألفاظ التي يظن أنها مترادفة، ثم تبحث بحثًا معمقًا في آيات القرآن لتخرج الفروق الملموسة التي تُرى، هي بهذا الصنيع إنما تناقش أزمة الترادف وقضية الإعجاز القرآني بأسلوب موضوعي يخضع لاستقراء دقيق، يدع النص معجزًا بما يناسب لغة العصر الحديث لغة الإحصاء والنتائج الصارمة التي لا تؤَوّل ولا يُشكّ في نتائجها.

التناول الموضوعي لآيات القرآن الكريم من الحجج التي قد تدفع القائلين بالترادف إلى التراجع عن قولهم

ولنقبس من بحثها في قضية «النأي، البعد»، ما خلصت إليه من استقراء نصوص القرآن لهذين اللفظين، تقول: ونستقرئ مواضع الاستعمال القرآني للنأي والبعد فلا يترادفان: النأي لا يأتي إلا بمعنى الإعراض والصد والإشاحة بصريح السياق في آياته: **الإسراء:٨٣، فصلت:٥١، الأنعام:٢٦.**

أما البعد، فيأتي بمختلف صيغه في القرآن، على الحقيقة والمجاز، في البعد المكاني أو الزماني، المادي منه والمعنوي، بصريح آياته: **التوبة:٤٢، الزخرف:٣٨، الفرقان:١٢، فصلت:٤، هود:٨٣، الأنبياء١٠١،** ق:٣١، **الأنبياء:١٠٩، المعارج:٦، آل عمران:٣٠، سبأ:١٩، النمل:٢٢**(٦).

إنّ التناول الموضوعي لآيات القرآن واستقراء آياته جيداً من الحجج الدامغة التي قد تدفع بالقائلين بالترادف إلى أن يتراجعوا عن قولهم، الزمن كفيل أن يردهم عن قولهم، ألم تتراجع بعض القضايا والقائلين بها إلى أنها تتآكل يومًا بعد يوم. من هذه القضايا: التكرار في القرآن، الزيادة في حروفه، ولقد ثبت بالبحث الدقيق أنه لا زيادة ولا تكرار، إنما كان التعسف في التناول، وعدم التأني في استنباط النتائج وراء هاتين المقولتين.

التقصي المنهجي يرفض مقولة الترادف

في هذ العصر قد بطلت كل الطرائق الإنشائية الكاسحة ولم تعد صالحة، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين لم يعد هذا زمن الذين يريدونها فوضى كلامية، بل إنه زمن النتائج العلمية الصارمة، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: التوازن الحرفي في بنائه العظيم، وهذا التوازن قد تناوله غير باحث فخلصوا إلى أن الدقة التامة في كل آياته لا سبيل إلى المماراة فيها، لكونها حقائق ملموسة، وهذا قام به محمد رشاد خليفة في كتابه الذي يبحث فيه عن سر الرقم (١٩) وعلاقته بالإعجاز القرآني، وقد أنجز عملاً فريداً من خلال الحاسب الآلي.

وقام باحث آخر وهو عبدالرحمن نوفل بإحصاء كلمات في القرآن فمثلاً:

«تكرر لفظ فرعون ٧٤ مرة، والسلطان ٣٧ مرة، والابتلاء ٣٧ مرة، يعني أن مجموع لفظ «فرعون» يقارَن بمجموع السلطان والابتلاء.

إبليس والاستعاذة منه: تكرر كل منهما ١١مرة.

السحر والفتنة: تكرر كل منهما بمشتقاته ٦٠ مرة.

الخيانة والخبث: تكرر لفظ الخيانة ومشتقاته ١٦ مرة.

وكذلك لفظ الخبث بمشتقاته(٧).

وهذه أمثلة تضرب فقط، وليس نقصد من ورائها إلا إثارة مواهب القارئ للنظر في القرآن نظرة تدبر وتعقل.

ثانيًا: إن التقديم والتأخير في القرآن، ليس مسألة بلاغية ينظر إليها من ناحية الحس الجمالي، بل إنه من خلال التقصي المنهجي، ثبت أن التقديم والتأخير مسألة ذات بعد واقعي وتاريخ، وليس كما يُظن أن القصد منه التخصيص وغيره، وهذا دليل آخر أن الترادف بين الألفاظ ممتنع في القرآن ولا مجال له، مثال: من سورة «المؤمنون» (٢٤) قال تعالى: *فقال المَلأُ الذينَ كَفَرُوا من قومه.* هل هذا التركيب يردفه قوله تعالى من السورة نفسها الآية:٣٣ *وقال المَلأُ من قومه الذينَ كَفَرُوا*؟

إن القولين كليهما يؤصلان لواقع تاريخي لا يغني عنه تلاعب بالكلمات ـ وحاشا للقرآن أن يكون كذلك.

فالجملة الأولى: تناسبت مع موقف أهل نوح من الدعوة: فريق آمن فركب معه، وهم الناجون من الغرق، والملأ الذين كفروا هم مَنْ حَقّ عليهم العذاب، والملأ هم أهل الشوكة في المجتمع وعِلْية القوم.

الجملة الثانية: تنص على أن الكفر واقع من المجتمع جميعه بما فيهم الملأ، ولذا كان العذاب بالصيحة فأهلكهم جميعًا. ولنتأمل التركيبين مرة أخرى:

الأولى: *فقال الملأ الذين كفروا من قومه.*

الثانية: *وقال الملأ من قومه الذين كفروا.*

إنّ الأولى وُصم الملأ فيها بالكفر ولذا تقدم الوصف «الذين كفروا» بينما الثانية تأخر الوصف ليشمل القوم بما فيهم الملأ فصاروا جميعًا كفاراً.

وبذا لايمكن القول بترادف الجملتين، إذ العلاقة منفكة بين الأداءين.

الهوامش:

١ـ الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن، ص٢٦، الدكتور محمد بن عبدالرحمن بن صالح الشايع، ط١، الرياض، ١٩٩٣م.

٢ـ دراسات في فقه اللغة، ص٢٩٣، الدكتور صبحي الصالح، ط١١، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٦م.

٣ـ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص١٩٤، ص١٩٥ الدكتورة عائشة عبدالرحمن، ط١، الناشر: دار المعارف ـ القاهرة.

٤ـ الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن، ص٤٠، ٤٤، الدكتور محمد بن عبدالرحمن بن صالح الشايع، ط١، الرياض، ١٩٩٣م. (وقد اختصرت الأدلة الواردة بالكتاب).

٥ـ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص١٩٦، الدكتورة عائشة عبدالرحمن، ط٢، الناشر: دارالمعارف ـ القاهرة.

٦ـ المرجع السابق، ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

٧ـ وجوه من الإعجاز القرآني ص٦٩ ـ ٧٠، مصطفى الدباغ، ط١، الناشر مكتبة المنار ـ الأردن، ١٩٨٢م.

مطبعة الجوائب: نشأتها وتاريخها ومطبوعاتها



أحمد فارس الشدياق

حمد بن عبدالله الحماد العنقري

أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق عالم باللغة العربية والأدب من لبنان، وكان مسيحيًا مارونيًا، رحل إلى مصر ومالطة وأوربا، ثم سافر إلى تونس فاعتنق فيها الدين الإسلامي، وتسمى أحمد فارس، ثم دُعي إلى الآستانة، وأصدر فيها صحيفة «الجوائب» سنة ١٢٧٧هـ، واستمرت في الصدور مدة ثلاثة وعشرين سنة، وألف عددًا من الكتب منها: «الجاسوس على القاموس»، و«الساق على الساق فيما هو الفارياق»، و«المرآة في عكس التوراة». توفي في الآستانة سنة ١٣٠٤هـ ونقل جثمانه إلى لبنان.

يعدّ أحمد فارس الشدياق من رواد النهضة العربية في العصر الحديث، وذلك بإسهاماته المتعددة في المجالات المختلفة. وبني هذا البحث على دراسة جانب من هذه الجوانب المتعددة، وهو الذي يتعلق بإسهام أحمد فارس في إنشاء صحيفة ومن ثم إنشاء مطبعة لنشر الكتب.

إنشاء المطبعة

كانت الأحلام تراود أحمد فارس الشدياق وهو يعمل في المطبعة السلطانية في الآستانة أن يؤسس صحيفة عربية في إستانبول على غرار الصحائف الأجنبية. وحين حقق حلمه بإصدار جريدة «الجوائب» في عام ١٢٧٧هـ/٣١ مايو/أيار عام ١٨٦١م أخذ يتطلع إلى تأسيس مطبعة ينشر عن طريقها صحيفته ، وما يريد نشره من كتب التراث العربي المخطوط.

فقد كان أحمد فارس الشدياق يطبع «الجوائب» الأسبوعية في المطبعة السلطانية مدة تزيد على تسع سنوات، ثم قرر إنشاء مطبعة تكون ملكًا له ينشر فيها ما يريد، فلقد ذكر الشدياق رأيه في المطبعة السلطانية فقال: «إن أحوال المطبعة السلطانية بقيت غير منتظمة حق الانتظام، لأنها متوقفة على [وزارة] المالية، وليس لها صندوق خاص بها، وقد كان ينبغي أن تكون مستقلة أمورها، وفي كل سنة أو سنتين يجري حسابها مع مأموري المالية، ولأنها ليس فيها من أشكال الحروف سوى شكل واحد، وهو هذا الشكل الذي تطبع به الجوائب، فهو مستعمل للمتون والشروح والحواشي وغيرها، وهو قصور ظاهر مع أشياء أخرى يدريها من تبصر ودرى وخبر»(١). لذلك اتجه الشدياق إلى الانفصال عن المطبعة السلطانية وإنشاء دار للطباعة خاصة به. وليست لطبع الصحيفة فقط، بل دار تطبع



العدد الأول من «الجوائب»



العدد ٥٢ من الجوائب ويبدو التطور في الإخراج واضحًا

فيـها الكتب والمجلات المفـيدة للرجال والنسـاء والأولاد ولكل صنف من أصناف الناس، فينجم عن ذلك نشر المعرفة بينهم فيعرفون ما لهم وما عليهم(٢).

فـفي عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م اضطر الشـدياق إلى وقف تعـامله مع المطبعـة السلطانية، عندما نشبت أزمة سياسية شـديدة التعقيد بين السلطان عبدالعزيز واليه على مصـر الخديوي إسـماعيـل باشا، وأسبـاب الخلاف متعددة، ومنهـا سيـاسة القـروض التي اعتـمدها الخـديوي إسمـاعيل، والتي خنقت الاقتـصاد المصـري، وبسبب الإفراط في البـذخ الذي رافق حفلات افتتـاح قناة السويس، لذلك أصدر السلطان فرمانًا حـدد فيه سلطات الخديوي، ونص على أنه لا يجـوز له أن يقترض قروضًـا جديـدة دون أن يبين الحاجـة إليهـا وعليه أن يحـصل على إذن مسبـق من السلطان بعـقدها(٣). لذلك أصبـح من المتعـذر على الشدياق وهو من مـناصري الخديوي، أن يواصل تأييده له ولجريدته التي تطبع في مطبعة الدولة(٤).

يضاف إلى هـذا أن وزير المعارف العثـمانيـة صبحي بك الذي يـشرف على المطبعـة السلطانية كان يرعى الشـدياق بعنايته، قد أعـفي من هذين المنصبين وعين في مـجلس شـورى الـدولة(٥)، لذلك قـام الشـدياق بالانفـصـال عن المطبـعة السلطانيـة، وأسس له مطبـعة خـاصة سـماها مـطبـعة «الجوائب» وذلك في عـام ١٢٨٦هـ ـ ١٨٧٠م. واتخذ الشدياق مقرًا لها فـي أول الأمر قرب محلة الضبطية بإستـانبول، ثـم تنقل من مكان إلى آخر حـتى استـقر نهـائيًا في المبنى رقـم ٨ أمام البـاب العالي وعلى بعـد خـمسين ذراعًـا منه(٦)، وفي هذا المقـر الأخيـر نشطت مطبعة الجوائب في عملها الرائد الذي اشتهرت به في طباعة الكتب العربية وتحقيق المخطوطات.

ولكن كيف استطاع الشدياق تأسيس هذه المطبعة خصوصًا أن دخل الجريدة لا يفي بالغرض، بل هي دون الكفاية، فكثيرًا ما اشتكى الشدياق من حالة الإعسار التي كـان يمر بها، فكـيف إذًا موّل هذا المشـروع؟ في الحقـيـقة أن الشـدياق ترك المطـبعة السلطانيـة من أجل الخـديوي إسمـاعيل، لذلك قـام الخديوي إسـماعيل بالمسـاهمة في إنشاء هـذه المطبعة، حيث ذكر الشـدياق ذلك فقـال: «الشكر لله تعـالى على نعمـه، ولعـزيز مصـر على كرمـه، فإنـه هو الذي أعلى منارها، وسنى استمرارها. كيف لا وهو كسـميه أبي العرب، وسند لكل ذي أدب وأرب، فأدامه الله نصرًا للإسلام والمسلمين وفخرًا للأنام»(٧). بلغت تكلـفة إنشاء المطبعـة مبلغ عشرة آلاف فرنك التي قدمها الوزير الأكـبر التونسي مصطفى خزنه دار ليطبع بها الشدياق الجزء الثاني من كتابه «سر الليالي» بعد أن أعانه في طبع جزئه الأول(٨).

لذلك قام الشدياق ـ مستفيدًا مـن تجربته في المطبعة السلطانية ومن ملاحظاته عليها ـ بتجـهيز مطبعته حيث وفـر لها جميع ما تحتاج إلـيه من أدوات فنية، واقتنى لها نماذج مختلفـة من الحروف تمتاز بالدقة والجمال(٩)، وبعـد أن استقر في مكانه الجديد جلب لها مطابع وآلات جديدة، ثم زاد في أحرفها أشكالاً صغيرة وكبيرة، ثم أنشأ لها مسبكًا خاصًا تُصب فيه الحروف من مختلف المقاسات(١٠).

وكانت المطبعـة تعمل بالتدوير اليدوي، وبهذا العمل الجـاد استطاع الشدياق أن يشق طريقـه في عالم النشر حـتى أصبـحت مطبعـته من أشهـر مطابع السلطنة العثمانية(١١).

من إصدارات مطبعة الجوائب:

١٢٨٦هـ/١٨٧٠م:
جريدة الجـوائب، صدر أول عـدد منها في مطـبعة الجوائب بـالعدد رقم ٤٢٥، واستمرت في الصدور حتى العـدد رقم ١١٧٧، بتاريخ ٦ جمادى الأولى عام ١٣٠١هـ وهو العدد الأخير منها.

١٢٨٧هـ/١٨٧٠م:
الموازنة بين أبي تمام والبحتري، للآمدي، بتصحيح الشدياق، ١٩٧ص.

١٢٨٨هـ/١٨٧١م:
غنيـة الطالب ومنيـة الراغب في النحو والصـرف وحـروف المعاني، للشـدياق، ٢٢٨ص، ط١.

كنز الرغائب فـي منتخبـات الجوائب، ج١، وج٢، وج٣، وج٤، وج٥، وج٦، ج٧، جمعه سليم فارس، ط١.

١٢٨٩هـ/١٨٧٣م:
كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، ج٢، جمعه سليم فارس، ٢٥٦ص، ط١.

١٢٩١هـ/١٨٧٤م:
لوعة الشاكي ودمعة الباكي، للصفدي، ٧٤ص، ط١.

١٢٩٢هـ/١٨٧٥م:
تعليم المتعلم طرق التعلم، للزرنوجي، ٤٦ص.

١٢٩٣هـ/١٨٧٦م:
مقدمة كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، لخير الدين التونسي.

١٢٩٤هـ/١٨٧٧م:
خارطة الأماكن التي تدور فيها الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا.

١٢٩٦هـ/١٨٧٨م:
ترجمة نظامات مجلسي الأعيان والمبعوثان، ٥١ص.

١٢٩٧هـ/١٨٧٩م:
سليم فارس: رسائل أبي بكر الخوارزمي، تصحيح الشدياق، ٢١٤ص.
مجلة الأحكام العدلية، مجموعة من العلماء والفقهاء، ٣١٧ص، ط١.

١٢٩٨هـ/١٨٨٠م:
تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، لابن سينا، ١٣١ص، ومعه: قصة سلامان وابسال، ترجمة: حنين بن إسحاق.
ديوان العبـاس بن الأحنف، تصـحيح: يوسف النبهـاني، ٢٢٤ص، ط١، ومعه: رسـائل أبي الفضل بديع الزمـان الهـمذاني، تصحيح: الشـدياق، ٢٥٢ص، ط١.
سجع الحمام في مدح خير الأنام، لشمس الدين الصالحي، ٨٧ص.

مطبعة الجوائب: نشأتها وتاريخها ومطبوعاتها

وأما إدارة المطبعة ففي أول الأمر كان أحمد فارس هو الذي يتولى وحده شؤون جريدته مع عدد محدود من العمال، ثم بعد عودة ابنه سليم من تونس واستقراره نهائيًا في الآستانة أوكل الشدياق إلى ابنه سليم الفارس إدارة المطبعة(١٢).

وأما قضية تمويل الجريدة ثم المطبعة، فقد كانت الدولة العثمانية قد خصصت لها مبلغًا وذلك بعد أن تعطلت الجريدة بعد عددها رقم ٣٦، وهو التعطيل الأول بسبب مادي، وذلك لكساد «الجوائب» وعدم استطاعة الشدياق تلافي تلك الأزمة المادية، وتشير وثائق «الأرشيف» العثماني إلى الدافع وراء مساعدة الدولة لجريدة «الجوائب» وهو ظهور جرائد عربية معادية للدولة العثمانية في باريس ومرسيليا وتسربها إلى داخل البلاد العربية(١٣)، وقد أشار الشدياق إلى هذه المساعدة في العدد ٣٧ من «الجوائب» حيث يذكر أن إنقاذ عجزها المالي كان بإعانة من الحكومة العثمانية، وقد فصّل الشدياق هذا الاتفاق في العدد ٨٣ من «الجوائب» فذكر أن: «كمال أفندي حين كان ناظر المعارف العمومية أنهى إلى مجلس الشورى العالي اقتضاء كون «الجوائب» تطبع على مصرف الميري في التقويم خانة العامرة، وكان الوزير المفخم فؤاد باشا الأكرم والسادة الأماجد الكرام صبحي بك وأحمد وفيق أفندي وأحمد جودت أفندي وغيرهم يعنيهم كثيراً استتباب «الجوائب» على صورة مستحسنة، فوقع عرض الأفندي المشار إليه بالمجلس موقع القبول، فعرضوا ذلك على الحضرة السلطانية دام عزها، ثم جرى تبديل في المناصب فتأخر خروج الإرادة. فلما استقر الوزير المفخم نورس باشا الأكرم في منصب المعارف صدرت الإرادة السنية بكون مصروف «الجوائب» من الآن فصاعداً على طرف المالية ويكون طبعها في التقويم خانة العامرة»، ويزيد الشدياق في ذكر التفاصيل فيذكر في العدد ٣٧١ من الجوائب: «أنه تقرر منذ سبع سنين أن يكون مصروف ترتيبها وطبعها هو ثمانمائة قرش في الشهر من طرف الميري. منها ستمائة قرش أجر مرتبين، والباقي مصروف الطبع. وللميري أن يأخذ في مقابلة ذلك ثلاثمائة نسخة لترسل إلى حلب والشام وبغداد واليمن وطرابلس الغرب وغيرها»(١٤) ويعلق الصلح على هذا الخبر فيقول: «في زعمنا أن هذا الاتفاق اتصف بالنظافة. فلا الدولة اتخذت موقف الراثي فأغدقت المال دون مقابل، ولا صاحب الجريدة سلك سبيل الإسفاف فباع النفس والقلم»(١٥). وأيضًا كان السلطان العثماني عبدالعزيز يساعد الشدياق ويمده كل سنة بمبلغ خمسمئة ليرة عثمانية لتوسيع نطاق الجريدة(١٦)، وكذلك كان الخديوي إسماعيل يعطيه مبلغًا مماثلاً، بل إن الشدياق كان كل ما واجهته صعوبات يلجأ إلى الخديوي إسماعيل ليساعده، وقد وثق الشدياق مساعدات الخديوي له، فكان يذكرها كل ما سنحت الفرصة بذلك، وعندما كان الخديوي في زيارة إلى الآستانة في عام ١٢٧٧هـ قام بزيارة الشدياق، وأثنى عليه، ثم نفحه بخمسة آلاف من الجنيهات(١٧). كذلك كان محمد الصادق باشا باي تونس يساعد الشدياق بخمسمائة ليرة عثمانية(١٨). وكذا إعانة بعض الشخصيات العثمانية والعربية كالصدر الأعظم فؤاد باشا، ووزير المعارف سامي باشا، والوزير التونسي مصطفى خزنه دار - أو الخزندار(١٩).



جرجي زيدان



الخديوي اسماعيل



محمد كرد علي

مقامات بديع الزمان الهمذاني، تصحيح: يوسف النبهاني، ١٠٢ص.
مقامات السيوطي، للسيوطي، ١٠١ص.
أدب الدنيا والدين، للماوردي، ٢٨٦ص.
الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنجليزية، للشدياق، ٣٣٠ص، ط١، معه: مختصر قاموس إنجليزي وعربي يشتمل على مجموع كلمات كثيرة للشدياق.
الجاسوس على القاموس، للشدياق، ٦٩٠ص.
درة الغواص في أوهام الخواص، للحريري، ١٤٢ص، ط١، ومعها: شرح درة الغواص، للخفاجي، ٢٦٥ص، ط١.
الأنموذج في النحو، للزمخشري، ومعه: الإعراب عن قواعد الإعراب، لابن هشام.
الواسطة في معرفة أحوال مالطة، للشدياق، ٣٦١ص، ط٢، ومعه: كشف المخبّا عن فنون أوربا، للشدياق.

١٣٠٠هـ/١٨٨٢م:
ديوان البحتري، تصحيح: الشدياق، ٢ج في مجلد، ط١.
ديوان الطغرائي، تصحيح: رسول النجاري، ١٤٣ص، ومعه: لامية العجم، للطغرائي.
قصيدة لامية العرب، للشنفرى، تصحيح رسول النجاري، ٤٠٣ص، ط١، ومعه: أعجب العجب في شرح لامية العرب، للزمخشري، معه: شرح لامية العرب، لابن دريد.
١٣٠١هـ/١٨٨٣م:
الدر المكنون في الصنائع والفنون، لجرجس طنوس عون، ٣٢٧ص، ط٢.
رسالتان: في الصداقة والصديق وفي العلوم، للتوحيدي، تصحيح: الشدياق، ٢٠٨ص.
١٣٠٢هـ/١٨٨٤م:
الشهاب في الشيب والشباب، للشريف المرتضى، ١٣٦ص، ط١، ومعه: سلوة الخريف بمناظرة الربيع والخريف، للجاحظ.
نقد الشعر، لابن قدامة بن جعفر، ١٣٤ص.
١٣٠٦هـ/١٨٨٨م:
ديوان البحتري، تصحيح الشدياق، ٢ج في مجلد، ط٢.
غنية الطالب ومنية الراغب في النحو والصرف وحروف المعاني، للشدياق، ٢٧٨ص، ط٢.
فهرسة مطبوعات الجوائب والكتب العربية والفارسية والتركية التي تباع في إدارة الجوائب، ٤٢ص.
بدون تاريخ:
الجني الداني في حروف المعاني، لابن أم قاسم، «الحسن بن قاسم المرادي»
تقويم هجري سنوي، يوزع مجانًا.

مطبعة الجوائب وإسهامها في حركة النشر

لقد برز الدور الرائد لمطبعة الجوائب فيما قامت به من نشر كتب التراث العربي، في وقت عزّ فيه الكتاب المطبوع، وهي بذلك سدت فراغًا كبيرًا في هذا السبيل، ولبت حاجة كثير من القراء العرب والمسلمين، ولقد امتازت مطبوعاتها بالإتقان، وجمال الحروف وتنوعها، وحسن الإخراج وجودة الطباعة، كما امتازت مطبوعاتها بالانتقاء الجيد لكتب التراث، وبالقيمة الأدبية، وكل هذا يرجع إلى ثقافة الشدياق وعمق معرفته، ودفعه حرصه على سلامة مطبوعاته مما يشينها إلى أن يتميز، ولقد تميزت مطبوعات الجوائب بالضبط والتحقيق ودقة التصحيح، والسلامة من الأخطاء المطبعية والإملائية، بعكس مطبوعات تلك الفترة التي كانت تعج بالأخطاء المطبعية. وكان ينبه إلى ما يقع من أخطاء في مطبوعات الجوائب في جدول في نهاية الكتاب. كما تميزت مطبوعات الجوائب بالتجليد الرائع الذي ظل محتفظًا برونقه بالرغم من مرور الوقت، لجودة الورق المستعمل فيها وقوته، ومن المميزات الأخرى وضوح الخط وسهولة قراءته، كذلك ذكر سنة الطبع في أول الكتاب، وفي آخر الكتاب يذكر الشهر والسنة، وكذا وضع خاتمة لكل كتاب مع ذكر مصححه في الغالب، وذكر النسخ التي اعتمد عليها في إخراج الكتاب.



غلاف كتاب «اللفيف في كل معنى طريف»

وقد أثنى بعض الباحثين على مطبعة الجوائب، فقد وصف محمد كرد علي مطبعة الجوائب فذكر: «أن الشدياق نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدي والطغرائي والبديع وغيرهم من أئمة الأدب، ونشرها على أحسن أسلوب راق في طول البلاد وعرضها بأثمان بخسة فعمت الفائدة، وأنشأ طلاب الآداب يتحدونها في أسلوبها، وما برحت مطبوعات «الجوائب» إلى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب، لينتفع بها الأحفاد والبنون على مر الدهور والقرون»(٢٠).

وذكر جرجي زيدان في ترجمته للشدياق فقال: «وما لا يليق بنا الإغضاء عنه، أن مطبعة «الجوائب» طبعت كتبًا عربية كثيرة، كانت نادرة الوجود فأحيتها ونشرتها بين المتكلمين بالعربية وسهلت تناولها، وهي مأثرة حسنة تضاف إلى مآثرة الأخرى»(٢١).

ويرى الدكتور خليل صابات أستاذ الصحافة في كلية الإعلام في جامعة القاهرة أن: «المكتبة العربية مدينة لأحمد فارس الشدياق ومطبعته بتلك الثروة الأدبية التي كانت مدفونة في خزائن كتب الآستانة، ولا يعرف الناس عنها شيئًا حتى هيأ الله لها مطبعة «الجوائب» التي طبعتها ونشرتها في الآستانة وفي الولايات العثمانية كافة. وتمتاز حروف تلك المطبعة بالجمال والدقة وندرة أخطاء مطبوعاتها»(٢٢).

أما لويس شيخو فيذكر: «أنه بهمة الشدياق طبعت بمطبعة «الجوائب» عدة كتب أدبية قديمة استخرجها من مكاتب الآستانة فنشرها بالطبع بالحرف الإسلامبولي المشرق»(٢٣).

وإليك بعض ما ختم به الشدياق مطبوعاته، ففي خاتمة كتاب «اللفيف في كل معنى طريف» ذكر أنه: «طُبع بأحرف في الحجم كبيرة غريبة، وفي الشكل لطيفة عجيبة، واعتُني بتصحيحه وترتيبه، وتنقيحه وتهذيبه»(٢٤) وذكر في كتاب «التحفة البهية والطرفة الشهية» أنه قد بذل الجهد في تصحيحها وتهذيبها وتنقيحها وترتيبها(٢٥). وذكر في كتاب «كشف المخبأ» أنه بذل الوسع في ضبط هذه النسخة، وفي تحريرها وتهذيبها على قدر الإمكان، فجاءت بحمده تعالى نموذجًا على الإتقان(٢٦) وقال عن كتاب «نزهة الطرف»: «وقد طبعت هذه المجموعة بأحرف كبيرة على شكل حسن غريب بحيث لم يسبق لها نظير، وقد ضبط كثير من ألفاظها بالحركات تسهيلاً للتعلم والتعليم»(٢٧).

ولم يقتصر دور مطبعة الجوائب على طبع الكتب العربية، بل إنها قامت بطبع بعض الكتب باللغة العثمانية التركية، ولقد ذكر الشدياق بعضًا منها في نهاية كتاب «كشف المخبأ»، فمن هذه الكتب ما يلي: «حقوق ملل» عن حقوق الشعوب، مترجم من اللغة الفرنسية، وكتاب «أخلاق حميدة» للأديب محمد سعيد أفندي، وكتاب «ديوان صبري شاكر»، وكتاب «تخميس قصيدة البردة» لنحيفي أفندي، وكتاب «تاريخ أمريقا وتفصيل أخبار كشفها» وكتاب «نص القانون الأساسي» بالتركي والعربي(٢٨).

الهوامش:

١ـ فارس، سليم. كنز الرغائب، ١٢١/١.
٢ـ الصلح، عماد. أحمد فارس الشدياق: ١٠٧⟦?⟧
٣ـ الرافعي، عبدالرحمن. عصر إسماعيل: ٨٥/١.
٤ـ الصلح: ١٠٨، المطوي، محمد الهادي، أحمد فارس الشدياق: ١٥٨/١، ١٦٤.
٥ـ الصلح:١٠٨.
٦ـ الصلح: ١٠٩.
٧ـ الشدياق، أحمد فارس. سر الليالي: ٩٦/١.
٨ـ الصلح: ١٠٨، المطوي: ١٥٨/١ ـ ١٥٩، وكتاب في المعجمية العربية:١٤٥.
٩ـ في المعجمية: ١٤٥، المطوي: ١٥٩/١.
١٠ـ الصلح: ١١٠.
١١ـ داغر، يوسف أسعد. مصادر الدراسة الأدبية:٤٧٢/٢، في المعجمية: ١٤٥.
١٢ـ الصلح: ١٠٨، المطوي: ١٥٩/١، وفي خاتمة كل كتاب طبع في المطبعة.
١٣ـ دائرة المعارف الإسلامية التركية: مادة الجوائب، ٤٣٥/٦. وهذه الجرائد هي جريدة عطارد، وجريدة برجيس باريس. راجع طرازي، فيليب دي. تاريخ الصحافة العربية:٦٠/١.
١٤ـ المطوي:١٦٣/١ ـ ١٦٤.
١٥ـ الصلح: ١٠٥.
١٦ـ طرازي: ٦١/١، والمعجمية العربية: ١٤٥ ١٤٦.
١٧ـ السندوبي، حسن. أعيان البيان: ١١٢، مجاهد، زكي محمد: ٩٧٨/٣.
١٨ـ طرازي: ١:٦١.
١٩ـ في المعجمية: ١٤٥ ـ ١٤٦.
٢٠ـ علي، محمد كرد. غرائب الغرب: ٨٦/١ ـ ٨٧.
٢١ـ زيدان، جرجي. تراجم مشاهير الشرق: ١١٤/٢.
٢٢ـ صابات، خليل، تاريخ الطباعة في الشرق العربي: ٢٩.
٢٣ـ شيخو، لويس. تاريخ الآداب العربية: ٢١٣/٢.
٢٤ـ الشدياق، أحمد. اللفيف:٢١٢.
٢٥ـ الشدياق، أحمد. التحفة البهية: ٢٩٤.
٢٦ـ الشدياق، أحمد. كشف المخبأ: ٣٦١.
٢٧ـ المرجع السابق: نهاية الكتاب.
٢٨ـ المرجع السابق.

المراجع

١ـ عبدالرحمن، عبدالجبار. ذخائر التراث العربي الإسلامي.
٢ـ سركيس، يوسف. معجم المطبوعات العربية والمعربة.
٣ـ فنديك، أدورد. اكتفاء القنوع بما هو مطبوع.
٤ـ صالحيه، محمد عيسى. المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع.
٥ـ المكناسي، أحمد محمد. فهرس المؤلفين والعناوين للكتب العربية الموجودة بالمكتبة العامة للحماية.

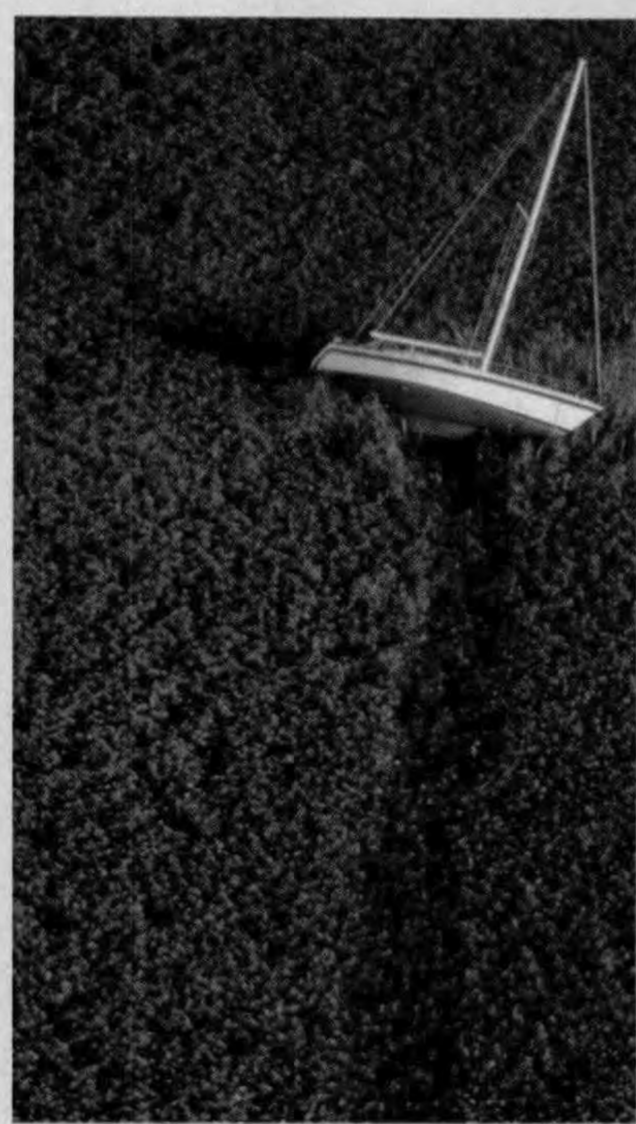
علوم

الأعاصير: الشبح الهائم!

محمد أدهم السيد

بعد عدة أيام من العاصفة، ووسط الحطام في جنوب ميامي، كان هنالك الكثير ممن يعتقد أن الشبح سيعود.

الشبح، كما يدعوه الأولاد الذين ينتمون إلى عائلات من ذوي الدخل المحدود والمنخفض الذين يقطنون منطقة هوم ستيد Home Stead، هو الكابوس المرعب الذي تفجر عبر نوافذ بيوتهم، واقتلع أسقف منازلهم في ساعات الصباح الأولى المعتمة من يوم الاثنين الرابع والعشرين من آب/أغسطس من عام ١٩٩٢م.



قارب صغير ورحلة بعيدة من الشاطئ

معظم الناس يدعون هذا الشبح باسم آخر، وهو إعصار أندرو، ويتذكرون كيف تراقص في منطقتهم بهياج وغضب في ذلك الصباح حاملاً معه عوارض كبيرة تزن مئات الأرطال، كان قد اقتلعها من بعض الأبنية البعيدة ورمى بها فوق منازلهم على نحو يسد أحيانًا جميع المنافذ. واليوم في أي وقت يقصف فيه الرعد، أو يلمع البرق يتعالى صراخ وتنبح الكلاب. حتى الأشخاص الأكبر سنًا الذين يدركون تمامًا أن العاصفة قد انتهت، يرون أن شيئًا في داخلهم يدفعهم للتصرف على نحو مختلف.

إن ما حدث في صباح ذلك اليوم المشؤوم قد تسبب في تعطيل منطقة تقدر مساحة الدمار التام فيها بمساحة مدينة شيكاغو.

وفي ممر الإعصار كانت منازل عائدة لأكثر من ٣٥٥ ألف شخص قد دمرت جميعها.

وبالإضافة إلى ذلك فقد أصيب أكثر من ٨٠ ألف مسكن بالضرر الشديد، بحيث لم يعد أي منها صالحًا للسكن فيه، وتضرر نحو ٥٥ ألف منزل آخر بنسبة أقل من ٥٠٪، على نحو يمكن عَدّه مناسبًا للسكن.

لا أحد يعرف كم كانت سرعة رياح أندرو عندما هبت، فجهاز قياس سرعة الرياح في المركز الوطني للأعاصير الشديدة في كورال غيبلس Coral Gables (الذي نجا بأعجوبة من مركز الإعصار) قد تحطم مؤشره تمامًا.

وبشكل رسمي، فإن الراصدين يقدرون لأندرو رياحًا ثابتة سرعتها ١٤٥ ميلاً في الساعة، مع رياح دورانية بسرعة ١٧٥ ميلاً في الساعة، ويعتقد بعضهم أن الرياح العالية فيه قد وصلت سرعتها إلى أكثر من ٢٠٠ ميل في الساعة في بعض المناطق.

ما لا مجال للشك فيه، أن إعصار أندرو يعدّ واحدًا من أكبر الكوارث الطبيعية المدمرة التي أصابت الولايات المتحدة الأمريكية في هذا القرن.

أندرو: الشبح الذي تراقص في سماء فلوريدا

إن إعصار أندرو ابتدأ في اليوم الثالث عشر من آب/أغسطس سلسلة من العواصف الماطرة فوق غرب إفريقية، وتحرك عبر المحيط الأطلسي كموجة ماطرة ذات ضغط منخفض.

ومع حلول يوم الاثنين ١٧ آب/ أغسطس تضاعف هذا الإعصار واشتدّ عوده، ليتحول إلى عاصفة مدارية مطورًا إعصارًا دورانيًا مركزيًا.

في اليوم التالي بدأ أندرو يسبب بعض المشكلات المناخية، فعين الإعصار المتطورة شكلت ما يشبه المدخنة، حيث كان الهواء الدافئ والرطب قرب سطح البحر يدور على جوانب هذه المدخنة، ويندفع بسرعة نحو الأعلى حتى يصل إلى الارتفاعات التي تتكاثف عندها الرطوبة وتتحرر القدرة الحرارية الهائلة للإعصار.

ولكن تلك الريح القوية العالية المستوى فوق المحيط الأطلسي شدّت مدخنة أندرو المركزية ومنعتها من المحافظة على ثباتها.

بعد ذلك بدأ أندرو بالانحراف شمالاً بشكل ضعيف وغير منتظم باتجاه المحيط المفتوح.

وفي يوم الجمعة بدأ مقص الرياح بالتناقص على بعد ألف ميل من فلوريدا في الوقت الذي بدأت فيه موجة هائلة ذات ضغط مرتفع تشتد في الشمال دافعة أندرو إلى الخلف باتجاه الغرب.

وأمام هذه المعطيات والنتائج توجه معظم سكان جنوب فلوريدا إلى أسرّتهم مساء يوم الجمعة وهم يحلمون بعطلة هادئة.

ومع ساعات الصباح الأولى من يوم الأحد الموافق للثالث والعشرين من آب/أغسطس تزايدت سرعة أندرو إلى أكثر من ١٥٠ ميل في الساعة، وبدأ بالاقتراب رويدًا رويدًا من جنوب فلوريدا.

في مساء ذلك الأحد هبّ أندرو على مناطق في شمال الباهاما، حيث تسبب في وفاة أربعة أشخاص فقط، ثم تناقصت سرعته قليلاً إلى ١٤٠ ميل في الساعة.

وعندما وصل أندرو إلى فلوريدا تسبب - ولسوء الحظ - في وفاة ٤٣ شخصًا فقط على الرغم من الإجراءات الاحتياطية اللازمة التي



العاصفة لم تترك قاربًا على المرفأ إلا حطمته

اتخذها المواطنون للاحتماء من غضبه بعد الإنذار المبكر بقدومه.

ولكن هذا لم يمنع أندرو في أي حال من الأحوال أن يصيب المدينة بخسائر اقتصادية كبيرة تقدر قيمتها بنحو ٣٠ مليار دولار، حتى إن سكان منطقة جنوب دادي وجدوا أنفسهم بعد العاصفة تحت أشعة الشمس بلا حول ولا قوة ولا ماء، أو غذاء، أو شيء من تلك الكمية الوافرة من الخدمات التي اعتادوا الحصول عليها.

مئات السيارات تحطمت، أو أصيبت بأضرار، أو قلبت رأسًا على عقب في أثناء هبوب العاصفة، أما الأشجار فقد وقعت، وتجردت كلّها من أوراقها وأغصانها.

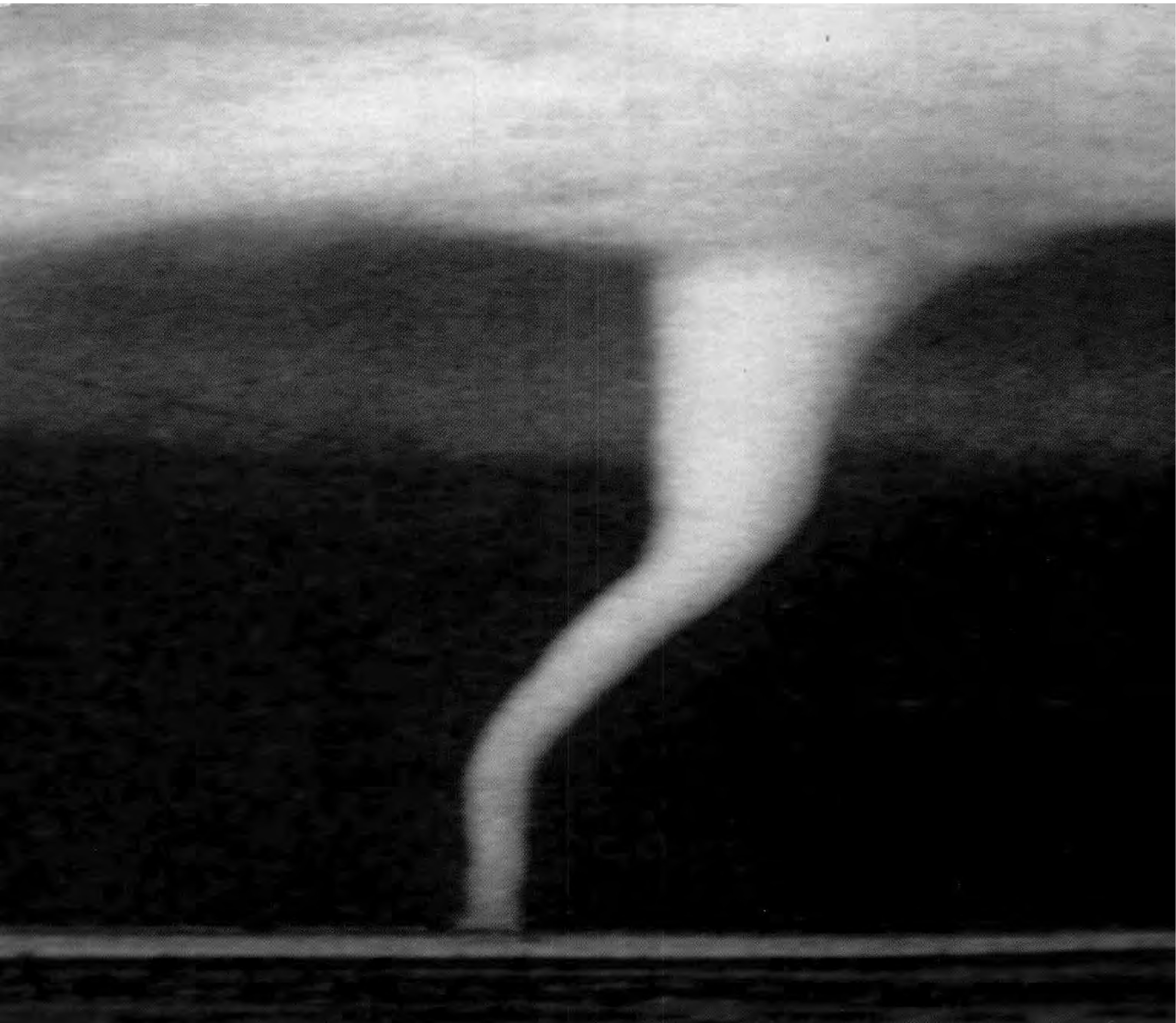
لم يهدأ أندرو بعد اجتياحه فلوريدا، فقد اجتاح بعد يومين ساحل لويزيانا وأودى بحياة خمسة عشر شخصًا، وتسبب بأضرار جسيمة قدرت قيمتها بما يزيد على ملياري دولار.

في الواقع، كان لأندرو حكايات مختلفة مع كل فرد من سكان المنطقة والمناطق الأخرى التي قام بزيارتها خلال رحلته الطويلة تلك.

ومن جانب آخر، فإن المشكلات الكبيرة التي سببها أندرو لم تكن كلها إنسانية أو اقتصادية فحسب، فالحيوانات عانت أيضًا وبشدة من الشبح، إذ ماتت مئات من الخيول، وجرح الكثير غيرها من الحطام المتطاير، بينما انتشرت في المنطقة شائعات تقول: إن



خلال لحظات تبخر كل شيء في الهواء



حيـوانات التجـارب في مـراكـز الأبـحـاث المجاورة قـد هربت من معـاقلها، حيث تحدثت الروايات عن وجود أسود وقـرود متوحشة، وأفاع سامة تدور في الشوارع والطرقات.

ولكن المسؤولين عن هذه المراكز أكدوا لوسائل الإعلام أنهـا مجـرد شائعات ليس لهـا أساس من الصحة، فتلك الحيـوانات بقيت مسـجونـة في أقفـاصها، والـكثير منها قـتل في سجنه، ولم يستطع النجاة.

أمـا المسؤولون عـن حديقـة الحيـوان الكبيـرة في المنطقـة، فقـد صدمـوا عندما عرفوا أن العاصفـة قد حطمت أقفـاص طيورها، وأن أكثر من ٣٠٠ طائر نادر قـد اختفى، كـما وجـدوا أن دبب الكـوالا الثلاثة التي كـانت تعيش في أقفـاص ذات تهوية خاصة، تحتاج الآن إلى عناية سريعة وفائقة، وهي من الأنواع المهددة بالانقراض.

الأعاصير القِمْعِيَّة

تنشـأ العواصف الدوارة المسـماة بالتورنـادو على البر، وتـتحول خلال فترة قصيرة جداً إلى أشد العواصف، حيث تصل سرعة الرياح فيها أحيانًا إلى أكثر من ٢٥٠ ميلاً في الساعة.

وتتميز هذه العواصف بظهور قِمْعٍ طويل وضيق يبلغ ارتفاعه من ١٠٠-١٥٠٠ متر وعرضـه عدة مئات من الأمتار، ويصطبغ هذا القمع أحيانًا بلون رمادي أو أسود بتأثير التراب الذي يثيره، ويميز اقترابه عادة بصفير شاذ، كلما اقترب أكثر فأكثر، حتى توشك أن تصاب بالصمم.

وفي جميع الأحوال، فإن الأعاصير القمعية الربيعية منها والصيفية تتّسم بأنها شديدة ومخيفة وضاربة وغريبة أحيانًا.

رحلة الإعصار القِمْعِيَ المرعبة

يتكون الإعصار القمعي أوالتورنادو على البر من طرف العاصمة الرعدية أو الممطرة التي تدعى بالخلية العملاقة (SUPERCELL).

وكغيرها من الأعاصير الممطرة، فإن الخلية العمـلاقة تنشأ من هواء رطب وحار في منطقة ريفية محيطة، وتندفع عاليًا عبر تيار

الأعاصير: الشبح الهائم!

توتو مكتشف الأعاصير القمعية



هوائي صاعد.

يتكاثف بخار الماء في هذا التيار الحار الصاعد ويتحول إلى قطرات من المطر عندما يقابل كتلة متقدمة من الهواء الجاف والبارد على بعد نصف ميل أو ميل فوق سطح الأرض، ويتحول إلى تيار هوائي هابط وبارد.

في العواصف الاعتيادية يتمكن الهواء البارد من تدبير مكان لنفسه تحت الهواء الساخن، ولكن اندفاع الهواء الساخن الشديد في تلك الخلية العملاقة يحول دون هبوط الهواء البارد. وسرعان ما ينفصل الهواء الصاعد عن النازل ليجابه الواحد منهما الآخر، كخصمين لدودين في ساحة المعركة.

ولكي يبدأ التيار الهوائي الصاعد بالدوران، فإن الغلاف الجوي المحيط بالعاصفة يجب أن يحتوي على رياح قوية متغيرة في السرعة والاتجاه تشكل ما يشبه المقص. وعندما يكون هذا المقص من الرياح موجودًا، فإن رياحًا قوية مرتفعة المستوى تسبب رياحًا أضعف منها تهب وتتدحرج في مستوى أفقي.

وبينما يرتفع الهواء في التيار الهوائي الصاعد، فإن تلك الحزمة من الرياح ترتفع نحو الأعلى مسببة دوران العاصفة حول محور شاقولي.

وعندما يدور التيار الهوائي الصاعد بشكل سريع، فإنه يأخذ شكلاً أسطوانيًا غريبًا، حيث يضيق ويتكاثف كلما ارتفع إلى الأعلى.

الغريب في الأمر أن هذا العمود الهوائي قد يرتفع إلى أكثر من (٦٠) ألف قدم عن سطح الأرض دون أن يشكل إعصارًا قمعيًا، على الرغم من أنه يتمتع بالشروط اللازمة لأي إعصار قمعي مدمر.

وهذا ما يؤكده بوب دايفيس جونز B.D. Jones من المختبر الوطني للأعاصير الشديدة، إذ يقول:

ـ نصف عدد هذه الدوامات الهوائية فقط يسبب العواصف القمعية المدمرة. ونحن لم نستطع حتى الآن التوصل إلى الإجابة

الصحيحة عن ذلك السؤال المحيّر: لماذا يشكل أحدها إعصاراً قمعيًا والآخر لا؟

ولكن، ما الذي يمنح الإعصار القمعي المتطور ذلك الدوران الهائل في اللحظة الأخيرة؟! للإجابة عن هذا السؤال، قام كل من جوزيف كليمب J. Klemp، وريتشارد روتونو R. Rotuno من المركز الوطني للأبحاث الجوية في بولدر BOULDER بولاية كولورادو COLORADO باستخدام جهاز حاسوب (كمبيوتر) عملاق لتحضير نموذج غريب يشبه تمامًا دوامة الإعصار القمعي، اعتمادًا على التقارير المقدمة من فرقة مطاردي الأعاصير القمعية، التي تؤكد أن الإعصار القمعي لا يحدث عادة قبل أن يظهر تيار هوائي هابط في الجهة الخلفية من العاصفة.

لقد توصل هذان العالمان إلى أن التيار الهوائي الهابط يتم جذبه باتجاه الأرض عن طريق ارتفاع مفاجئ في دوران الرياح السطحية للأرض.

أما ما الذي يسبب هذا الدوران المضاعف؟ فيرى الباحثان أنه يأتي عن طريق الرياح التي تهب داخل العاصفة نفسها عبر المنطقة الفاصلة بين الهواء البارد والساخن.

الأعاصير الاستوائية

على العكس من التورنادو تبدأ الهوريكان التي تعرف أيضًا بالنكباء فوق سطح البحر في مكان على امتداد الشريط الاستوائي الطويل، حيث تعرف باسم التيفون في منطقة البحر الصيني والسيكلون في منطقة المحيط الهندي، وتاي فونغ في الصين، وباغويو في الفلبين، وريبو في اليابان، وولي ويلز في أستراليا والمناطق المحيطة بها.

وتبدأ هذه العواصف القمعية الدوارة جميعًا في الظروف نفسها، وإن اختلفت مسمياتها، فأشعة الشمس الحارة تسخّن بشدة أعمدة الهواء فوق سطح البحر الدافئ ليرتفع الهواء الساخن المتجمع إلى أعلى فأعلى، حتى تتكون كتلة ضخمة ذات ضغط منخفض سرعان ما تصطدم بكتلة هواء ذات ضغط مرتفع مما يؤدي إلى تكاثف بخار الماء وهطول المطر.

ويزداد الموقف سوءاً باندفاع المزيد من التيارات الهوائية الحارة نحو الأعلى بسرعة جنونية مشكلة إعصاراً حلزونيًا يلهب أمواج البحر برياحه، وسيوله، وبرقه، ورعده، ويحطم كل شيء يجرؤ على الوقوف في وجهه أو اعتراضه.

يتحرك الإعصار بسرعة بطيئة تراوح بين عشرة أميال وأربعين ميلاً في الساعة باتجاه الشاطئ والمناطق الداخلية حاملاً معه رياحًا دوارة تراوح سرعتها بين ٧٥-١٥٠ ميلاً أو أكثر في الساعة.

وعلى الرغم من أن منطقة العمليات في العاصفة القمعية الاستوائية لا تتجاوز في البداية عشرة الأميال فقط، فإنها، بعد عدة أيام، تتسع لتزيد على عدة مئات من الأميال، حيث تعمل العين (وهي القوة الضاربة في الإعصار) على رفع ما يزيد على بليوني طن من الماء كل يوم لتسكبها مجدداً فوق المدن والقرى التي تعترض طريقها خلال حركتها العشوائية المستمرة فوق سطح الأرض.

ومن الممكن أن تقطع الهوريكان عدة آلاف من الأميال خلال أسبوع أو أسبوعين قبل أن تهدأ رياحها العاصفة، وتتبدد طاقاتها العظيمة، وتنتهي آخر الأمر، كما بدأت بهدوء في مكان ما بعيد على وجه الأرض.

ويذكر أن الطاقة المتفجرة عن الإعصار الاستوائي تزيد على ٣٠٠ كيلو طن في الدقيقة، أما القنبلة التي ألقيت على مدينة هيروشيما، فكانت لا تزيد على ٢٠ كيلو طن في الدقيقة.

وهذا يبين إلى حد كبير الخطر الحقيقي الذي تتعرض له المناطق الواقعة تحت سيطرة هذه الأعاصير الرهيبة (التي أردت في ٩٣ حادثة فقط أكثر من ٤٠٠ ألف قتيل، معظمهم من بنغلاديش).

مكتشف الأعاصير القمعية (توتو)

إن معظم المعلومات التي تم التوصل إليها خلال السنوات الأخيرة الماضية عن الأعاصير القمعية، كانت عن طريق العلماء والباحثين العاملين في المختبر الوطني للأعاصير الشديدة National Severe Storms Laboratory الذي يقع في قلب المنطقة التي تسلكها الأعاصير القمعية عادة في نورمان بولاية أوكلاهوما.

فمنذ عام ١٩٧٢م درج هؤلاء الباحثون بالتعاون مع زملائهم من جامعة أوكلاهوما على التوجه بعرباتهم خلال فصل الربيع إلى قلب الأعاصير القمعية التي تهب في مثل هذا الوقت من كل عام تقريبًا لجمع المعلومات اللازمة عنها التي لا يمكن توافرها في أي مكان آخر على سطح الأرض.

كان من ضمن أهدافهم وضع برميل من المعدات والأجهزة الدقيقة يزن نحو ٤٠٠ رطلاً في طريق الإعصار القمعي.

وقد أوكلت لهذا البرميل الذي قاموا بتحصينه على نحو ممتاز، وأطلقوا عليه اسم توتو (أو مكتشف الأعاصير القمعية) Tornado Observatory, Toto مهمة جمع القراءات اللازمة، وقياس درجة الحرارة، وسرعة الرياح واتجاهها، والضغط الجوي في قلب العاصفة القمعية.

وقد توصل فريق المختبر الوطني للعواصف الشديدة خلال تجاربهم ومطاردتهم للأعاصير القمعية، إلى أن الإعصار القمعي يظهر عادة في الجانب الخلفي غير الماطر للأعاصير الشديدة التي تتحرك بشكل نظامي من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي.

أعاصير كهذه تنحدر من جدار الغيوم التي تبقى معلقة، كأنها دولاب أفقي عظيم الحجم من الحوض المتسع للعاصفة.

هذا الجدار ذو نصف الميل عرضًا وستة الأميال طولاً هو جزء من دوامة أسطوانية هوائية ضخمة تدعى الدوامة الوسطى Mes-cocyclone، وهي المصدر الحقيقي لقوّة الإعصار التدميرية.

ولعل أصعب ما يمكن وصفه أو تخيله أن يلاحق الفريق إعصاراً سريع الحركة ينتقل بعشوائية ضمن المجال الذي تغطيه عربات المختبر والذي يمتد إلى أكثر من ٢٠٠ ميل.

إذ يجب على هؤلاء المطارَدين أن يتوقعوا قبل عدة ساعات



يتقدم ببطء مدمّرًا في طريقه كل شيء



أندرو اقتلع حائط المبنى وقتل ٦٥ شخصًا على الأقل

اللحظة التي سيظهر فيها الإعصار والطريق الذي يسلكه، والمناطق التي سيلامس فيها بشدة الأرض لتجنبها.

كل هذا يزيد من المتعة عندما ينجح فريق العمل في اصطياد واحد من هذه الأعاصير، أو بعبارة أخرى عندما يصطادهم الإعصار نفسه.

وللوصول إلى هذه الغاية الصعبة، كان على علماء المركز الوطني للتوقع بالأعاصير الشديدة أن يبقوا أعينهم مفتوحة دائمًا ومركزة على نظام (الكمبيوتر) الخاص المعروف بنظام معلومات العواصف المركزي csis الذي يقوم بجمع المعلومات القادمة من الأقمار الصناعية والبالونات وأجهزة الرادار، ومئات النشرات من محطات الرصد الجوية، وترتيبها، ودمجها، وعرضها عبر شاشات خاصة.

ولكن الأمر في الواقع ليس بالسهولة التي نتصورها، فعلى الرغم من الإمكانات التقانية (التكنولوجية) كافة، والتقنيات العلمية والمخططات البيانية المتوافرة حاليًا، فإن اتّخاذ القرار لإصدار نشرة جوية حول وجود إعصار قمعي يرجع في النهاية إلى عامل شخصي. وتبرز أهمية الوقت، عندما لا تعبر الأرقام والمعطيات بشكل كاف عن الحالة الجوية الحقيقية التي تسود فوق المنطقة، ويأتي دورك في إصدار الحكم المناسب.

وفي كل الأحوال، ينصح علماء الأرصاد الجوية بمجموعة من التدابير الاحتياطية التي يجب اتخاذها عند هبوب العاصفة للتخفيف من حجم الخسائر الاقتصادية والبشرية التي يمكن أن تنتج من هذه الكارثة.

وهذه التدابير يمكن حصرها بالابتعاد عن الطرق المكشوفة، وأعمدة الكهرباء أو الهاتف، والتوجه فورًا إلى أفضل مكان يمكن الوثوق به في البيت كالأقبية والملاجئ، إذ يفضل وجود أكبر عدد ممكن من الجدران بين العائلة والخارج.

وعلاوة على ذلك لا ينصح بفتح النوافذ من أجل حماية البيت من الانفجار - كما يعتقد العامة -، لأن المنازل فيها من الفتحات الطبيعية ما يكفي لحمايتها تمامًا من الانفجار.

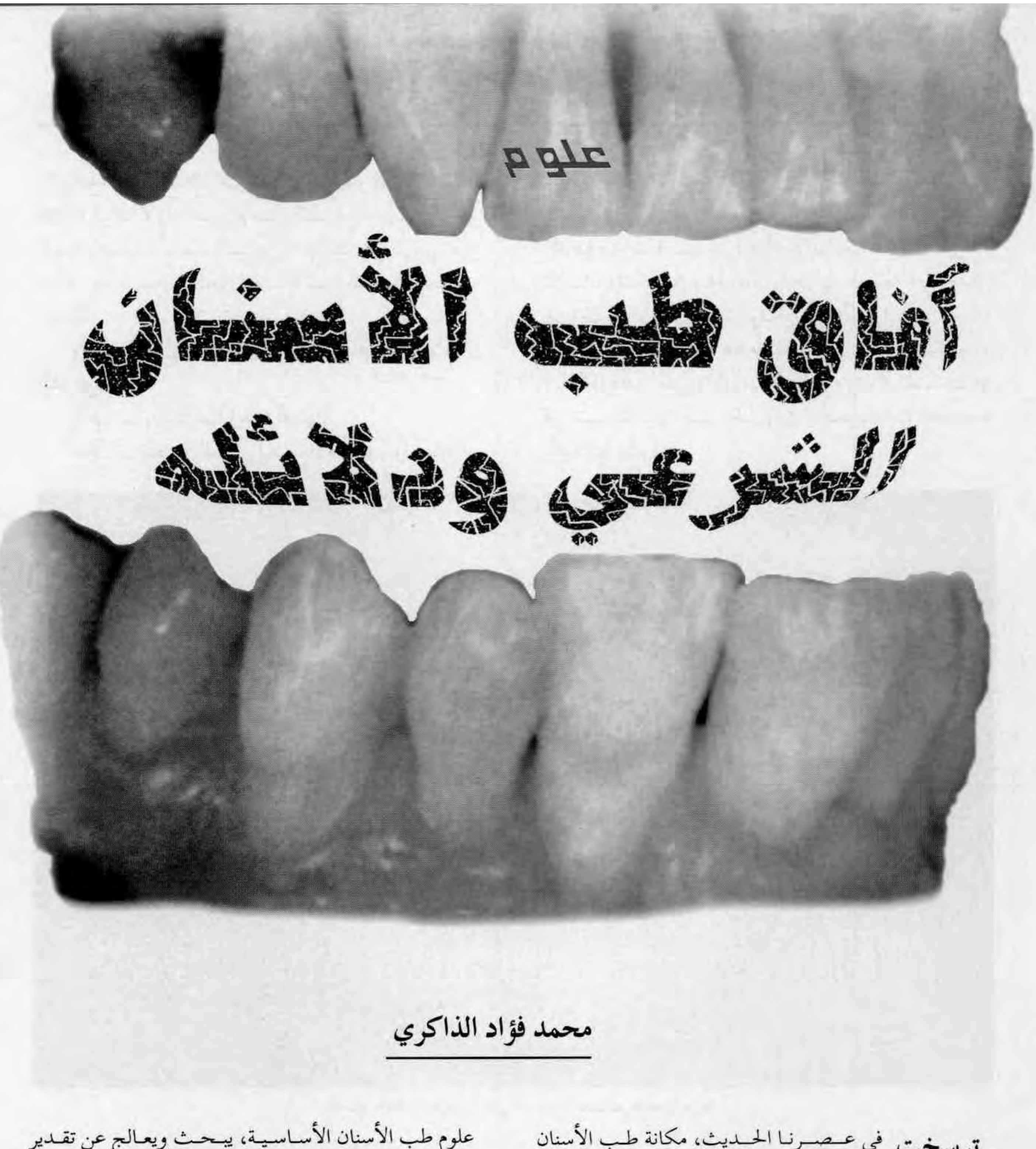
المراجع العربية والأجنبية:

١- أديب أبي ضاهر، الكوارث: الموت الآتي من الأرض والفضاء.
٢- أديث راسكين، العالم من حولنا.
٣- مجلة العلوم الأمريكية (المجلد ١١، العدد١٢، كانون الأول ١٩٩٥م).
4 - Andrew Aftermath (National Geographic Magazine, April 1993).
5- Tornado (National Geographic Magazine, August 1994).
6- In Disaster's Wake (TIME, May 1991).

جميع الصور والسلايدات من مجلة: National Geographic ومجلة TIME.

علوم

آفاق طب الأسنان الشرعي ودلائله



محمد فؤاد الذاكري

ترسخت في عصرنا الحديث، مكانة طب الأسنان الشرعي (FORENSIC DENTISTRY) وأضحى فنًا قائمًا بذاته، وتمكن بالتضافر والتعاون مع الطبابة الشرعية MEDICAL JURISPRU DENCE، ومختلف الاختصاصات الطبية الأخرى، من كشف بعض الحوادث الجنائية، وحلِّ القضايا الطبية العدلية، التي يرجع الفَضلُ في كشف ألغازها إلى علامات ودلائل تتعلق بالفم والفكين والأسنان، وكذلك في بعضِ الحالات الجنائية الجرمية ذات المظاهر الفموية المشتركة.

وطب الأسنان الشرعي: هو المظهر العلمي لمجموعة علوم طب الأسنان الأساسية، يبحث ويعالج عن تقدير صحيح وملائم للأدلة السنية وتدبير توظيفها وملاءمتها، لإظهار نتائج التحقيق القضائي المطلوب، وبتعبيرٍ آخر: إنه العلم الذي يُعنى بعلاقة طبيب الأسنان بالقانون والشريعة، وهو فرع من المعرفة المتعددة الأبحاث لإظهار حقائق قانونية بالدلائل والوسائل المعتمدة على طبابة الأسنان.

بدأ طبُ الأسنان الشرعي يأخذ دورهُ في التطبيق العملي، في أوربا، منذ منتصف الثلاثينيات من القرن الحالي، وبدأت العلاقات التعاونية بين أطباء الأسنان ورجال القانون تتوطَّد وتترسَّخ بدرجة عالية، وخاصة في البلدان

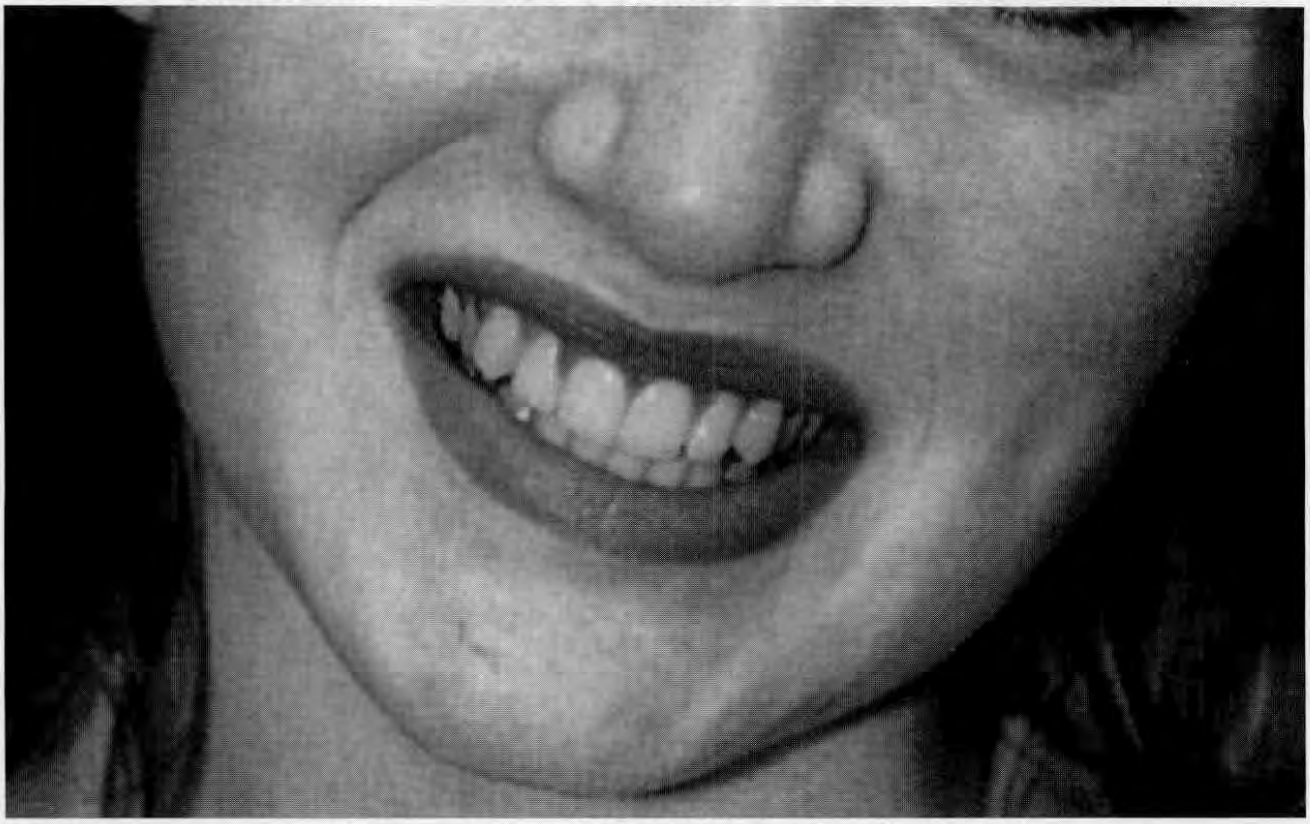
الإسكندنافية، ويعد الدكتور أوسكار أميدو OSKAR AM-EODO الرائد الأول لطب الأسنان الشرعي، حيث قدم في كتابه «طب الأسنان الشرعي» الصادر في باريس عام ١٨٩٨م، الوصف الكامل لطب الأسنان الشرعي وتطبيقاته العملية.

ويَبرُز السؤال: لماذا كان هذا الاهتمام بطب الأسنان الشرعي؟؟

والجواب يعتمدُ أسبابًا عدة أهمها:

أولاً: أن التطبيق العملي لطب الأسنان، يُعوَّل عليه في

لدرجة يَندُر مَعَها وجود تطابق في صفات الأسنان لدى شخصين مختلفين، كما تتأثر الأسنان بالعوامل البيئية المحيطة فترات قصيرة من الحياة الإنسانية، بالإضافة إلى أن الأسنان والفكين ضعيفةُ التأثُّر بالتغيرات العميقة التي تحصل في الجسم الإنساني بعد الوفاة، ومن المعروف أن الأسنان تقاوم التفسُّخ والحرارة العالية وتأثير المواد الكيماوية، ويصدُق ذلك على (الأسنان الصناعية) والمواد المستخدمة في طب الأسنان، مثل الحشوات والتعويضات الصناعية بأشكالها المتنوعة.



الأسنان والفكان العلوي والسفلي أجزاء تتميز بخصائص شخصية مفردة

التحقيقات القضائية والاستشارات القانونية، وله اعتبارات مختلفة عن التطبيق العملي لطب الأسنان العادي.

ثانيًا: أن التقارير والتصاريح الطبية الصادرة عن طبيب الأسنان الشرعي لها أهمية قصوى في مختلف دوائر التحقيق القضائي، حيث تُستخلص منها الأحكام في مجال القضاء والتحقيق الجنائي.

من المعروف أن الأسنان والفكين العلوي والسفلي، أجزاء من الجسم الإنساني تتميز بخصائص شخصية مُفردة في التطور التشكُّلي morphology والمَرضي pathology، كما تُبدي الأسنان اختلافات كبيرة بين شخص وآخر،

التطبيق العملي لطب الأسنان الشرعي

أولاً: فحص الأذيّات والعاهات الواقعة على الأسنان والفكين، والأنسجة الفموية باختلاف أسباب الإصابة، التي قد تمتد من الحوادث الجنائية، إلى حوادث المرور التي تتميز بازدياد عدد الإصابات، وتقدير العطل والضرر من جرائها.

ثانيًا: فحص آثار عَضّات الأسنان وما تتركه من علامات bite marks، بغية تأكيد أو نفي شخصية المشتبه به suspect بأنه هو المذنب أو غيره. وقد ذكرت إدارة المباحث الجنائية الأمريكية (F.B.I) حادثةً أمكن فيها كشف

هوية السارق بآثار أسنانه، فقد قام لص بسرقة بقالية، لكنه شعر بالجوع، فعَضَّ على لوح من الجُبن، وعند اقتياده للتحقيق معه، ضمنَ الأشخاص المشتبه بهم، أصرَّ على الإنكار، ولدى مواجهته بالمثال الجبسي لأسنانه الأمامية، الذي صُنع من آثار عضته في لوح الجبن، اعترفَ اللص بعملية السرقة.

ثالثًا: فن تعيين الهوية أو تحقيق الشخصية بالمدلولات والأدلة السنية، كما حصل في كثير من الحوادث والكوارث الشديدة، فقد تضيعُ وتتشوهُ معالمُ الضحايا لدرجة كبيرة، بحيث يتعذرُ تعيين هوية الجثث إلا بالاستعانة بصفات أسنان الموتى، بمطابقتها على الأوصاف التي سجلها أطباء الأسنان في سجلاتهم DENTAL DATA، ويعود الفضلُ في ذلك إلى المعالجات السنية التي يجريها طبيبُ الأسنان، أو بصناعة بعض الأجهزة الصناعية الثابتة والمتحركة الفموية، أو ما يطلق عليه «طقم الأسنان».

ولتقدير أهمية الأسنان في تعيين الهوية DENTAL IDENTIFICATION نورد بعض الحوادث التاريخية المهمة، التي تم فيها بطريقة إيجابية كَشفُ (مجهولي الهوية من الأموات) بالاعتماد على المعلومات السنيّة DENTAL FINDINGS وحدها.

الحادثة الأولى

في عام (١٩٠٩م)، شبَّ حريق كبير بشكل مفاجئ في مبنى القنصلية الألمانية، في مدينة سانتياغو عاصمة تشيلي، وبعد إطفاء الحريق، وجدَ رجالُ التحقيق القضائي شخصًا قتيلاً في غرفة القنصل، بالإضافة إلى أن جميع الأوراق والمستندات والأموال التي كانت في مبنى القنصلية قد سُرقت، وتبيَّن في التحقيق بأن القتيل قد تلقى ضربات قوية مميتة على رأسه، وأُحرقت ملامح وجهه بصورة متعمدة قبل الحريق، وقد اعتُقد في البدء بأنها جثة القنصل، وقد تم الاستدلال عليه من خلال الكنزة الصوفية التي يلبسها والخاتم الذهبي في أصبعه. وسرعان ما أشارت أصابع الاتهام إلى حاجب القنصلية، على أنه الفاعل لاختفائه بعدَ الحادث مباشرة.

ولكن طبيب الأسنان الدكتور فالنزويلا VA-LENZUELA ساورته الشكوك في نتيجة التحقيق، ولدى فحص الجثة، صرح بأن القتيل ليس القنصل الألماني بل هو الحاجب، وأن القاتل هو القنصل، وهو الذي دَبَّر الحريق المفتعل وسرقَ المستندات والأموال، وقد استند في تحقيقاته إلى أن القتيل يتمتعُ بأسنان كاملة وصحيحة، في حين أن القنصل الذي يتجاوز عمره الخمسين عامًا، لابد أن يكون قد قامَ بقلع بعض أسنانه أو معالجتها، وتأيَّد ذلك بسؤال زوجة القنصل وطبيب أسنانه الخاص، وبمزيد من التفتيش والبحث، ألقي القبضُ على القنصل المختفي الذي كان يحاولُ اجتياز الحدود سرًا إلى الأرجنتين المجاورة، ونتيجةً لذلك سحبت الحكومة التشيلية اعتذارها الرسمي الذي قدمته للحكومة الألمانية بعدالحادث، كوفئ الدكتور (فالنزويلا) على تحقيقه البارع من قبل رئيس الجمهورية آنذاك.

الحادثة الثانية

بعد انتهاءالحرب العالمية الثانية (أيار/مايو ١٩٤٥م)، بدأت التساؤلات والشكوك تدور حول حقيقة انتحار هتلر والعثور على جثته، وقد قام فريق من الخبراء السوفييت بالبحث والتفتيش في حديقة دار المستشارية ببرلين، وهو المقر الأخير الذي كان يتحصنُ به هتلر، فتم العثور على بقايا جثتين محترقتين، غير واضحتي المعالم، مدفونتين تحت طبقة رقيقة من التراب، وأمر القائد الروسي بإجراء فحص أسنان الجثتين، فتم إحضارُ كاتي هوسرمان KATHE HEUSERMAN، والشاب فرايتزا ختمان FRITZ ECHT-MAN، وهذان الاثنان كانا يعملان مساعدين للدكتور هوغو بلاشكه HUGO BLACHKE طبيب أسنان هتلر الخاص. وعرض عليهما الفك السفلي لهتلر والجسور الصناعية المصنوعة له، فعرفاها فورًا، وكان من السهل معرفة العمل الذي قاما بصنعه مع الدكتور (بلاشكه) منذ بضعة أشهر، وهكذا تمَّ كشفُ هوية جثة هتلر وصديقته إيفا براون، بالاعتماد على المعلومات السنيةَ.

وفي الختام، لقد ساعد طب الأسنان الشرعي في حل كثير من القضايا الجنائية العدلية بدلائله المتوافرة، التي لولاها لما ظهرت الحقيقة، ولبقيت غامضة، وإن وضع طب الأسنان الشرعي بإمكاناته هو خدمة علمية اجتماعية، يساعدُ فنَّ الطب الشرعي العام في أداء واجباته في التحقيق لإظهار الحق وخدمة العدالة.

المصادر والمراجع :

1- AMOEDO, O. L'ART DENTAIRE EN MEDICINE LEGALE, MASSON & CIE, PARIS1898.
2- GUSTAFSON, G. FORENSIC ODONTOLOGY. AMERICAN EISEVIER PUBLISHING COMPANY, INC., NEW YORK 1966.
3- S. KEISER - NIELSEN, TEETH THAT TOLD, ODENSE UNIVERSITY PRESS, 1992.



النبات وحماية البيئة من التلوث

محمد غسان سلوم

يزداد تلوث البيئة يومًا بعد يوم في عصرنا الحاضر مع زيادة عدد سكان الكرة الأرضية، وحاليًا توجد عدة مشكلات مهمة تنضوي تحت تلوث البيئة نذكر منها:

التلوث الكيماوي والحيوي للفضاء والمياه، ومشكلات الجفاف والتصحر، وتراجع الغابات والقضاء على النباتات، وخطر المبيدات الكيماوية على الأحياء، وخطر التفجيرات النووية والتجارب الذرية، وازدياد المواد المشعة في الفضاء، ومشكلات بيئية أخرى تظهر بما كسبت أيدي الناس من فساد الطبيعة، يقول تعالى: *ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كَسَبَتْ أيدي الناسِ لِيُذيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا لعلهم يَرجِعونَ*. **الروم**:٤١.

وبعبارة أخرى: إن تلوث البيئة يعني فسادًا في الطبيعة بما أحدثه الإنسان، وهو خطر يهدد البشرية في عصرنا الحاضر والمستقبل.

يمكن تصنيف تلوثات البيئة من حيث المسبب لها:

- ملوثات حيوية (بيولوجية): BIOLOGICAL POLLUTANTS كالتلوث بالجراثيم والفيروسات.
- ملوثات كيماوية: CHEMICAL POLLUTANTS كالتلوث بالمبيدات والغازات السامة والمركبات الكيماوية.
- ملوثات فيزيائية: PHYSICAL POLLUTANTS كالتلوث بالمواد المشعة والتلوث الحراري وغيرهما.

مكونات البيئة

هذه المكونات هي جميع العوامل الطبيعية والحيوية التي توجد على سطح الأرض وبداخلها، فالهواء والماء والضوء والحرارة والتربة، بالإضافة إلى النبات والحيوان والإنسان تشكل مكونات البيئة، وهذه المكونات يعتمد بعضها على بعض، فالنباتات الخضراء تضع المواد العضوية المختلفة بواسطة التركيب الضوئي PHOTOSYNTHSIS، والحيوان يعتمد في غذائه على النبات، والإنسان يأخذ غذاءه من النبات والحيوان.

تنتقل العناصر الأساسية والمواد العضوية من كائن إلى آخر عبر السلسلة الغذائية من التربة إلى النبات ثم الحيوان فالإنسان، وهذه العناصر والأحياء مسخرة لخدمة الإنسان.

يقول الله تعالى: *وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرضِ جميعًا منه. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون*. **الجاثية**:١٣.

وقوله تعالى: *هو الذي خَلَقَ لكم ما في الأرض جميعًا*. **البقرة**:٢٩.

تقوم النباتات الخضراء بأخذ الطاقة الشمسية لبناء جسمها والقيام بالعمليات الحيوية خلال حياتها وتستهلك ٩٠٪ من الطاقة، أما ١٠٪ من الطاقة فيبقى على شكل مواد عضوية في أعضائها (طاقة كيماوية)، وهذا الجزء من الطاقة ينتقل بين مستويات السلسلة الغذائية كافة، ولولا النبات الأخضر لما كانت حياة على سطح الأرض.

يقول تعالى: *أوَلَم يرَوا إلى الأرض كم أنبتْنا فيها من كل زوجٍ كريم*.



المخلفات الصلبة كبقايا الحديد والألمنيوم أهم مصادر التلوث

إنَّ في ذلك لآيةً وما كانَ أكثرُهُم مؤمنين. **الشعراء**: ٧ ـ ٨.

وقوله تعالى: *وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كل شيء.. إن في ذلكُم لآيات لقوم يؤمنون*. **الأنعام**: ٩٩.

فالنبات الأخضر يعدّ في النظام البيئي هو المنتج الأول الذي يصنع الغذاء، ويحول الطاقة الشمسية إلى طاقة كيماوية تنتقل عبر السلسلة الغذائية من النبات إلى الحيوان ثم إلى الإنسان.

ملوثات الهواء AIR POLLUTANTS

هذه الملوثات هي مواد غازية أو سائلة أو صلبة، أو جراثيم أو مركبات كيماوية كالمبيدات، أو غبار معدني أو مواد مشعة وغيرها؛ هذه المواد تدخل في الهواء النظيف فيصبح الهواء ملوثًا له تأثيرات سلبية في الإنسان وباقي الأحياء الأخرى. ويمكن أن نختصر من هذه الملوثات ما يلي:

ـ غاز ثاني أوكسيد الكربون CO_2: وهو من الغازات السامة والضارة بالبيئة وصحة الإنسان. يسبب هذا الغاز الاختناق للإنسان بسبب اتحاده مع هيموغلوبين الدم، ويمنع وصول الأوكسيجين إلى الدماغ والقلب مما يسبب الإغماء أو الاختناق والموت.

ـ غاز ثاني أوكسيد الكبريت SO_2: يوجد هذا الغاز في الهواء المجاور للمناطق الصناعية التي تطلق هذا الغاز، ويشكل في الهواء ما يسمى بالضباب الدخاني، وهو سام جداً بالنسبة إلى النبات حتى لو وجد بكميات قليلة في الهواء (أجزاء بالمليون P.P.M)؛ لذا نجد أن الأراضي المجاورة للمصانع التي تطلق كميات كبيرة منه في الهواء الخارجي جرداء تقريبًا من أغلب النباتات، ويشكل غاز SO_2 في الأجواء الرطبة المياه الحامضية (حمض الكبريت) التي تؤدي دورًا كبيرًا في إتلاف حجارة الأبنية وخاصة الأثرية القديمة.

ويلحق غاز ثاني أوكسيد الكبريت ضررًا بصحة الإنسان، فهو يؤثر في التهاب الجهاز التنفسي حيث يتلف الغشاء الداخلي للرئة، وهو المسؤول عن مرض الربو والنزلات الصدرية.

تقوم بعض النباتات بحماية تلوث البيئة من هذا الغاز عن طريق اختيار أنواع نباتية تمتص الغازات السامة، وتشجيرها في المدن كنبات الحور POPULUS ونبات القيقب ACERوغيرها.

ـ أكاسيد الآزوت (NO_2, NO) أول أوكسيد الآزوت وثاني أوكسيد الآزوت:

تنطلق أكاسيد الآزوت من مصانع السماد الآزوتي ومصانع حمض الآزوت. لها تأثيرات سيئة في الجهاز التنفسي تشابه آثار غاز ثاني أوكسيد الكبريت، وهناك غازات أخرى سامة تدخل في تلوث الهواء كغاز كبريت الهيدروجين وغاز النشادر وغاز الفلور وغيرها.

بالإضافة إلى الغازات السامة الملوثة للبيئة، توجد مواد أخرى تلوث الهواء وضارة بالأحياء كالجزئيات الصلبة (مثل غبار الإسمنت والرمل

والجص وأملاح المعادن)، ومنها من أصل نباتي (النشارة وغبار الطلع)، وملوثات أخرى كالجراثيم ومبيدات كيماوية وفحوم هيدروجينية، ومواد مشعة وغيرها.

وسائل الحماية من التلوث

لحماية تلوث الهواء يمكن اتخاذ عدة إجراءات نذكر منها:
- إبعاد المصانع عن المدن.
- زرع أحزمة خضراء من الأشجار حول المصانع وتشجير المدن.
- إعادة تحليل الفضلات بدل انتشارها في الفضاء.
- ترشيد استخدام المبيدات الكيماوية السامة.
- عمل تخطيط علمي مدروس عند إنشاء أي صناعة لحماية البيئة من التلوث.

ملوثات الماء WATER POLLUTANTS

مصادر تلوث الماء كثيرة، منها ما هو طبيعي موجود في الجو والتربة، ومنها التلوث الذي يحدثه الإنسان باستخدام المبيدات الكيماوية والفضلات الصناعية والمواد المشعة وغيرها، ومن أهم الملوثات:
- تلوث جرثومي ناتج من مجاري مياه الفضلات التي تشكل مياهاً ملوثة مملوءة بالجراثيم، وتصبح وسيلة للعدوى وانتشار الأمراض.
- تلوث المياه بالغازات السامة الناتجة من المصانع حيث تسوقها الأمطار إلى الأنهار والبحار، وتشكل مياهاً ملوثة تضر بالأحياء الموجودة في الأنهار والبحيرات (المسطحات المائية).
- تلوث ناتج من الفحوم الهيدروجينية الناتجة من مصافي البترول وناقلات النفط التي تقذف الزيوت المحترقة في البحار، وهذه الزيوت تشكل طبقة عازلة على سطح الماء تمنع من تجدد الأوكسجين في المياه، ومن ثمّ تقضي على الحياة المائية.
- تلوث ناتج من المبيدات والأسمدة الكيماوية التي تنحل بالتربة، وتتسرب مع المياه إلى المسطحات المائية وتلوثها، مما يؤدي إلى نقص في الأحياء البحرية كالأسماك والطحالب الخضراء. تتراكم المواد الكيماوية السامة، وتنتقل عبر الغذاء إلى الإنسان.
- التلوث بالمعادن الثقيلة كالرصاص والزئبق والكادميوم: مع أن تركزها قليل، لكنها شديدة السمية. تنتقل هذه المواد السامة إلى المسطحات المائية بوساطة الأمطار وتشكل خطراً على الأحياء البحرية وعلى الإنسان (عبر الغذاء).
- التلوث الحراري الناتج من المحطات الكهرمائية التي ترمي في البحار والأنهار مياهاً ساخنة لها تأثيرات سيئة في النباتات والأحياء المائية الأخرى.

ملوثات التربة SOIL POLLUTANTS

وهي مركبات ضارة بالأنظمة البيئية في التربة، تنتقل ملوثات التربة الحاوية على العناصر السامة إلى الإنسان عبر السلسلة الغذائية (من التربة إلى النبات ثم إلى الحيوان ثم إلى الإنسان).

ومن هذه الملوثات:
- التلوث بالمخلفات الصلبة الناتجة من نفايات المعامل التي تصل إلى التربة، وتساهم في هدم النظام البيئي.

ومنها مخلفات صلبة نباتية (خشب، ورق) أو حيوانية (عظام، جثث) أو صناعية (بقايا الحديد والألمنيوم والمواد اللدنة «البلاستيكية») وهذه المواد الصناعية غير قابلة للتحلل، ولذا تتراكم في التربة، وتسبب تلوثها.
- التلوث بالمخلفات السائلة، وهي ناتجة من مخلفات مياه المجاري والمصانع ومياه المنظفات الكيماوية والزيوت المعدنية المستعملة وغيرها، تتسرب هذه المخلفات السائلة بواسطة المياه إلى التربة وتلوثها، وتقتل الكائنات الحية فيها، مما يؤدي إلى انخفاض إنتاج الأراضي المزروعة.
- التلوث بالمبيدات والأسمدة الكيماوية التي تتجمع في التربة، وتساهم في تدهور الصفات الكيماوية والفيزيائية للتربة، وتسبب ضرراً بالأحياء الدقيقة في التربة.

وتزداد خطورة المبيدات الكيماوية بسبب بقائها وتراكمها في التربة

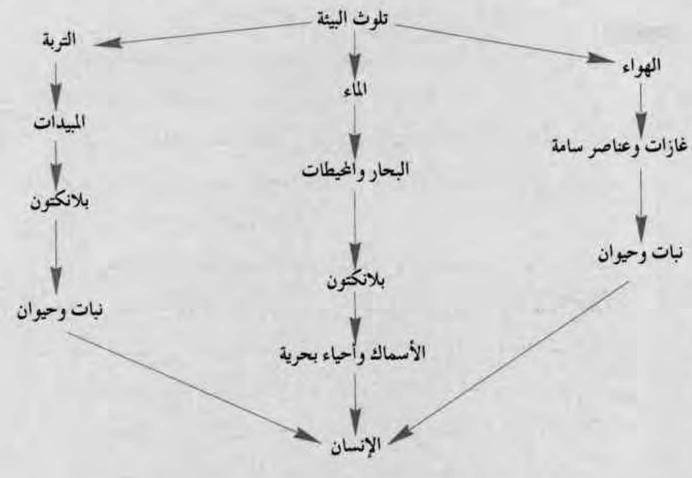


عدة سنوات، وانتقالها إلى النبات ثم إلى الحيوانات (أبقار، أغنام) ثم إلى الإنسان، فتسبب له أضرارًا عضوية (فيزيولوجية) في جسمه.

تستخدم حديثًا المكافحة الحيوية (البيولوجية) BIOLOGICAL CON-TROL بدلاً من المبيدات الكيماوية.

والمكافحة الحيوية مجموعة طرق تستدعي استعمال كائنات حية تخفض نسبة الأضرار التي تسببها كائنات حية أخرى ضارة بالإنسان أو الحيوان أو النبات.

إن مفهوم تلوث البيئة، سواء أكان تلوث الهواء أم الماء أم التربة، مترابط بعضه مع بعض، لا يمكن الفصل بين أنواع التلوث، لأن ما يكون تلوثًا هوائيًا يصبح فيما بعد تلوثًا مائيًا أو ترابيًا من خلال تضافر عوامل تلوث البيئة، ويمكن أن نلخص تلوث البيئة وأثرها في الإنسان عبر السلسلة الغذائية بالمخطط التالي:





المسطحات الخضراء رئة للهواء النقي وتخفف التلوث الناتج من الضجيج

دور النبات في حماية البيئة من التلوث

تقوم النباتات بدور مهم في الطبيعة لحماية البيئة من التلوث وإعادة التوازن البيئي، ونذكر من أهم أدوارها:

- تمتص النباتات قسمًا من ملوثات البيئة (غازات سامة، غبار) من الهواء مباشرة أو بعد انحلالها في مياه الأمطار، فتمنع وصولها إلى التربة والكائنات الحية فيها.

- تقوم النباتات الخضراء بإغناء الجو بالأكسجين اللازم لتنفس الأحياء وتنقية الهواء من غاز ثاني أكسيد الكربون بواسطة عملية التركيب الضوئي، حيث تعدّ الغابة والأشجار المزروعة قرب المدينة بمقام رئة لها في إعطاء الأوكسجين وتنقية الجو من غاز ثاني أوكسيد الكربون وبذلك تحافظ النباتات على التوازن في الطبيعة.

- تحافظ النباتات (الغابات) على حفظ رطوبة التربة والجو في جوارها بما ينتج منها من بخار الماء، ففي الغابة الكثيفة يُعطي الكيلو متر المربع الواحد ٣٥٠ كغ من بخار الماء في اليوم، وبالتالي تخفف النباتات من وطأة الجفاف المتسبب عن الموقع الجغرافي والمناخ.

- تمتص النباتات بواسطة أوراقها قسمًا كبيرًا من الطاقة الشمسية الساقطة على الأرض، وتعكس جزءًا منها، وبذلك تخفض من كمية الحرارة في الجو.

- تساهم الأشجار في خفض سرعة الرياح إلى درجة كبيرة مما يساعد على ترسيب الغبار المعلق بالجو والضار بصحة الإنسان وجهازه التنفسي. لذا يُنصح بتشجير المناطق السكنية وما حول المدن.

- تؤدي المسطحات الخضراء دورًا في تخفيف التلوث الناتج من الضجيج بنسبة ٢٠٪.

- تفيد الأشجار بتشكل التربة الدبالية (العضوية)، فبأوراق الأشجار الساقطة على الأرض وبفعل الكائنات الدقيقة في التربة تتشكل تربة خصبة مفيدة للزراعة.

- تفرز بعض الأشجار كالصنوبر والبلوط والزيزفون مواد عطرية طيارة تقتل الجراثيم والفيروسات وبعض الحشرات، مما يساهم في مكافحة البيئة وحمايتها من التلوث، ولهذا السبب تقل نسبة الجراثيم في هواء الغابة بـ ٢٠٠ مرة عنها في هواء المدن.

يتبين لنا من هذه الدراسة أهمية النباتات في حماية البيئة من التلوث ودورها المهم في الطبيعة والمحيط الحيوي والسلسلة الغذائية وصولاً إلى الإنسان.

إن المسؤولية تقع علينا جميعًا من أجل حماية البيئة من التلوث وإعادة التوازن الطبيعي إليها من أجل سلامة الإنسان أيضًا وتوفير حياة أفضل للبشرية جمعاء.

يقول تعالى: *ولقد كرَّمْنا بني آدمَ وحملناهُم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفضّلناهم على كثير ممَّنْ خلقنا تفضيلا*. **الإسراء: ٧٠**.

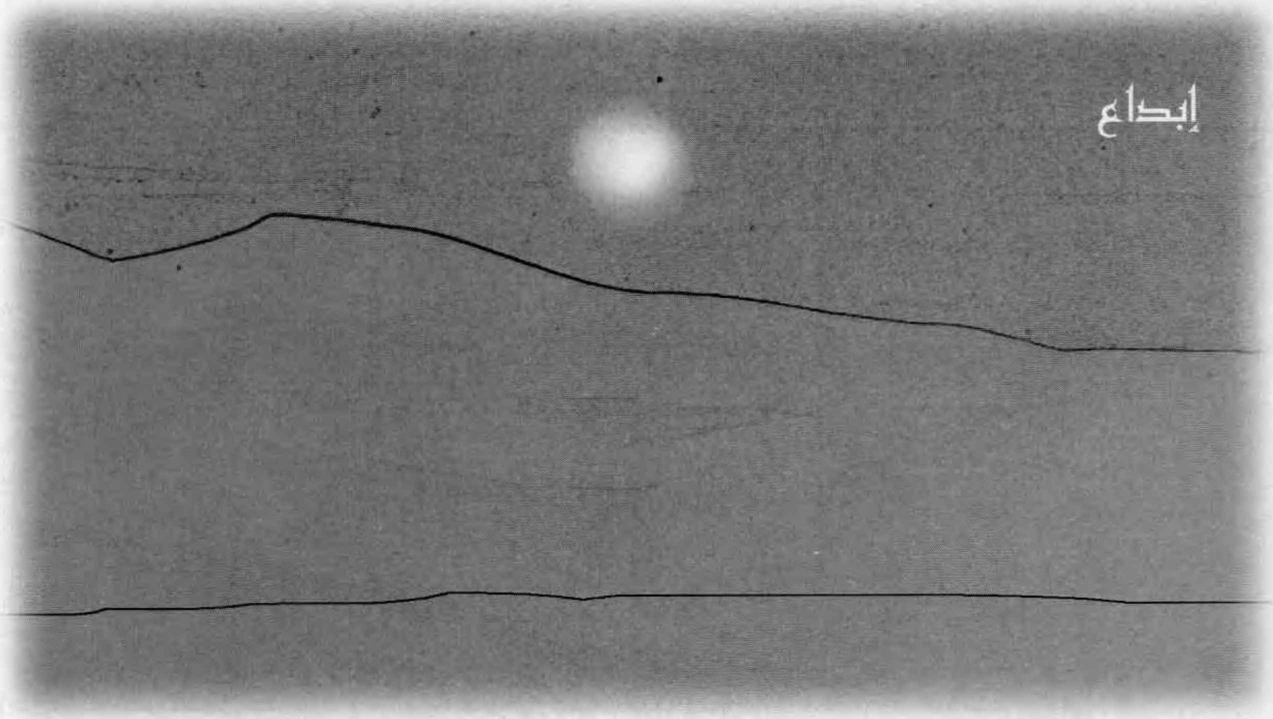


ناقلات النفط من ملوثات مياه البحار والمحيطات، وتبدو آثار التلوث واضحة على الصخور



المراجع :

١- الإنسان والبيئة: إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة ١٩٨٧م.
٢- البيئة النباتية: د. محمد غسان سلوم، منشورات جامعة دمشق، كلية العلوم، دمشق ١٩٩٠م.
٣- التلوث وحماية البيئة: د. محمد العودات، مطبعة الأهالي، دمشق ١٩٨٨م.
٤- الله يتجلى في عصر العلم: جون كلوفر مونسما، ترجمة د. الدمرداش، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة - نيويورك ١٩٦٠م.
٥- الغازات الجوية وأثرها على الحياة: د. محمد غسان سلوم، مجلة الطيران المدني، عدد رقم ٦١، دمشق ١٩٨٣م.
٦- علم البيئة: د. أحمد رشيد، إصدار معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨١م.
٧- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، مكة المكرمة، جامعة الملك عبدالعزيز، منشورات دار النمير، دمشق ١٩٩٤م.



النوايا.. خريطة الليل!!

أحمد عبدالرحمن العرفج

حوار الروح.. ماءٌ يستَفزُّ
أهيمُ على مساقطه
كأنّي
رياحُ الصمت.. في الصحرا تُجزُّ
تسافر في الليالي.. في مسارٍ
يعاوده الظلامُ.. ولا يفزُّ
بعيد.. خانه الدربُ.. فكانت
نهايته.. من الخطوات هزٌّ!!
تدلّت رغبة حمقى عليه
ولا يسري بجنح البحر إلا
ضعيفٌ ما له في الحبل حزٌّ!!
سرابٌ من لظى سطرٍ جريحٍ
وشعرٍ في المذلة..
لا يَعزُّ!!
صراخ كالكتابة.. أيُّ شيءٍ
رياح الوقت.. منه لا تنزُّ
شبيه المنحنى الليليِّ.. «رسمًا»
أراك طفولةً حيرى تؤزُّ
صباح الخير..
قافلة النواحي..
جموعٌ ما لها في الدرب حِرزُ
هنا أرض خرائطها «النوايا»
تلوك الصبح..، والأشجار وخْزُ
على هذا اتفقنا.. يا صديقي
فكيف يقودنا
همزٌ ولمزُ
أ أحرسُ.. نقطتي..،
والنهر ملقىً
يمزّقه ـ من الأكتاف ـ
غرزُ؟!!

لا ـ الياسين ـ في يوم الزينة

أحمد صالح الصالح
«مسافر»

وطنٌ.. تَفَرَّدَ في القبائل نخوةً
وعلى الثرى ثمراً
شهيَّ المجتنى.. رغداً
جناه.. يردُّ..
عافية الرجال.. أشاوسا
ويعيد للمدن الصبابة والصبَّا
والبأس.. والحول الطويلَ
على الزمان.. قصيدةً
لذَّتْ.. وطابت مسمعا
يَضْوي إليك:
موشحاً بهمومه وشجونه
نبضَ المسرات الحميمة
يصطفيك.. فآنسيهِ
ودثِّري القلب الشجيَّ
ألَمَّ بالمأساة حتى أصبحتْ وطناً
فماذا بعدُ من حزَنٍ..؟!
وماذا بعدُ من وطن..؟!
وماذا أنت بعدُ.. تفرُّدا..؟!
تُدْنين مفتتح القصيدة من سمائك
فادخلي المسحور من بحر القوافي
تشرقين عليه ـ آناء الزمان ـ
قبيلةً للعشق
قافلةً.. يَخُبُّ بها المدى.. وطناً
ينوء بهمها شجرُ الغضا
ومسارب الوديان
تشربها الدُّجُنَّهْ
الآن.. يومُ الزينة..؟!
احتشد الحواةُ
تسربلوا بالإفكِ
الشيخُ.. هزَّ عصاه
وامتشق الحجارةَ
غِيضَتِ المأساةُ
وانتفضت ـ ببأس الله ـ
آلاف الأسنَّهْ
الشيخ.. مدَّ عصاه ـ باسم الله ـ
ينهض.. يجتبيك
عصاهُ تَلْقَفُ.. ما تُجنُّ «بنو قريظه»
ما «هرقلٌ» قد أُجَنَّهْ
قومي إليه..!!
وعانقي الوجه البَهيَّ
استأصلي خوفي
وهُزي للنوازلِ ما بقلبي من هواك
وحدثي الآفاق..؟!
كيف.. الأرضُ يأتي عشقُها فَيْضاً
وكيف الثأر.. ينبت في شرايين
الأجِنَّهْ
الآن... ـ بين يديك ـ يُلْقِي
أبجديات الهوى
وغرور عُمْرِ
طالما استعصى.. على الغيد الملاحِ
وكان عن صبواتهنَّ مُمَنَّعا
الآن.. تقتحمين كل حدود سطوته
فَيُخبت قلبه متبتِّلاً
بين الترائب واللمى
ويفيق بينهما معا
يا أرضَه الممتدَّ ديمُ غَمامها
مُدِّى إليه القلبَ
والوجه الحفيَّ
وأشعلي وهج القصائدِ
في معاني المفردات

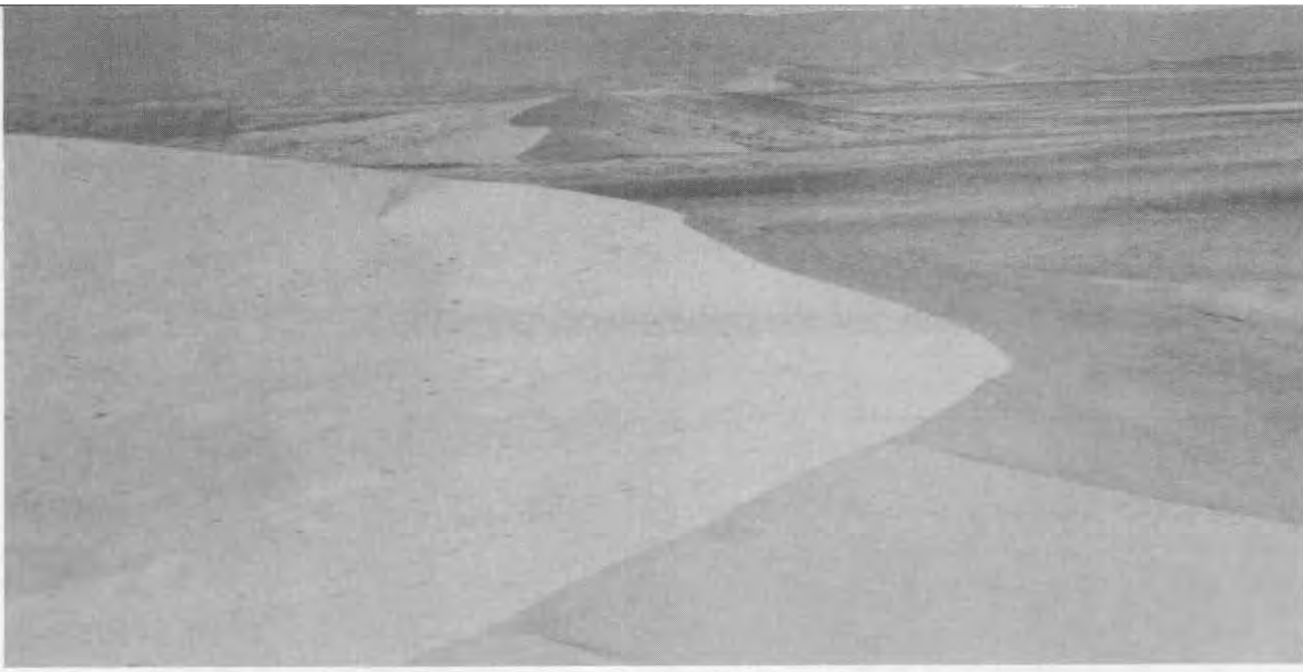
وفي القوافي الغُرِّ
في وجع الديار
يفيق مُشتملاً بأسرار التوَحُّد
عندها.. تتلبَّسُ الخيلاءُ فرعك
والمدائن.. تُورق الطرقات في
أحشائها
يتنفَّسُ الغلسُ الهزيعَ من المساءِ
الحُسْنُ.. يُشْرق فيك
والأشعار.. تهمي الحبَّ
يعمرك الدلال الغَضُّ
أنضرَ ما تَجُودُ به الرُّؤى
وأرقَّ ما عرف الهوى
يأتي إليك.. بكل سابغ شِعْرِه
ما بين قافيةٍ.. تتيه
وبين قافية.. تُهَدْهد مُولعا
يأتي.. وقد صَهَلَتْ خيول الفاتحين
بكل مُستَلَبٍ بكى جورَ الزمانِ
وأنقضَ الهمُّ العريضُ.. ترابه
حتى تأجج في الصدور
جحافلاً بُلَقًا
وسيفًا مُشْرعا
هذا أوان.. حلول سطوته..
- ودفء حنينه -
يأوي.. إليك..!!
كأنَّ ما عرف الفراق
ولا أضرَّ به الجوى
وكأنما.. ما اغتالت الفرحَ الجميلَ
- بمقلتيه - شجونه
واستمطر الألمُ المريرُ الأدمعا
يأتي.. وفي عينيهِ رسمُ هواك
في شفتيه طِيْبُ عرارِ هذا العشقِ
في أشعاره.. تبدين
أحلى من أحبَّ
وتُقْرَئين:
كما أراد وأبدعا
تغشى سراياه.. المـَوَاطن
يصطفي الفجر الموشى بالندى
حتى إذا.. نضح البكورُ له
سباتَ الليل
في زغب البراعم
مدت الآفاق سحر الكائنات
الأرض.. باكرها النعيم
محاسنًا تترى
وفَتَّقَت الثرى
زحفًا ثريَّ المجد محمود السُّرى
الآن.. يصدع سيد العشّاق.. مختالاً
وفي شفتيه طعمُ الشهد في شفتيك
يشدو.. مثخنًا بالنصر والخيل
العِرَاب
فما ألذَّ الحسن.. في وضح البكور
يمدُّ من ألق السنا
ما لا يطاوله الخيال
فكنتِ أبهى.. ما رأت عين
وأسمع ما وعى



اللغة والبلبل

عبده بدوي

تابعت عطرك في صحراء أجدادي / ودُرت حولك في صمتي وإنشادي
ما زلتُ أذكر حرفًا فيه وسوسة / من الجِنان، ومن تُفاحها الشّادي
وفرحةٌ من مساحاتٍ مهدّلةٌ / دارت بكلمة «بستان» على الوادي
وكيف صارت «غيومٌ» كلمةً هطلت / وكيف أضحى «نخيلٌ» غُنوةَ الحادي!
قد كنت دوحة بان أنبتت رجزًا / قُرب الخيام التي شدّت بأوتاد
وكنتِ هودج عشق فيه زلزلة / فالحبُّ رغم التأسّي رائح غادي
وكنت قصّةَ فرسان قد انهمروا / وأصبحوا والأماني عنْدَ ميعاد
حتّى تدفق فيك الوحي مبتهجًا / فأصبح الكون - كل الكون - في الضّاد
الله يا فجرها فاضت قداسته / بالنور في «كعبة»، بالشعر في الوادي
لكم تمنيّت لو كانت معلّقتي / على القباطي بركن مشرق شادي
ففوق كل مكان كنت لؤلؤةً / قد علقتها قريشٌ فوق آباد
وقد غدوت أناقاتٍ وزركشة / - وطارقٌ مبحرٌ في بُعد أبعاد
لما رأيتك بين العصر عابسةً / والشوك غطّى مع البغضاء أمجادي
والصمتُ يُوغل في أعماق عالمنا / ويجذب الشمس عن ورد وأحفاد
وللركاكة عُرسٌ صاخبٌ ثَمِلُ / وللفجاجة عُقم واضحُ بادي
قالت حروفك: لن أبقى بغير دم / يُجدّد الخِصب في خوفي وأورادي
فهوّمت كل أيامي بلا جزع / على الفروع التي جفّت كأعواد
واستجمعت فوق أشواك تجاذبها / لكي تضيء بإشراق وإسعاد
قد كان يبسم قلبي وهو في ألم / وكنتِ أنت على وعدٍ بميلاد
فهللي ملءَ هذا الكون، وابتهجي / وغرّدي للأماني الخُضر وارتادي!



تكبَّرَتْ فيك روحٌ

راضي صدوق

أيَّانَ ترحلُ لا قلبٌ ولا كـــبـــدُ؟
تحنو عليكَ، وأنتَ البُلْبلُ الغَــردُ
رحلتَ عن مـوطنِ الآباءِ مُـغـتـربًا
والجـرحُ في القلب والأشـواقُ تتَّـقِـدُ
وكلُّ خَـفْـقَـةِ عـرْقٍ فـيك غـرْغَـرَةٌ
من الدمـوع طَواها الصَّـبْـرُ والجَلَدُ
وكلُّ نظْرةِ عَـيْنٍ منك مَـجْـمـرةٌ
من الحنينِ سُداها الحُـزْنُ والكَمَـدُ
تكبَّـــرَتْ فـــيك روحٌ لا تذِلُّ أسىً
ولا تَهــونُ على البلْوى، ولا تَجِــدُ
تَرَى صـغارَكَ والبـأسـاءُ تَفْرسُـهم
زُغْبَ الحـواصل لا عَـيشٌ ولا رَغَـدُ
وشـعبُكَ الحُـرُّ في الآفـاق تَسْـفَعُـهُ
هوجُ الرياح.. ولا مـــأوىً ولا سَنَدُ
أنّى حلَلْتَ فـــــلا أهلٌ ولا سَكَنٌ
ولا أمـــــــانٌ.. ولا ظـلٌّ.. ولا بَرَدُ

حتى نـزلتَ بأرضِ النّورِ فارتعشَتْ
بكَ الجـوانحُ، واستَحـيًا بكَ الجـسَدُ
هذا مُـــقـــامُكَ عند البـيـتِ، نِعْمَ بهِ
وبوركَ البـــيتُ، والأهلونَ، والبلَدُ
أنْظُرْ حواليْكَ.. فالأبصارُ شاخصةٌ
لمنْبَعِ النّور، والأقـوام تَحْـتَـشِـدُ
كـأنّمـا الدّهرُ في تيـهٍ وفي فـرح
وهامـةُ المجْـدِ من عليـائهـا تَفِـدُ..
ومِهْـرجانٌ من الأمـجادِ مُصطخبٌ
ومـوكبٌ من خـيـولِ العـزِّ مُـتَّـئِـدُ
حطَّتْ هنا في رحاب النّور مَرْكَبَـها
يحـفُّـهـا الأملُ المنشـود والعُـدَدُ
وأسلَمتْ لدروبِ المجْـدِ مِـقْـوَدَها
لكي يسـيـرَ بهـا الإيمانُ والرَّشَـدُ
الفـجرُ تهـتفُ في الأعماقِ جَـذْوتُه
وعـالمُ البـغْي خلْف الليل يَرْتَعِـدُ...
هذا أنا يا رحـابَ الطُّهـر مـعـتكفٌ
فـدثّريني لعلَّ الجـرح يبْـتـردُ

كُــــثَـــــيِّـــــر بــن عـــ

أبو صخر كُثير بن عبدالرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي المشهور بكُثيِّر
عزّة، شاعر عفيف متيّم مشهور، من شعراء العصر الأموي من أهل المدينة،
وكان شاعر أهل الحجاز في الإسلام لا يقدّمون عليه أحدًا، اشتهر بكثير

خليليَّ، هذا ربعُ عـزة، فـاعـقـلا
قَلُوصَيْكما، ثم ابكيا حيث حلّتِ(١)
ومُـسَّا ترابًا كـان قـد مَسَّ جِلْدَها
وبيـتَـا وظَلاًّ حـيـثُ باتتْ وظَلَّتِ
ولا تيـأسـا أنْ يَمْـحُـوَ اللهُ عنكمـا
ذُنوبًا إذا صَلَّيْـتُـمـا حيث صلَّتِ
ومـا كنتُ أدري قـبلَ عـزةَ ما البُكا
ولا موجعات القلب؟ حتى تولَّتِ(٢)
وقـد حلفتْ جُـهـداً بما نَـحَـرَتْ له
قـريشٌ غـداةَ «المأزميْنِ» وَصَلَّتِ(٣)
أناديكِ مـا حجَّ الحـجيجُ وكبَّـرتْ
«بفـيـفـا غـزال» رفـقـةٌ وأهَلَّتِ(٤)
ومـا كبّرتْ من فوق «ركبةِ» رِفْقَةٌ
ومن «ذي غزالِ» أشعرتْ واستهلتِ(٥)
وكـانـت لقطع الحـبلِ بيني وبينَـهـا
كناذرة نَذْرًا، فـأوفتْ وحلَّتِ(٦)
فـقلت لهـا: يا عـزُّ كلُّ مـصـيـبـةٍ
إذا وُطِّنَتْ يـومـا لهـا النـفسُ ذَلَّتِ(٧)
ولم يلـق إنسـان مـن الحب مـيـعـةً
تعمُّ، ولا عـمـيـاءَ إلا تَجَلَّتِ(٨)
تمنيـتـهـا حـتى إذا مـا رأيتُـهـا
رأيتُ المنايا شُـرَّعًـا قـد أظَلَّتِ(٩)
كـأني أنـادي صخـرةً حين أعـرضتْ
من الصُّمِّ لو تمشي بها العُصْمُ زَلَّتِ(١٠)
صـفـوحًـا فـمـا تلقـاك إلا بخـيلةً
فـمنْ ملَّ منهـا ذلك الوصلَ مَلَّتِ
أباحتْ حـمـىً لم يرْعَـهُ الناسُ قبلَـهـا
وحلَّتْ تِلاعًا لم تكن قبلُ حلَّتِ(١١)

فليتَ قَلوصي عندَ عـزةَ قُـيِّـدَتْ
بحـبلٍ ضـعـيفٍ حُزَّ منهـا فَـضَلَّتِ
وغـودرَ في الحي المقـيـمين رَحْلُهـا
وكـان لهـا باغٍ سـوايَ فـبَلَّتِ(١٢)
وكنتُ كذي رجلين: رجلٍ صحيحة
ورجلٍ رمى فـيـهـا الزمـانُ فـشَلَّتِ
وكنت كـذاتِ الظلعِ لما تحـاملتْ
على ظلعـها بعد العثارِ استقلَّتِ(١٣)
أريد الثَّـواءَ عندها، وأظنُّهـا
إذا مـا أطلْنا عندها المُكثَ مَلَّتِ(١٤)
فـمـا أنصفتْ، أما النساءُ فَبُغِّضَتْ
إليَّ، وأمّـا بـالنوالِ فَـضَنَّتِ(١٥)
يكلفـهـا الغيـرانُ شَتْمي، ومـا بهـا
هواني، ولكن للمليكِ استذلَّتِ(١٦)
هنيـئًـا مريئًـا - غيـرَ داءٍ مُخـامرٍ -
لعزةَ من أعراضِنا ما استحلَّتِ(١٧)
فـو اللهِ مـا قـاربتُ إلا تبـاعـدتْ
بصَـرْمٍ، ولا أكـثـرتُ إلا أقلَّتِ(١٨)
وكنا سَلَكْنا في صـعـود من الهـوى
فلمـا توافـينـا: ثبتُّ وزلَّتِ
وكنا عَـقَـدْنا عُـقْـدَةَ الوصل بيَنَا
فلمـا تـواثَقْنا: شـددتُ وحَلَّتِ
فإنْ تكن العُتْبَى فأهلاً ومرحبًا
وَحُقَّتْ لهـا العُتْبى لدينا وقَلَّتِ(١٩)
وإن تكن الأخْـرى، فـإن وراءنا
منادحَ لو سارت بها العيْسُ كَلَّتِ(٢٠)
خليليَّ إنَّ الحـاجـبـيـةَ طَلَّحَتْ
قَلُوصَيْكمـا، وناقـتي قـد أكَلَّتِ(٢١)



ـــــزة

لرحـــــمن الخـــــزاعي

زّة نسبة إلى محبوبته عزّة بنت خميل بن حفص الضمرية التي قال فيها
كثر شعره. وكنيتها أم عمرو. ومعنى عزّة في اللغة بنت الظبية.
هذه القصيدة هي أطول قصائده وأشهرها وأكثرها ذيوعًا.

فلا يَبْعَدَنْ وَصْلٌ لعزةَ، أصبحتْ
بعاقبةٍ أسبابُهُ قد تولّتِ(٢٢)
أسيئي بنا أو أحسني لا مَلُومةً
لدينا، ولا مَقْلِيّةً إنْ تَقَلّتِ(٢٣)
ولكن أنيلي، واذكري من مودة
لنا خُلّةً كانت لديكم فَطلّتِ(٢٤)
فإني وإن صَدّتْ لَمُثْنٍ وصادقٌ
عليها، بما كانت إلينا أزَلّتِ(٢٥)
فلا يحسبِ الواشونَ أنَّ صَبَابتي
بعزةَ كانت غَمْرةً فَتَجلّتِ(٢٦)
فأصبحتُ قد أبْلَلْتُ من دَنَفٍ بها
كما أُدنفتْ هَيْماءُ ثم استَبَلّتِ٢٧)
فوالله ثم الله ما حلَّ قبلها
ولا بعدها من خُلّةٍ حيثُ حَلّتِ(٢٨)

وما مرَّ من يومٍ عليَّ كيومها
وإن عظُمت أيامُ أُخرى وجَلّتِ(٢٩)
وأضحتْ بأعلى شاهقٍ من فؤاده
فلا القلبُ يسلاها ولا العينُ مَلّتِ(٣٠)
فيا عجبًا للقلبِ كيفَ اعترافُهُ
وللنفسِ لمّا وُطِّنَتْ كيف ذَلّتِ(٣١)
وإني وتَهْيامي بعزّةَ بعدَما
تخلّيتُ مما بيننا وتخلّتِ(٣٢)
لكالمرتجي ظلَّ الغمامة، كلما
تبوّأ منها للمَقِيلِ اضمحَلّتِ(٣٣)
كأنّي وإيّاها سحابةُ مُمْحِلٍ
رجاها، فلما جاوزَتْهُ استهلّتِ(٣٤)
فإنْ سأل الواشون فيم هجرتها؟
فقلْ: نفسُ حُرٍّ سُلّيتْ فتسلّتِ(٣٥)

الهوامش

١- ربع عزة: موضع دارها. اعقلا: شدا واربطا. قلوصيكما: القلوص الناقة الشابة النشيطة.
٢- تولت: ذهبت وأدبرت.
٣- المأزمان: موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة (بين عرفة والمزدلفة) وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرفة وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين صلاتي الظهر والعصر. حلفت جهداً: أي بالغت في اليمين.
٤- بفيفا غزال: أي بفيفاء غزال، موضع بمكة حيث ينزل الناس منها إلى الأبطح. أهلّت: رفعت صوتها بالتلبية. ما حج الحجيج: أي طيلة مدة حج الحجيج.
٥- ركبة: واد بين مكة والطائف. رفقة: رفاق، جمع رفيق. أشعرت: جعلت لنفسها شعاراً.. وشعار القوم علامتهم في السفر.
٦- حلّت: أوفت بعهدها وخرجت من ميثاق كان عليها.
٧- وطن نفسه على الشيء: أي حملها عليه حتى تذل له وتخضع.
٨- ميعة الشيء: أوله أو معظمه. تعم: تشمل. العمياء: الضلالة والجهالة. تجلّت: انكشفت وانفرجت.
٩- المنايا: جمع منية وهي الموت. شُرَّعًا: مسددة، موجهة.
١٠- الصم: الصخور الصلبة المصمتة. العصم: جمع عصماء، والأعصم من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أحمر أو أسود. زلّت: زلقت.
١١- التلاع: جمع تلعة، الأرض المرتفعة.
١٢- بلّت: هامت ضالةً على وجهها.
١٣- كذات الظلع: كالناقة العرجاء. تحاملت: تكلفت المشي بمشقة. استقلت: ذهبت وارتحلت.
١٤- الثواء: الإقامة. المكث: البقاء.
١٥- النوال: العطاء، والمقصود به الوصال.
١٦- الغيران: ذو الغيرة، يقصد به زوج عزة. المليك: أي المالك الذي يملك وهو زوج عزة. استذلت: هانت وخضعت.
١٧- مخامر: مخالط ومداخل. من أعراضنا ما استحلت: يقصد شتيمته في عِرْضه إطاعةً لأمر زوجها.
١٨- صرم: قطيعة وهجران.
١٩- العتبى: الرضى وإزالة اللوم.
٢٠- منادح: جمع مندوحة وهي الأرض الواسعة البعيدة. العيس جمع عيساء وأعيس: الإبل البيض الكريمة يخالطها شقرة أو ظلمة خفيفة. كلّت: تعبت من السير.
٢١- الحاجبية: يقصد بها عزّة. طلحت وأكلت: أتعبت وأجهدت.
٢٢- فلا يعدن: فلا يهلكن. بعاقبة: في ختام الأمر.
٢٣- مقلية: مبغضة ومكروهة من القلى، أي البغض. تقلّت تبغضت.
٢٤- الخلة: المحبة والصداقة. طلّت: أي منعت وأهدرت.
٢٥- أزلّت: أسدت وأعطت.
٢٦- الواشون: الذين يشون بالنميمة ويزينون الكذب. غمرة: شدة. تجلت: انفرجت
٢٧- أبللت: شفيت. الدنف: المرض الملازم. الهيماء: الناقة التي أخذها الهيام، وهو داء يصيب الإبل فتظل تهيم في الأرض دون أن ترعى حتى تموت. استبلت: برئت وشفيت.
٢٨- الخلة: الخليلة، أي: الحبيبة والصديقة.
٢٩- أيام أخرى: أي أيام امرأة أخرى. جلت: عظمت.
٣٠- الشاهق: المرتفع. يسلاها: ينساها، ويروى البيت هكذا:
وللعين أسراب، إذا ما ذكرتُها
وللقلب وسواس إذا العين ملت
٣١- اعترافه: اصطباره. ذلت: خضعت واستسلمت وأطاعت.
٣٢- التهيام: شدة الهيام والعشق [illegible] الجنون. تخلت: تركت.
٣٣- تبوأ المكان: اتخذه للإقامة. اضمحلت [illegible]
٣٤- سحابة ممحل: سحابة [illegible] المطر [illegible] استهلت: أمطرت [illegible]
٣٥- [illegible]

علَى وَجْهِكِ اخْتُصِرَتْ كلُّ التفاصيلِ

خيرية إبراهيم السقاف

(١)

تثاءبت.... مطَّتْ قدميها، بَسطَتْ يَدَيْها في حركة تثاقل وإعياء.
(آه..) مدَّدَتْ صوتَها في تأوهاتٍ مكرورةٍ...، سَحَبَتْ جَسَدَها على الأريكة... أغفَتْ...

(٢)

صرخَ الصغيرُ
من حوله ظلامٌ.. عَطَشَ...،
تحسس فَمَهُ...، تلمَّسَ ما بجواره،
لم يكن صدر أمه.. كانت
الوسادة.. ولأنَّها رطبةٌ.. دسَّ
وَجْهَهُ فيها.. فأغفى..

(٣)

ارتفع صوت التلفاز عاليًا.. «لا خبر.. لا.. مرسال.. لا حامض حلو.. لا...».. مدَّتْ يدها بسرعة، ضغطت بظُفُرِها بقوةٍ زرَّ التلفاز.. أخْمِدَ صوته فجأة..
صرخت وهي تتلمس طرفَ أُصبُعِها: أوه.. كُسِرَ ظُفُري..
- «هذا الذي انكسر.. كيفَ سأعوِّضُهُ الليلة؟».
- متى يطولُ من جديد؟
- كنتُ أستعينُ به كلما عادَ إليَّ في أواخر الليلِ بعد أن ينقضي المساءُ.
أف.. أفٍ

(٤)

- يدقُ البابَ.. جرسُهُ أيضًا يرنُّ..
صوتُه.. هذا الحارسُ
ماذا يريدُ؟
- السيد (س) أين يكون الآن؟
- ليس هنا...
- كلَّ يوم تُكرِّرين العبارة نفسها.
- أجل أجل لم يعد.
- ومتى يفعل؟
- إنْ كُنتَ يقظًا في آخر الليلِ، فستجدُهُ عندما يتمَلْمَلُ العصفور في عشِّه.
- هه.. قالها بسخريةِ الحارسُ... ومضى.
- استطردت: نعم، قبلَ أنْ تخلعَ الشمسُ عنها رداءَ اللَّيْلِ كلِّه.
وقبل أن تكملَ عبارتها.. كانَ قد اختفى.
هزَّ المكانَ صدى الباب.. وهو يُغلقُ.

(٥)

تمطَّت من جديد...
تمددت على الأريكة.. تعالجُ النوم ثانيةً.. تذكرتْ ظُفُرَهَا وهي تعبثُ بأصابعها...، دست نفسها ناهضة بسرعة في المطبخ، عادت بحبةِ كُمثرى... بشراهةٍ تقضمُها... تساقطت قطرات من مائها على قميصها..
نظرت إلى داخل الحجرة المجاورة.. الصغيرُ لا يزالُ يعانقُ الوسادة، والآخر هناك..
سقطت على قطعة الكمثرى المتبقية في يَدِها حبَّةُ دَمْعٍ..

(٦)

رنينُ جرسِ البابِ يعُمُّ المكان..
رنينُ الهاتف بجوارها يتزاملان.
بكاءُ الصغير عاليًا يأتي مذعورًا من داخل الحجرة.
وَخْزُ مَوْضعِ ظُفُرِها المكسور ينبضُ..
تحرَّكَ كلُّ ذلكَ معًا في لحظةٍ واحدة..
والوحدةُ تأكلُها..
والليلُ يَنْهشُ في اطمئنانها.
ارتفع منها شهيقٌ مريرٌ.. جاء من تحتِ الوسادةِ التي كانت بيْنَ يَدَيْها



تَضمُّ وجهَهَا.

(٧)

المرآةُ الصقيلة تَعكِسُ وَجهَ امرأةٍ هدَّها المَللُ..

الهاتفُ يعاودُ رنينَهُ..

تجلسُ القُرفُصاءَ، بحركةٍ غير إرادية تَشمَخُ برأسها وهي تُتَمتِمُ: «لا بدَّ أنَّها هي... يوميًا تُخطئُ هذه الوقحةُ، في آخر المساءِ تُخطئُ؟ يوميًا تَفعَلُ.

جَرسُ الباب يعاودُ رنينُهُ..

بفرحةٍ مكتومةٍ: «هذا هو... لا بد أنَّه هو...»

تتحركُ بنشوةٍ.. تفتحُ البابَ..

تتنهَّدُ: هذا أنتَ أيُّها الحارسُ..

- السيد (سين) هل عاد؟

- لم يعدْ...

- ولكنَّهُ آخرُ الليل...

- ولكنَّه لم يعدْ...

أدارَ ظَهرَه ببطءٍ وهو في حيرةٍ.. ثم عاد في اتجاهها: آه تذكرتُ.. لقدْ نسيتُ يا سيدتي.. هذه الرسالةُ لك...

مدَّتْ يدها ليَ، وهي تفُضُّها بسرعة..

قالَ الحارسُ: أحضَرها رجلٌ لي بعدَ الصلاة..

تَسَمَّرتْ.. رَجَفَتْ يداها.. لم تَنْطقْ.. كانت في دُوارٍ.

لم تُغلق الباب، ظلَّ الحارسُ واقفًا..

تهاوتْ.. ارتطمَ وجهُهُا بالمرآة على الحائط بجوار الباب..

الحارسُ صرخَ: سيدتي..

كان وجهُهُا لوحةً يحملُ تفاصيلَ غامضةً..

الحارسُ يسأل: سيدتي ما بك؟

شهقاتٌ حارةٌ صاخبةٌ تخرجُ منها كأبخرة ناريةٍ..

الحارسُ: سيدتي ما بكِ؟

- السيد (سين)، لن يعود أبدًا..

وهي تغلقُ البابَ خلفَ الحارس، كان كلُّ شيءٍ من حولها يكتظُّ بكلِّ شيءٍ: بكاءٌ... أرَق... أفكار... حاضرٌ... ماضٍ.. حسراتٌ.

- لن يعودَ.. لن يعود..

(٨)

في الصباح

لا تزالُ تحتضنُ الصغيرَ وقد بلَّلَتْهُ بدموعها..

على الأرض مرآةٌ مهشمةٌ

نقاطٌ من الدَّم على وسادتها،

وطَرَفُ ملاءَةِ الصغير.. عيناها اختفتْ معالمهُما...

السيد (سين) لن يعود... لن يعود...

(٩)

(الصغير يشربُ اللَّبن)..

- هل سافر؟

- لا أعلم

- سيعودُ؟

- ربَّما.. كثيرون يذهبون ويعودون..

- يسافرون أجلْ؟

- وبعضهم لا يعودُ..

- ... (صمتٌ بينهما)

- من ضَرَبَكِ على رأسك؟

- هو... لأ... المرآة يا صغيري.

- كيف هو.. وكيف المرآةُ؟

- أوه اصمت يا صغيري..

المرآة تعرفُ كلَّ شيءٍ..

وبينما هي تحتضنُ الرضيعَ.. كان الذي أكبر قد سقطَ من يده كوبُ اللبَنِ.

الدودة

طه وادي

مع شروق يوم جديد.. ركب حماره. مد يده فأمال الطاقية عن رأسه. البَرَكة في البُكُور.. حكمة ورثها عن أبيه. جاء يرى فدان القطن الذي يملكه. قيّد الحمار وتركه يرعى. الحمار يأكل الحشائش من الجسر، ولا يميل ناحية القطن. نظر إبراهيم في مودة إلى شجيرات القطن.. بدأ يظهر. تأمل ولده الكبير جودة يجمع قرون البامية. حين أبيعُ القطن يا جودة أخطب لك البنت شربات التي تحبها.. التقيا في منتصف الحقل.. جلباب الولد مبلول بندى البامية.

ـ الدودة.

ـ ما تقول يا ولدي؟

ـ بدأت تفقس في رأس الأرض.

ـ رأيتها بعينك؟

ـ نعم.

أحس إبراهيم انقباضًا مباغتًا حين سمع كلام ابنه.. أحنى ظهره على شجيرات القطن.. يتأمل في صمت.. هناك بعض لطع تختفي في ظهر الورق. البيض فقس. الدود بدأ يتغذى على الورق الأخضر. دودة استقرت في زهرة شجرة، تنظر إليه في تحد. ليست هذه أول مرة يرى الدودة، لكن إحساسًا بالهم سوّد خواطره. لِمَ خلق الله الدود؟!

لم يستطع أن يرفع قامته. جلس على ركبتيه.. تخيل الدود، يزحف من كل مكان.. الدود أكل القطن، ثم زحف يأكل ولده. نظر إلى السماء في عتاب. سرب من طير أبو قردان يسير بسرعة، ثم حطَّ في حقل أرز بعيد.

نظر الولد إلى أبيه في شفقة: أبي.. الدودة.

ـ ....

ـ لابد من السرعة.

ـ أيام جدّك كنا نأخذ المقاطف.. ونهز الشجر في الصباح هزات خفيفة، فينزل الدود ثم نحرقه.

ـ لابد من المبيد.. الدنيا تغيرت.

ـ ليتها بقيت..!

رجع من الحقل مهمومًا، وتوجه إلى مبنى الجمعية الزراعية.. تأمل جودة والده في صمته الحزين.. أبوه قليل الكلام، لكن عينيه تقول كل ما في قلبه. باب الجمعية مازال مغلقًا.

خذ الحمار واذهب إلى الدار.. سوف أنتظر.

ـ أنتظر أنا..

ـ لن تقدر على التفاهم مع عبدالملك.

مضت مدة لا يعرف لها حسابًا.. فالزمن لا يعرف حسابه إلا المعذّبون.. مبنى الجمعية في حارة مسدودة. جلس على المصطبة حزينًا. نسي كل شيء إلا الدودة.. الدودة ستأكل فدان القطن.. وإذا لم يقض عليها سريعًا تمشي.. تمتد.. تأكل قطن البلدة.. تستطيع أن تخرب البلدة كلها. حين يظهر الخراب في جزء سرعان ما يمتد إلى كل مكان.. لكن الخير لا يمتد بهذه السرعة.

ـ صباح الخير يا عم إبراهيم.

فاجأه فرحات عامل الجمعية.. بعد برهة جاء عبدالملك كاتب الجمعية.

ـ أريد المبيد.

ـ لم يأمر المشرف الزراعي.

ـ الدودة ظهرت.

ـ أنا عبد المأمور.

ـ من أجل خاطري.

ـ الشغل شغل.

ـ يا عبد الملك أفندي نحن أقارب.

ـ لا فائدة.

الكاتب مشغول بتجهيز الدفاتر وورق



الكربون ومسطرة خشبية. فرحات يرش الماء أمام باب الجمعية، لكن أذنيه تمسكان كل كلمة. ترك الكوز في صفيحة الماء الفارغة، وانضم إلى الرجلين.

ـ عمك إبراهيم رجل طيب.

قال ـ دون أن يلتفت إليه ـ الكاتب:

ـ معك نقود؟

ـ كله على الحساب.

ـ صاح فيه بحدة:

ـ أعطيك المبيد دون إذن المشرف.. وأرش حقلك في غيرالدور.. ثم تقول على الحساب..؟!

ـ طول بالك يا بيه.. الرجل يتفاهم معك.

ـ اخرس أنت يا ولد يا فرحات..

ـ اصبر ويكون خيرًا.

ـ اجلس مكاني.. وأدر الجمعية على كيفك؟!

لم يبال فرحات بغضب الكاتب المفتعل.. أخذه من يده وذهبا إلى الخارج:

ـ أعطه جنيها يا عم إبراهيم والمسألة تحل.

ـ اليد قصيرة.

ـ طيب.. نصف.

ـ ولا هذا.

ـ اسمع سنكتب أنك استلمت اثني عشر لترًا، ثم تأخذ عشرة.. وتترك لترين.

ـ ألا يكفي لتر واحد؟

ـ اسمع كلامي حتى تمشي الأمور.

ـ أمري لله..!

عاد إلى الكاتب.. يضع ورق الكربون بين الورق، يكتب في دفاتر صفراء وزرقاء.

نظر إبراهيم إلى حائط الجمعية فأدهشه أن هناك دودة حمراء تسير.. تسير في خط متعرج.. الدود وصل الجمعية!!

ذهب إلى الدار.. كانت زوجته زينب تخبز العيش. جلس على مصطبة وسط الدار، يتأمل البط والفراخ.. نادت عليه من مكانها.

ـ فطرت يا أبا جودة؟

لم يجب.. تركت مكانها أمام الفرن، جاءت بطبق بطاطس وحزمة فجل وبعض خبز، لم يلتفت إلى الطعام.

ـ مالك يا راجل؟

ـ لا أريد.

ـ أحضر لك قطعة جبن تفتح نفسك؟

وضعت قطعة من جبنة المش في طبق من الصاج.. تأمل الطبق.. المش به شيء يتحرك.. يمشي قال كالملدوغ:

ـ الدود.. الدود وصل يا زينب.

ردت عليه دون مبالاة:

ـ يا رجل.. دود المش منه وفيه..!

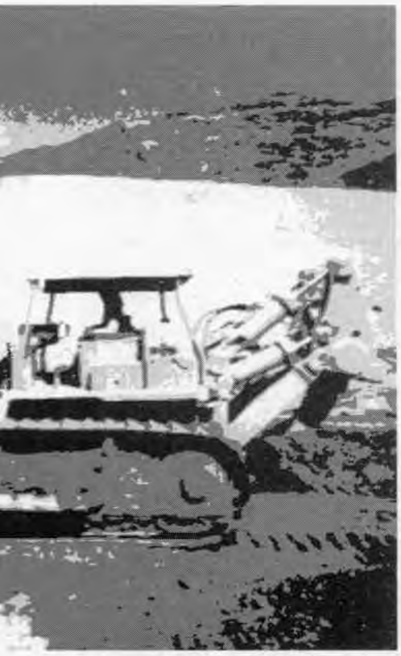
الغريب

عمر فتال

كانت أقدامهم تنهب الطريق في إصرار بالغ، وقلوبهم تتمنى في حرقة لو أن المسافة التي أمست تفصلهم عن الحارة اختصرت بلا أدنى جهد، وعقولهم تحكم حصارًا شاملاً على كل المعلومات التي سجلوها طوال هذا اليوم، أماألسنتهم فكانت تقبع في ظل راحة تامة .. على هذا المنوال ساروا دقائق غير قليلة، ولما لاحت لهم الدّور ساكنة عند قدم الهضبة العالية، تهللت وجوههم وتتابعت خطواتهم في تصاعد جلي، حتى إذا بلغوا الساحة التي تتوسط المنازل تفرقوا في اتجاه الأبواب المفتحة تماماً كما لو أن أحداً يطاردهم. ولم تمض هنيهة عابرة، حينما سرت داخل أغلب البيوت حركة بطيئة لم تلبث أن دارت دواليبها لتعبر الأسوار المحيطة بالدور ثم تندفع إلى الساحة في شكل ضحكات، وتجمعات صغيرة شرعت تنضم بعضها إلى بعض مشكلة في النهاية جمًا غفيراً بحماه الواسع احتمى، تساؤل واحد وإن تعددت صياغاته: تراهم ماذا سينجزون هناك في السهل؟! ترادفت الأجوبة الخافتة، وشقيقاتها المتقطعة قبل أن يطفو صوت فتاة أنيقة ابتسمت ابتسامة عريضة وهي تحرك حاجبيها في خفة ونشاط: قلت لكم منذ عشرة أيام: إنهم بلا ريب يعدون العدة لتزويد حارتنا، ومعها الحارات المجاورة بالكهرباء! ألم يقل الصغار قبل لحظات: إن للآلة العملاقة أعمدة طويلة ذاهبة في السماء... لم يتأت لها إكمال كلامها، عندما قاطعها واحد من الصغار الذين عادوا لتوهم من السهل : « نعم وفي الأعمدة حبال غليظة وسلـ.....»، وبدوره قاطعه طفل صغير أكثر تحمسًا: « وقد أشعلت في وقت من الأوقات أضواء قوية على طول الأعمدة».

يبدو أنك نسيت ياعمر ويا مصطفى أن تقولا للجميع: إن صوت محركها مزعج وأي مزعج ».

سادت فترة صمت قصيرة، عادت فيها الكلمة إلى الفتاة الأنيقة: «سوف ترون في القريب العاجل الكهرباء تطيح بفوانيسكم بعيداً بعيداً، يومها لن يبقى هناك أدنى فرق بينكم وبين أهل المد.....» من جديد تدخلت هذه المرة امرأة بدينة وقد انفلت منها زمام الكلام: «قد يكون يارشيدة ما قلت صحيحًا، ولكن ابني أحمد يقول إن للآلة ما يشبه « الجفنة» الواسعة، وقد أمسكتها سلاسل كبيرة وحبال غليظة ـ إي والله يا أمي، وإلى جانب ذلك فإن لها عجلات حديدية كبيرة جداً.



أسمعت يا رشيدة ماذا قال ابني أحمد؟ فلا شك أنهم عازمون على إنجاز طريق لربط حارتنا بالمدينة. من غير أن تسمع أم أحمد تعليقًا على افتراضها، قال شيخ كان قاصدًا المسجد بخطوات وئيدة : «إن وجود هذه الآلة في سهل التومي يجعلني أقول: إنهم يعتزمون حفر بئر عميقة أو بئرين حتى يتسنى لهم شق السواقي، فطالما حدثني أبي وقبله جدي ـ رحمهما الله ـ عن خيرات ذلك السهل في سالف السنوات ذات الأمطار الغزيرة، فأتمنى أن يكون هدفهم هو استخراج الماء، ففي ذلك خير لسكان حارتنا فاللهم حقق المراد». قالها الشيخ في خشوع، ثم انصرف لتستمر الافتراضات، والافتراضات البديلة في تصاعد عمودي، ولم تتوقف إلا بعد عودة الآباء ومعهم أبناؤهم الكبار من عملهم اليومي، كان شعرهم أشعث، وقاماتهم يظهر عليها انحناء طفيف، والتعب باد على وجوههم الشاحبة؛ لذلك اكتفوا بإلقاء التحية قبل أن يلجوا أبواب بيوتهم وعلى أثرهم سار النساء والصغار، ومن جديد خلت الساحة لتعج جل المنازل بالتخمينات في شأن الهدف من وجود تلك الآلة العملاقة الرابضة بسهل تومي، فقد

مرّ اليوم شهر وما يقرب النصف على عودة أحد الأطفال بخبر وضع سبع شاحنات كبرى للكثير من الحديد في المنحدر الذي يقع بين الهضاب التي تشكل معظم الأراضي المجاورة للحارة، ومن يومها شرعت مجموعة عمال غرباء يعملون معظم النهار على تركيب الحديد دون أن يتسرب منهم خبر واحد عن الذي يعتزمون إنشاءه، ولا كم يستغرق عملهم ذاك؟ ومن يومها أيضًا انشغلت الحارة عن آخرها بهذا الأمر، ولولا رداء الحشمة الذي تتزيا به النساء لذهبن بأنفسهن لرؤية ما يجري هناك في السهل، ولولا السن المتقدمة التي أقعدت الشيوخ عن الحركة الدائبة لذهبوا من جهتم وحاولوا استطلاع الخبر اليقين. أماالرجال والشبان القادرون فقد شغلهم عملهم معظم النهار عن التفكير في شيء من هذا القبيل . ولم يبق إلا الأطفال ليقوموا بدور جمع المعلومات أولاً بأول عما يجري هناك في السهل، فقد غدوا أعين



الحارة التي تبصر بها جديد التفاصيل التي تطرأ على الآلة التي ركبت جزءًا جزءًا، لذلك لم تكن المسافة الطويلة التي يقطعونها يوميًا لتثنيهم عن الذهاب إلى السهل، وقضاء سحابة النهار هناك مقتصرين في أكلهم على كسرة خبز جافة، وقطع صغيرة من السكر، حتى إذا شرعت الشمس تسعى إلى المغيب عادوا، فتتشكل الافتراضات تلو الافتراضات والتكهنات إثر التكهنات غير أنها لا تعمر إلا كما تعمر الزوبعة الشاردة في سط الهاجرة!! وهذا المساء، فهاهم الصغار قد عادوا ليتحدثوا عن رحيل الكثير من العمال الغرباء الذين سهروا على تركيب الآلة العملاقة، وعن دوران محركها مدة من الزمن، وإشعال أضواء وهاجة على طول أعمدتها ... بسط الليل ستارته على كل الأشياء، وسكنت دوامة التخمينات، فشمل المكان صمت مطبق، وخلد الجميع إلى نوم عميق ... وفي الصباح الباكر، وعلى غير العادة غادر الصغار الحارة مباشرة بعد خروج آبائهم، وإخوانهم الكبار إلى عملهم اليومي، وكان همهم الأوحد أن يعودوا بآخر أخبار الغريب ـ على حد تعبير أحد الشيوخ ـ الجاثم فوق أرض سهل التومي .. أطلقوا العنان لأقدامهم في إلحاح دائب، طلعوا الثنايا.. اعتلوا الهضاب العالية من دون ملل، ولا تفكير في الشكوى من سطوة التعب والنصب.. وعندما أشرفوا على السهل عدلوا فجأةً عن السير.. تبادلوا النظرات الخرساء، وقد وقفوا وقفة المسافر الذي أُخبر بمغادرة القطار المحطة منذ دقائق معدودات.. انعقدت ألسنتهم، وكادت الدموع تقفز من أعينهم .. طال وقوفهم وسكوتهم حينما قال أحدهم: لقد رحلت!! خفقت قلوبهم بشدة قبل أن يرد آخر بصوت باكٍ: ترى أين رحلت؟!

من غير أن يسمع جوابًا جلس اثنان وفي أثرهما جلس ثالث وهو يقول بصوت واهن «تخيلوا ليلة البارحة حلمت أن أعمدتها الطويلة الذاهبة إلى السماء سقطت على الأرض فحفرت حفرة عميقة!!».

ـ إذن لا كهرباء، ولا طريق، ولا ماء، ولا...

في غضب صاح أحدهم : لماذا رحلت عن السهل ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

ضرب كفًا بكف، ووضع يديه وراء ظهره، ثم نأى عن زملائه خطوات كأنما ضاق بالوقوف إلى جانبهم.... خيم السكون على الصغار الجالسين على الثرى لحظة من الزمان وقد شردت عقولهم في فيافي واسعة من التخيلات. وفي الوقت الذي استتب فيه الأمر لهذا الجو الصامت صاح صديقهم: «عمر، أحمد، صالح، ...» ردد الصدى نداءه، ومثلما يستيقظ النائم من غفوة عابرة، هبوا واقفين، هرولوا صوبه وصلوا قربه، سألوه لاهثين : « ماذا هناك ؟! فردّ في هدوء : انظروا جيدًا إلى الأرض ماذا ترون ! آثار عجلات الآلة !

ردّدوها في فرحة عارمة:

ـ الآلة اتجهت نحو الشرق ! الآلة اتجهت نحو الشرق!

والآن لماذا هذا الوقوف، هيا بنا نقتفي أثرها.

أراد أحمد أن يقول : « وماذا لو كان المكان الذي توجهت إليه بعيدًا؟».

لكن أصدقاءه كانوا قد شرعوا يحثون الخطا فلم يتوان عن اللحاق بهم.. تعقبوا آثار العجلات بلا أدنى كلل أو مماطلة، وبعد فترة سير بسيطة تناهى إلى آذانهم صوت مزمجر.. توقفوا.. أرهفوا السمع اشرأبوا بأعناقهم.. أداموا النظر في ما حولهم بلا طائل.. واصلوا مشيهم في درب.. مرت دقائق عديدة.. علا الصوت المزمجر أكثر من ذي قبل.. تسابقوا الخطوات عندما قال عمر: ها هي ذي!

تعالت دقات قلوبهم، وكادت الفرحة تمزق جلود صدورهم ! تبادلوا الضحكات العالية، وهم يطلقون سيقانهم للريح. ولم تمض إلا هنيهة حتى كانوا يعتلون ربوة صغيرة، تنفسوا الصعداء، ثم طفقوا يتابعون حركات الآلة العملاقة وهي تحفر وتجرف. أراد نهر البهجة أن يغمرهم على غرار الأيام السالفة، ولكنه لم يجد سبيلاً إلى نفوسهم، إذ ما إن همو بالاستواء في جلساتهم حتى رأوا آباءهم وإخوانهم الكبار الذين برحوا المنازل قبلهم في الصباح يجلسون إلى جانبهم. أيديهم موضوعة على رُكبهم بلا حركة تمامًا كما لو كانت مشلولة ! وأعينهم الدامعة تتابع بين الحين والحين غمامة الغبار التي راحت تزداد كثافة بتواصل عمل الآلة العملاقة الجاثمة فوق إحدى الهضاب المشكلة لمنجم الفوسفات المُكْتَشف...

إبداع

قصة من سنغافورة:

النمر

س. رادجاراترام، ترجمة: **فيروز نيوف**

عامت فاطمة في النهر الأصفر العكر، البارد، فبدا لها وكأن شرائط الماء الذهبية العريضة المتوهّجة تحت أشعة الشمس الآفلة قد التفت حول جسدها.

عادت فاطمة إلى الشاطئ وتوقفت حيث بلغ الماء خصرها.

وارتسم تحت العباءة ثديان ممتلئان وبطن مدور لامرأة حامل وفقد وجهها الناتئ الوجنتين تعبير الحساسية المتشائمة المميّزة لوجوه نساء الملايو.

وبدت عيناها الحادتا السواد تنظران إلى داخل فاطمة نفسها حيث كانت تنبض حياة جديدة.

هزّت فاطمة برأسها وردّت شعرها الأسود البرّاق كمن تعرضه لوشوشة النسيم. لم تكن القرية المخفية وراء الأحراش والأشجار العالية مرئية من المكان الذي وقفت فيه ولم يصلها أي صوت من هناك.

كان بساط من العشب الكثيف العالي ينبسط أمام فاطمة.

بدا المساء هادئًا وخيّم سكون لا يجرحه إلا صياح طير مائي وحيد، أو رفرفة جناحي بوم عدائية، وهو يستيقظ من نومه، أو صوت غطسة جرذ برفق في الماء.

كانت تفوح رائحة الأزهار البرية والأعشاب والمستنقع.

وفجأة شعرت فاطمة أنها شديدة الوحدة، مهملة، كما لو أنها في هُيولَى اليوم الذي خلق فيه الكون، حين كانت الأرض ما تزال مستنقعًا لزجًا، وكانت مملوءة بالوحوش الكريهة.

لهذا خُيّل لفاطمة للوهلة الأولى أن صوت النَّمِر الخافت المتبدّل ما هو إلا تأكيد للخيال، وما إن كرر (نشج) النمر ذلك حتى تيقنت فاطمة أن التزمجُرَ حقيقي.

كان النمر برأسه الضخم البارز عبر العشب وقفاه الملامس للأرض على بعد لا يتجاوز بضعة أقدام من المرأة، وكشفت الشمس البريق الشرير في عينيه الصفراوين المحدقتين الخدرتين.

أدار النمر رأسه وهو يجأر ويبرز لسانه الأحمر وأنيابه الصفراء الشبيهة بأغصان مقطوعة.

جمدت فاطمة من الرعب أمام عيني النمر اللامعتين الموجهتين إليها، وأفقدها السكون المباغت قدرتها على التفكير، ولم تتجرأ على الحركة من مكانها ولا حتى على رفع نظرها عن الوحش المحدق بها، همد النمر أيضًا، وكأنه في دهشة من رؤية إنسان أمامه.

كانت فاطمة تنظر إلى النمر بخوف، أما النمر فكان ينظر إليها بشك.

أخذت رهبة صياحه تتراجع، ولم يبد أية رغبة في الهجوم



على المرأة، بل فقد أي اهتمام بها.

كانت أماميتاه الضخمتان قُدّامه تغرزان مخالبهما، بين الحين والحين، في العشب الرطب.

ولم يكن ثمة شيء يجذب انتباه النمر، إلا محاولة قيام فاطمة بأدنى حركة، حينئذ كان يعلن يقظته.

كفّت عيناه عن البريق وظهر فيهما تعبير قانط، بل ضَجِر، لم يُفت فاطمة هذا التغيير المفاجئ في مزاجه.

كانت العتمة تزحف من التلال فيخفّ ألَقُ الألوان ويغطس كل شيء في غبش رمادي يتحول خفية إلى ظلام.

ظهر ضباب خفيف فوق النهر وامتد على الأرض وأعلن صوت الجَنَادب الحاد ونعيق البوم حلول الليل.

الآن، وبعد أن استعادت فاطمة وعيها قليلاً شعرت بإنهاك كامل، كانت ترتجف من البرد وقد فارقها الأمل تمامًا، إذ لم يكن النمر ينوي الرحيل أبدًا.

وضعت المرأة يديها على بطنها ولعل الشعور بالحياة في داخلها ولّد لديها تصميمًا لأيُقهر على الفوز بالنجاة.

كانت فاطمة لا تنقطع عن النظر إلى النمرالذي تُميزه بصعوبة في الظلام، وكانت تحس حين يزيح الوحش نظره عنها.

وبينما كانت تنتظر، توتّر جسدها وامتلأ بقوة عجيبة. وفجأة وبدافع من اليأس غطست وأخذت تسبح تحت الماء وهي تمس القاع بيديها، كانت فاطمة تسبح باتجاه الشاطئ المقابل حيث تقع القرية، ولم تكن تخرج رأسها من الماء إلا حين تشعر أن رئتيها ستتمزقان من قلة الهواء.

كادت أن تفقد الاتجاه في منتصف النهر، ولكن حين بلغ الصياح سمعها ازداد رعبها عما كان عليه حين كان النمر قريبًا.

ظلت تسبح باتجاه الشاطئ وهي تحرك يديها ورجليها بجنون إلى أن رأت أنوار قناديل الزيت في القرية.

وبعد آن زخرفت أم فاطمة قصة ابنتها بألوان المبالغة والتشاؤم، دبت الفوضى في القرية، فلم تعد النساء يدعن أطفالهن يبتعدون عنهنّ، كالدجاجات حين يحوم الباشق فوق فراخها ورحن يقفلن الأبواب الرقيقة (بالدرابيس) ويزعقن مُعلنات أن على الرجال أن يفعلوا شيئًا ما بخصوص النمر المجرم.

كان الرجال منهمكين بجمع البقر والماعز، بينما كانت العجائز يمضغن تبغهن وهن يحاولن فهم سبب هذا الضجيج كلّه.

كانت فاطمة منهكة مستلقية على حصير من القش حين جاء مختار القرية مصحوبًا بحشد كامل ليعرف المكان الذي رأت فيه النمر.

أخذت أم فاطمة، مرة أخرى، تقص بجلبة واستمتاع قصة لقاء ابنتها (بالُمَقلَم)، لكن المختار طلب منها بحركة حانقة أن تصمت، ثم توجه بالأسئلة إلى فاطمة. كانت تجيبه بفتور، فلسبب ما لم تكن تريد أن يجدوا النمر ويقتلوه. تجهّم المختار وصاحت العجوز كي تجذب الاهتمام:

ـ رباه! لقد أحاط الله ابنتي برحمته، فخلّصها من فم (المُقلَم) ورفعت يديها الداكنتين المجعدتين نحو السماء.

هزّ المختار كتفيه، وقال:

ـ لنفترض أن هذا صحيح ـ لكن في المرة القادمة قد لا تنجو، فليس من المريح أن نعلم بأنّ نمرًا يتجوّل حول القرية، لعله جرّب اللحم البشري. يجب أن نترقبه ونقتله، وبأسرع وقت، لكي ينعم النساء والأطفال بالأمان. حدّج المختار الرجال الصامتين الحذرين.

كان كل منهم يعرف مدى الخطورة في مراقبة النمور ليلاً، ولا سيما بين النباتات الكثيفة العالية حيث يتمتع النمر بميزة الهجوم المباغت والواثق.

ـ تكّلموا، قال المختار.

أطرق الرجال صامتين.

قطب المختار وجهه فكان على وشك أن يقذفهم بالجبن حين دخل محمود متنكّبًا بندقيته. كان وجهه الشاب يتوهّج حماسة.

قال بصبر نافد: سمعت أن نمرًا قد هاجم فاطمة هل هذا صحيح؟

وفيما كان المختار يشرح الوضع باختصار ووضوح، كان محمود يتلّمس بأصابعه بندقيته الجديدة ذات الفوهتين بحماسة الصياد.

كان مولعًا بالصيد ولا سيما صيد النمور، وكان مستعدًا أن يذهب فورًا.

ـ المختار على حق ـ صرخ محمود ـ يجب أن نفكر بنسائنا وأولادنا، فلا يمكن لهؤلاء المساكين أن يبتعدوا ولو خطوة واحدة عن البيت ما دام النمر حيًا.

إن واجب الرجال حمايتهم ، من يذهب معي؟ لا أكون ابن والدتي إن لم آت بجثة النمر قبل بزوغ الفجر، ولكن أحتاج إلى أعوان.

وبعد بعض الترددات تقدم مع محمود قرابة عشرة رجال لصيد النمر مدفوعين بكلامه وشهرته كصياد ماهر.

ـ رائع، صاح محمود: كنت أعلم أنكم لن تخيّبوا ظني.

فذهب الرجال.

صدقيني يا ابنتي ـ قالت الأم لفاطمة وهي تقفل الباب بالمرتاج ـ هذا الشاب محمود بذاته مثل النمر البري.

نهضت فاطمة عن حصيرها ونظرت إلى القمر من النافذة الضيقة.

بدا القمر وكأن أوراق النخيل المرفرفة قد قطّعته إلى سبائك فضية، وكان ينير ما حوله بضوء ناعم.

كان الرجال يتصايحون بأصوات خافتة، قلقة، وهم يُنهون آخر الاستعدادات للهجوم.

نظرت فاطمة نحوهم بأسى، ثم اختفى الرجال، ولم يبق سوى الشجر المتجهّم الرمادي وحفيف أوراقه تعبث بها الريح.

أنصتت فاطمة جيدًا فاستطاعت أن تميّز صوت خرير النهر البعيد، فكرت فاطمة، أين هو يا ترى، ذلك النمر الذي طالما تذكّرته طوال المساء.

ليته يذهب بعيدًا قبل وصول الصيادين.

ـ يا الله ـ أخذت الأم تندب وهي تطحن الجوز في جرن خشبي:

النمر



ـ إنها ليلة الموت، عليك أن تفكري بهؤلاء الذين يحشون في العتمة عن وحش ماكر مكرّ مئة ثعلب، وقادر على تحديد المسافة بدقة تامة في الظلام.

وتيقّني أن أحدًا ما سيموت في القرية قبل نهاية الليل.

ـ ليتهم يتركون النمر.. قالت فاطمة دون أن تبتعد عن النافذة.

ـ ماذا تثرثرين! انفعلت العجوز.. يجب قتله قبل أن يقتلنا وليس هناك حل آخر.

ـ قد يذهب من تلقاء نفسه.

ـ مادام النمر قد اقترب من القرية، فلن يذهب حتى يبلغ غايته، تمتمت العجوز، يعلم الجميع أن لا نمور تتجول قرب القرى سوى الكواسر.

ـ لكن هذا النمر لا يشبه الوحش الكاسر.. اعترضت فاطمة.

لم تجبها العجوز، بل اكتفت بنفخة استهزاء.

ـ لم يكن النمر يبعد عني أكثر من عشرين ياردة، قالت فاطمة، وكان من السهل عليه أن يهاجمني لكنه لم يؤذني بشيء فلماذا؟ هل يمكنك تفسير ذلك يا أمي؟

صحيح أنه كان يراقبني لكنني بدوري راقبته. في بادئ الأمر برقت عيناه ثم أصبحتا هادئتين وضجرتين لم ينظر إليّ بحقد.

ـ ها أنت تقولين الترهات ومثلما كان يفعل أبوك.. قالت الأم وهي تدق الجوز بعصبية .

ـ لقد كان يحاول إقناعي أن الريح تغني له، ليت الله يعفو عن كلامي عليه، لكنه كان أحمق أحيانًا.

نظرت فاطمة من النافذة بتجهّم وأنصتتْ.

كان يخيّم على القرية صمت القبور، وكانت البيوت كأنما يلفها كفن.

ضمّت فاطمة يديها المتورمتين وهي تسعى لالتقاط صوت ما، كان قلبها يدق مع ضربات مدّق الجرن الخشبي. وفجأة اخترق جسدها ألم حاد فأمسكت ببطنها.

ـ ما بك يا فاطمة؟ سألت أمها.

ـ لا شيء، تمتمت وهي تكز على أسنانها.

ـ ابتعدي عن التيار البارد، واستلقي!

شعرت فاطمة بالألم يزداد تارة ويختفي تارة أخرى، وما إن أغمضت عينيها حتى رأت أمامها ثانية النمر متخفيًا بين الأعشاب الطويلة، عيناه ممتلئتان بالدم وبراقتان أول الأمر ثم متعبتان وهادئتان بعد ذلك.

وفجأة سمعت صوت إطلاق رصاص بعيد، تبعه آخر.

ارتجفت فاطمة وكأن النار قد أطلقت عليها.

ثم تفجرّ صوت النمر، مملوءًا بالألم والغضب. ولكأن هذا التّرمخُر الطويل لحيوان يحتضر قد ملك وجودها تمامًا لمدة بضع ثوان، وأرادت أن ترد بالصدى على هذا الجئير. توتّر وجه فاطمة من الألم وكسا العرق جسدها وانطلقت تنهيدة من صدرها.

ـ يا إلهي أخذت تندب العجوز.

هل ساءت حالك؟ ما حصل؟ اذهبي للنوم.استلقي. هل بدأت؟

ـ إنه الطلق يا أمي . أنّت فاطمة وهي تكاد تختنق.

اصطحبتها أمها إلى الحصير وساعدتها على الاستلقاء وأخذت العجوز تبكي في رعب.

ـ يا له من وقت رائع للولادة، ابقي مستلقية ريثما أحضّر لك شرابًا ساخنًا. فلن استطيع أن أجيئك بالقابلة قبل عودة الرجال، يا لها من ليلة على حظّك يا عجوز يا مسكينة.

وبينما كانت فاطمة مستلقية على الحصير، مغمضة عينيها بإحكام كانت أمها تسخّن الماء وتتمتم.

ـ صه.. قالت العجوز: يبدو أن الرجال قد عادوا ، إني أسمع صوتًا.

فتحت العجوز الباب بحذر ونادت أحدًا ما. فاقتحم صبي الباب وهو يصيح:

ـ محمود رائع يا عمتي، لقد قتل النمر وأتوا به إلى هنا! إنه نمر عملاق! لقد دافع عن نفسه ظلّ حيًا بعد رصاصتين فأجهزوا عليه بالرماح! أو تدرين ماذا اكتشفوا؟

نظرت فاطمة إلى الصبي.

أما العجوز فأدارت رأسها الصغير المجّعد إليه بصبر نافد: ماذا اكتشفوا؟

ما إن قتلوا النمر حتى أخذ شيء قربه بالمواء والبكاء! أضاؤوا القناديل وإذا بثلاثة أشبال صغيرة جدًا، ما تزال عمياء. قال محمود إن عمرها لا يتجاوز ساعات، لعّل اللبوة كانت تحمي أولادها. وقال محمود إن ثمن الأشبال سيكون ممتازًا.

أنّت فاطمة من الألم وتعرّق جبينها.

فصاحت : أمي.

دفعت العجوز الصبي نحو الباب.

ـ أحضر القابلة، بسرعة! القابلة!

جحظت عينا الصبي، وراح يركض مشدوهًا صوب القابلة.

صفحات من الاستشراق الفنلندي

عوض البادي

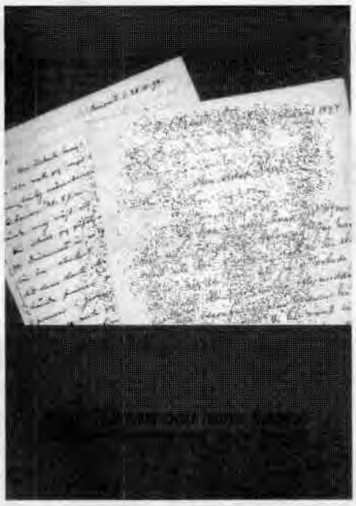
عند الحديث عن الاستشراق (دراسة الشرق) الأوروبي تبرز إلى الذهن تصورات مختلفة عن كنه ظاهرة الاستشراق نفسها، ودوافعه وأهدافه؛ وتنبع هذه التصورات التي تختلف فيما بينها اختلافاً جذرياً، من الظروف التي أحاطت بنشوء هذه الظاهرة. فهي عند الكثيرين - في الشرق - ارتبطت ببدء مراحل الصراع الديني والسياسي والعسكري بين الغرب والشرق بما فيه من شعوب عربية وإسلامية وغيرها، والذي أسفر في نهاية المطاف عن استعمار الأول للآخر. يتجاهل هذا الرأي - الاعتقاد - التعميمي «حقيقة» أن غريزة الرغبة في السيطرة والهيمنة على الآخر قد وجدت قبل أن يكون هناك استشراق بالمعنى المتعارف عليه.



المستشرق جورج أوغست والن (الشيخ عبد الولي)

تثبت أحداث التاريخ العالمي أن استعمار الواحد للآخر كان بصورة شبه منتظمة، ويتوقف على وجود عناصر القوة التي تسمح بذلك، بما في ذلك عنصر معرفة الآخر. ويتجاهل هذا القول أيضاً حقيقة أن دراسة الشرق في الغرب وجدت في أماكن كثيرة؛ فنجده يزدهر في دول لم يكن لها أهداف استعمارية، وليس لها أي تاريخ استعماري أو تنصيري، فكانت الدوافع العلمية أساس وجود الظاهرة الاستشراقية فيها. ومن الدول التي وجد وازدهر فيها الاستشراق فنلندا التي هي، كما يتضح لاحقاً، آخر دولة يمكن أن يكون لها أية أطماع خارجية. ومن خلال الاطلاع المباشر، والسفر إلى فنلندا بهدف دراسة حياة المستشرق الفنلندي جورج أوغست والن

وآثاره بتكليف من دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، ولقاء بعض المستشرقين، ومن خلال الاطلاع على المطبوعات التي تناولت الاستشراق الفنلندي، ورصد الأعمال الاستشراقية، أستطيع تأكيد ماذهبت إليه. وبما أن هذه المقالة لا ترمي إلى مناقشة ظاهرة الاستشراق بكلياتها وبما لها وما عليها، بل إلى تعريف التجربة الفنلندية في مجال الاستشراق، الذي يعود تاريخه الى عام ١٦٤٠م عندما تم تأسيس أول جامعة في البلاد هي جامعة مدينة توركو، واتخاذها نموذجًا للاستشراق العلمي، يستحق التسجيل.



مراسلات كنوت تالكفست



المستشرق كنوت تالكفست

فنلندا (سومي):

تحمل فنلندا عالميًا هذا الاسم، واسمها في اللغة الفنلندية سومي، و تقع في أقصى شمال الكرة الأرضية، ويقع ثلث طولها في شمال الدائرة القطبية. وتبلغ مساحتها ٣٣٧٫٠٣٢ كيل مربع، ومعظم مناطقها الداخلية منخفضة عن سطح البحر، وشكل الأرض يتموج بشدة بتلال وسلاسل جبلية وأودية، والكثير من البحيرات الصغرى، ويبلغ عدد هذه البحيرات ستين ألف بحيرة تقريباً، بالإضافة إلى عدد من البحيرات الكبرى. وتغطي الغابات معظم أرضها. ويحيط بها خليج بوتنيا من الغرب، وخليج فنلندا من الجنوب، وينتشر حول سواحلها مايقارب ثلاثين ألف جزيرة.

يتجاوز عدد سكان فنلندا خمسة ملايين نسمة بقليل. والشعب الفنلندي هو مزيج من عدة أجناس. والعرقان الرئيسان هما عرق شرقّ البلطيق، والعرق النوردي الموجود في الشمال الغربي لأوروبا. والمجموعات السكانية تتكون من فنلنديين، وسويديين، وغجر، وروس، ومسلمين (أتراك قازان). واللغتان الرسميتان لفنلندا هما اللغة الفنلندية واللغة السويدية التي يتحدث بها اليوم ٦٪ من السكان تقريبًا. واللغة الفنلندية هي من عائلة اللغات الفنلندية ـ الهنغارية (فينو أوغريان)، ومنها اللغة الأستونية وبعض لغات الأقليات في وسط روسيا وشمالها. ولم يتم تبني هذه اللغة لغةً رسميةً إلا عام ١٨٦٣م، على الرغم من أن البدء في كتابتها قد أقر في القرن السادس عشر الميلادي. وكانت اللغة السويدية هي اللغة الرسمية بحكم تبعية فنلندا للمملكة السويدية التي استمرت من عام ١١٥٥م حتى عام ١٨٠٩م. بدأ اعتناق الشعب الفنلندي للمسيحية خلال القرن الحادي عشر الميلادي، وترسخت المسيحية في فنلندا بعد أن غزا ملك السويد أراضيها عام ١١٥٥م وساد فيها المذهب الكاثوليكي.

بقيت السيطرة السويدية على فنلندا حتى عام ١٨٠٩م عندما تنازلت عن فنلندا إلى روسيا بعد الهزيمة السويدية في حربها مع روسيا. وأصبحت فنلندا دوقية تابعة للإمبراطور الروسي ولكنها تتمتع بالحكم الذاتي، ولها دستورها الخاص ومجلسها التشريعي وحكومتها وإدارتها وقوانينها ومحاكمها الخاصة وجيشها وعملتها، وأصبحت جمهورية بموجب تعديل في دستورها عام ١٩٠٦م، ومنحت المرأة حقوقها السياسية الكاملة، واستمر الارتباط بالتاج الروسي حتى قيام الثورة البلشفية الروسية ١٩١٧م، حين مُنحت استقلالها.

معرفة الذات تقود إلى معرفة الآخرين

الشعب الفنلندي من أكثر شعوب الأرض تقديرًا للثقافة ورموزها لأنها كانت وسيلته لمعرفة الذات

حددت هذه الطبيعة الجغرافية والسكانية والعرقية، وكذلك التطور التاريخي لفنلندا طبيعة الثقافة السائدة بها، ورؤية هذه الثقافة للآخرين. فارتباطها بالسويد جعل من اللغة السويدية لغة الاتصال الرسمية الوحيدة لعدة قرون، لكون لغة الشعب الأصلية لغة غير مكتوبة، وثقافته ثقافة شفوية، ولكنّ انتشار التعليم في هذه اللغة أيقظ وعيها لذاتها. وارتباطها بروسيا قادها إلى بحثها عن هذه الذات وتأكيد وجودها. أطلقت عملية البحث هذه خلال القرن التاسع عشر حركةً علميةً كبيرةً هدفُها إيجاد صورة بينة المعالم عن فنلندا وطنًا وشعبًا. وكانت النتيجة لهذه العملية

تحقيق إنجازات في مختلف الميادين العلمية.

لقد تم تحويل الثقافة الشفوية إلى لغة مكتوبة، وتمّ جمع التراث الشعبي؛ فجُمع أكثر من مليون ونصف المليون مخطوطة مصنفة تشمل الشعر القديم ، والأغاني الشعبية للفنلنديين. وازدهر الفن المعبر عن الذات، وتشكلت مدارس متميزة في الأدب والنحت والرسم والمسرح والموسيقى؛ ولهذا، وللدورالذي أدّته الثقافة في تحرير الذات ومعرفتها وتأكيدها نجد أن الشعب الفنلندي من أكثر شعوب الارض تقديراً للثقافة ورموزها الثقافية، ويلمس الزائر للمدن الفنلندية هذا من خلال التماثيل المنصوبة لهم والشوارع المسماة بأسمائهم، وإبقاء ذكراهم من خلال أعمالهم العلمية والإعلامية.

وبالنسبة إلى الآخرين وخلال عملية البحث عن أصل الشعب الفنلندي وأصل لغته تم اكتشاف ثقافات ولغات شعوب أخرى ساهمت في تقدم المعرفة العالمية لهذه الشعوب ؛ فعلى سبيل المثال، زار عالم اللغة الفنلندية ماتياس كاسترين في أربعينيات القرن التاسع عشر مناطق شمال روسيا وسيبيريا، ليدرس لغات الأقوام التي لها علاقاتُ قربى بالشعب الفنلندي الأصلي، فدرس أربعين لهجة ولغة من عائلة اللغة الفنلندية ـ الهنغارية، وعائلة اللغة المنغولية ـ التركية وغيرها. وقد استطاع اكتشاف القرابة بين العائلتين الفنلندية الهنغارية والسامودية السيبيرية. لكن هذا الاكتشاف قاد إلى نشر ١٢مجلداً، في عام ١٨٥٣م، لكتاب باللغة الألمانية تحت اسم «رحلة واستكشاف لبلاد الشمال»، يشمل كل شيء عن شعوب تلك المناطق. وهكذا قادت هذه العملية إلى ازدهار دراسة الآخر في فنلندا بما في ذلك الشرق خلال القرن الماضي، والمستمرة حتى اليوم في جامعة هلسنكي.

الاستشراق في فنلندا

لا تؤكد المصادر التاريخية المتوافرة وجود اتصالات أو علاقات ثابتة بين دول منطقة الشمال الأوروبي وشعوبها من ناحية، والعرب والمسلمين في عصورهم الزاهرة من ناحية أخرى. إلا أنه مع ذلك، ومن خلال الحفريات الأثرية في فنلندا تم اكتشاف مجموعات كبيرة من النقود العربية والحلي مدفونةً أو مخبأة، ويعود تاريخها إلى العصر العباسي، وهي معروضة اليوم في متحف هلسنكي الوطني، ولكن ذلك لا يؤكد وجود علاقة واضحة بين الجانبين، لتحديد خلفية معينة لبدء الاستشراق الفنلندي .

وقد ذكرنا سابقاً أن أول جامعة أُسِّست في فنلندا كانت جامعة توركو، عاصمة فنلندا في حينه، وذلك في عام ١٦٤٠م، وكانت لغة التعليم فيها اللغة السويدية. وبدأت الدراسات الاستشراقية فيها في الفترة نفسها، وكان موضوعها ينصب على تعليم اللغات الشرقية. وضمت هذه اللغات، بالإضافة إلى اللغة العربية، اللغات العبرية واليونانية، وبقي هذا الوضع حتى شبَّ حريق في المدينة قضى عليها في عام ١٨٢٨م. فانتقلت العاصمة إلى هلسنكي وكذلك الجامعة، فأصبحت جامعة هلسنكي. مع انتقال الجامعة حدث بعض التطوير الذي واكب التطورات الثقافية الأخرى التي كانت تشهدها فنلندا بعد أن أصبحت دوقية مستقلة خاضعة للتاج الروسي؛ فتمّ تأسيس قسم خاص للاستشراق، وزاد الاهتمام باللغات العربية والعبرية والفارسية والتركية، واستُحدِث منصب أستاذ كرسي لهذا القسم.

شهدت الدراسات الاستشراقية بانتقال الجامعة الفنلندية الأولى إلى هلسنكي نقطة البداية لتحول نوعي في الاستشراق الفنلندي، وبروز مساهماته الحقيقية في الدراسات العربية والإسلامية. ففي عام ١٨٣٠ نشر البروفسور كارل غوستاف شوستات أطروحته عن الكاتب عربشاه باللغة اللاتينية، وألقى محاضرات حول مقامات الحريري. وجذب قسم الاستشراق مجموعة من الطلبة الذين أسهموا فيما بعد في رفع شأن الاستشراق الفنلندي، ومنهم المستشرق والرحالة الشهير جورج أوغست والن الذي كانت أطروحته حول «الفروق الأساسية بين اللغة العربية الفصحى والحديثة» وكتبها باللغة



بيروت قديمًا



اللاتينية في عام ١٨٣٩م. وكانت مساهمات والن كبيرة في تطور الدراسات العربية في جامعة هلسنكي لأنه رحل إلى بلاد العرب، وتجول في مصر والجزيرة العربية والعراق وإيران خلال الأعوام ١٨٤٥و١٨٤٧م، لدراسة عاداتها وتقاليدها ولهجاتها وعاد بحصيلة علمية كبيرة، لاتزال آثارها باقية حتى اليوم في الاستشراق الفنلندي، وحمل معه عدداً من المخطوطات العربية. شغل والن منصب أستاذ كرسي الدراسات الشرقية في جامعة هلسنكي في عام ١٨٥٢م، ولكن القدر لم يمهلة فتوفي في العام نفسه وهو لم يتجاوز الحادية والأربعين من عمره.

جاء بعد والن مجموعة من المستشرقين المتميزين منهم : فلهالم لاغوس، الذي اشتهر بأبحاثه حول اللغة السنسكريتية، وله كتاب «قواعد اللغة العربية» بأربعة اجزاء، ونُشر باللغة السويدية في الأعوام ١٨٦٩ـ ١٨٧٨م. وأرنست أوغست ستراند الذي كانت أطروحته عن «الضمائر العربية»، وقد نقل قصائد عربية إلى اللغة السويدية، كما أن له بحوثًا حول لغة بلاد ما بين النهرين وحضارتها. والمستشرق الشهير كنوت تالكفست الذي شغل مركز أستاذ كرسي الدراسات الشرقية، وقام برحلات الى بلاد الشام ومصر، وجمع مواداً عن اللهجات والتقاليد العربية والمخطوطات. وحقق جزءًا من مذكرات والن في عام ١٩٠٥م ونشره. وكان وراء ازدهار دراسات بلاد ما بين النهرين في فنلندا، واستمر في عطائه حتى وفاته في عام ١٩٤٩م، حيث كان قد بدأ بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفنلندية ولم يتمكن من إنهائه. وأكمل العمل من بعده المستشرقان أرماس سالونن ويوسي أرو في عام ١٩٥٧م. وليوسي أرو مساهمات كبيرة في كتب نشرها حول الحضارة العربية باللغة الفنلندية، وترجم كتاب «الأيام» لطه حسين، وكتاب حول اللهجات والحكايات اللبنانية، وفهرساً عن المخطوطات العربية والفارسية والتركية في جامعة هلسنكي. أما أرماس سالونن فله العديد من الكتب حول لغات بلاد الرافدين وحضارتها، كما نشر كتابًا بعنوان «شعب الله المختار» يتناول فيه العرب والحضارة العربية. وكذلك المستشرق هاري هولما الذي نشر كتابًا بعنوان «حياة وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم» باللغات الفنلندية والسويدية والفرنسية.

بالإضافة إلى هؤلاء المستشرقين برز آخرون في الدراسات الآثارية الآشورية والفرعونية والحضارة المصرية، ونشروا كتبًا حولها، منهم أركي سالونن وسيمو باربولا، ورستسلاف هولتهوار وتاباني هارفيين وإيلماري كاركي.

وأبرز المستشرقين اليوم هايكي بالفا رئيس كرسي الدراسات العربية والإسلامية في قسم الدراسات الآسيوية والإفريقية بجامعة هلسنكي، وهو متخصص باللهجات البدوية العربية، وله عدة كتب حولها. وكذلك المستشرق كاي أورنبرغ وهو متخصص بالتاريخ العربي، وكذلك بحياة جورج أوغست والن المذكور سابقًا وكتاباته، وحقق عدة كتب، منها كتاب بعنوان «فروع فاطمة الزهراء» ومخطوطة كتاب «الطبيخ» لأبي سيّار الوراق بالاشتراك مع سحبان مروة. وهلينا هالنبيرغ وأرميلي بيرهو اللذان نشرا معًا كتاب «مقدمة للصوفية»، ودراسات أخرى. ويُدرِّس اللغة العربية في جامعة هلسنكي الأستاذ فاروق أبو شقرا اللبناني الأصل منذ عام ١٩٧٢م، وله ترجمة لفصل من كتاب «رحلة ابن فضلان» الخاص بشعب الفايكنغ للغة السويدية، وعدة ترجمات حول فنلندا للغة العربية.



وكذلك يُدرِّس اللغة العربية الأستاذ سحبان مروة وهو لبناني أيضًا وله ترجمات مهمة للغة العربية منها ملحمة «الكالافالا»، وهي ملحمة الشعب الفنلندي، وتتألف من خمسين نشيداً وحوالي ٢٣ ألف بيت شعري، وتضم تاريخ الشعب الفنلندي وأساطيره ومغامراته وعواطفه. كما ترجم إلى العربية عدداً من الروايات الفنلندية.

بالإضافة إلى الدراسات الاستشراقية الأكاديمية التي تتم من خلال جامعة هلسنكي، أسست مجموعة من المستشرقين الفنلنديين جمعية المستشرقين عام ١٩١٧م بهدف نشر الوعي حول اللغات والحضارات الشرقية ونشر أعمال المستشرقين ودراساتهم، ولهذا الغرض أنشئت دورية الدراسات الشرقية Studia Orientalia، التي نُشِرت من خلالها أغلب أعمال المستشرقين الفنلنديين، وهي مستمرة في الصدور حتى اليوم. كما أنشئت في عام ١٩٦٩م «جمعية المصريات»، وترمي إلى تشجيع دراسة حضارة مصر القديمة.

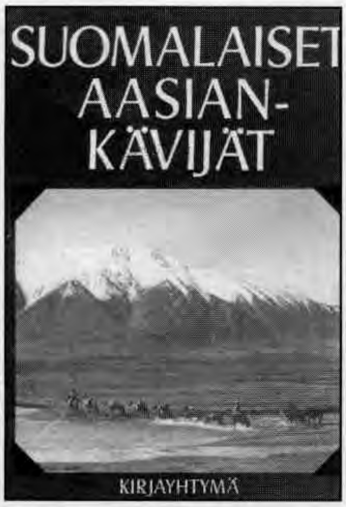
إن ما سبق من استعراضٍ لوضع الاستشراق الفنلندي واهتمامات العاملين فيه يوضح عراقة الدراسات الاستشراقية فيها، ولتقديم نموذج توضيحي لطبيعة ما تناوله الاستشراق الفنلندي الذي

يمثل المستشرق جورج أوغست والن أبرز رموزه بما له من مساهمات علمية في مجال الدراسات العربية.

أوضح لي المستشرق كاي أورنبري أستاذ التاريخ العربي في جامعة هلسنكي والمتخصص بحياة والن وكتاباته، الذي نشر عنه الكثير من الدراسات، في لقاء معه، أن الوسط العلمي الفنلندي الذي كان همه يرتكز على دراسة المناطق ذات العلاقة بفنلندا وشعبها، استغرب حماسة والن لدراسة العرب، ورغبته في زيارة مناطقهم. وأنهم نظروا إليه نظرة غير جدية بل شككوا في وطنيته، فكيف يذهب بعيداً من وطنه، وهويبحث عن ذاته، يحتاج إلى مواهبه في مناطق أخرى. وأن هذا الوسط العلمي نفسه بعد عودة والن من رحلاته في بلاد العرب وتقديمه لبعض مساهماته العلمية وحصوله على الشهرة الخارجية رحّبَ به أشد الترحيب وعده مفخرة الاستشراق إن لم يكن العلم الفنلندي بأكمله ، وأن أستاذ كرسي اللغة العربية الذي كان أستاذ والن جعله يخلفه في منصبه ليصبح والن أستاذ كرسي اللغة العربية في جامعة هلسنكي، ولكن القدر لم يمهله ولم يكمل العام في هذا المركز العلمي المرموق. ويعدّ والن حتى اليوم في فنلندا رمزاً من رموزها الوطنية.



مخطوط عن المويلح



غلافان من كتب المستشرقين الفنلنديين



من هو جورج أوغست والن؟

ولد هذا المستشرق عام ١٨١١م في جزيرة أولاند الفنلندية. و تلقى تعليمه الأولي في مدرسة كنسية في مدينة آبو العاصمة القديمة لبلاده ، ثم تلقى تعليمه الجامعي وأكمل دراساته العليا في جامعة هلسنكي. ودرس اللغات اللاتينية، والفرنسية والروسية والإنجليزية والألمانية والعربية والفارسية. وعمل محاضراً في جامعة هلسنكي بعد تقديمه لأطروحة، موضوعها «الاختلافات الأساسية بين اللغة العربية الفصحى والحديثة»، وقد نشرت هذه الأطروحة عام ١٨٣٩م، وكتبها باللغة اللاتينية. درس والن بعد ذلك مدة عامين في معهد الاستشراق في جامعة سانت بطرسبورغ في روسيا حيث تلقى تعليماً إسلاميًا على يدي عالم أزهري هو الشيخ محمد الطنطاوي الذي كان أستاذًا في معهد الاستشراق.

تلقى المستشرق جورج أوغست تعليمه في مدرسة كنسية، وأشهر إسلامه في القاهرة واختار لنفسه اسم عبدالولي، وفي رحلة إلى الجزيرة العربية غير اسمه إلى عبد المولى

تقدم والن إلى جامعة هلسنكي بمشروع رحلة إلى مصر والجزيرة العربية، وهدفه كما أوضح في مشروعه هو الرفع من شأن جامعته وخدمة العلم بشكل عام، حيث سيدرس اللهجات العربية المختلفة دراسة مقارنة. وافقت الجامعة على تمويل رحلته وبدأ الإعداد لها وكان ذلك عام ١٨٤١م. و بناءً على نصيحة من أحد أصدقائه الأطباء تأجل سفره مدة ستة أشهر ليتمكن من تعلم بعض الأعمال الطبية والعلاجية، وليسافر كطبيب.

الشيخ عبد الولي في القاهرة

غادر والن فنلندا إلى باريس حيث درس بعض الوقت المخطوطات العربية في مكتبات باريس ، ثم غادرها إلى القسطنطينية التي انتقل منها إلى الإسكندرية التي وصل إليها في كانون الأول/ ديسمبر١٨٤٣م، ومنها انتقل إلى القاهرة ، ليبدأ عملية إكمال تعليمه الديني والاندماج في المجتمع المصري، وليعتاد الظهور كرجل دين في رحلته إلى الجزيرة العربية. وفي القاهرة بدأ حفظ بعض أجزاء القرآن والتعاليم الدينية والقوانين الإسلامية، وتعود الصوم حتى أصبح لا يمكن تمييزه من رجال الدين في مصر، وتسمى باسم «الشيخ عبدالولي».

غادر الشيخ عبدالولي القاهرة في الثاني عشر من شهر نيسان/أبريل عام ١٨٤٥م ومعه دليلان إلى العقبة، ومنها إلى معان حيث قضى بها بعض الوقت ، ثم عبر المنطقة إلى الجزيرة العربية حتى

وصل إلى الجوف، التي مكث فيها مايقارب ثلاثة شهور، ثم توجه إلى حائل فأمضى بها قرابة شهرين. أراد والن التوجه إلى الرياض عبر القصيم، ومنها إلى الخليج إلا أن ظروفه المالية حالت دون ذلك، فانضمّ إلى حملة الحجاج الفرس إلى مكة، فأدى فريضة الحج، ثم ذهب إلى جدة ومنها عاد إلى القاهرة.

مكث والن في القاهرة بعض الوقت يتبادل الرسائل مع جامعته للحصول على بعض المال لإكمال مشروعه والإعداد لرحلة أخرى إلى نجد واليمن. وخلال هذه الفترة زار سيناء والقدس.

الشيخ عبد المولى في الجزيرة العربية

في نهاية عام ١٨٤٧م انطلق والن في رحلته الثانية إلى الجزيرة العربية باسم جديد «عبدالمولى»، وكان يحمل توصيات من القاهرة للإمام فيصل بن تركي آل سعود تعرّف بالشيخ عبدالمولى، وبأنه محبٌّ له، فزار المويلح على البحر الاحمر وتبوك وتيماء ثم حائل حيث قضى بها بعض الوقت. لم يتمكن من زيارة الرياض والوصول إلى الخليج لوجود بعض الاضطرابات في المنطقة، وخوفاً من اكتشاف أمره بأنه غير مسلم، بالإضافة إلى انتشار بعض الشائعات بأنه يعمل لحساب خديوي مصر، ولم يكن كذلك. غادر والن حائل متجهًا إلى العراق فإيران حيث عانى صعوبات كبيرة في رحلته حتى تمكن من الوصول إلى القاهرة ثم لندن ففنلندا عام ١٨٥٠م. بعد عودته إلى بلاده تم تعيينه أستاذًا للغات الشرقية في جامعة هلسنكي بعد إعداده أطروحة جديدة عن «ابن الفارض» حيث توفي عام ١٨٥٢م، عن إحدى وأربعين سنة، وهو يعد لرحلة ثالثة إلى الجزيرة العربية.

لم يتمكن والن في حياته من نشر أعماله كافة، ولكنه أعد بعض المواد للنشر، ونشرت بعد وفاته. وكان قبل وفاته ألقى محاضرة أمام الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بلندن في الثاني والعشرين من شهر نيسان/ أبريل ١٨٥٠م عن رحلته الثانية للجزيرة العربية، وكانت بعنوان «ملاحظات مأخوذة خلال رحلة عبر جزء من شمال الجزيرة في ١٨٤٨م». ولم تنشر تلك المحاضرة إلا عام ١٨٥٢م في دورية الجمعية. أما ما كتبه عن رحلته الأولى فقد نُشر في الدورية نفسها عام ١٨٥٤م وكانت بعنوان «قصة رحلة من القاهرة إلى المدينة ومكة عبر السويس، عربه، طفيله، الجوف، جبه، حائل، ونجد، في ١٨٤٥م»، كما نُشر له في هذه الدورية الشهيرة «قصة رحلة من القاهرة إلى القدس عبر جبل سيناء» في



قاعة للاحتفالات والمؤتمرات من معالم هلسنكي

عام ١٨٥٥م. كتب والن جميع هذه الدراسات المشار إليها باللغة الإنجليزية، و كتب بعض الدراسات باللغة الألمانية، ومنها دراسات حول بعض القصائد العربية التي جمعها في رحلاته، وتمّ نشر بعضها في مجلة الجمعية الألمانية للاستشراق خلال عامي ١٨٥١م -١٨٥٢م.

الموضوعية ومهمة كتاباته

يُعد والن أحد رواد اكتشاف الجزيرة العربية وأكثرهم علمية وموضوعية، حتى إن أحد مؤرخي تطور المعرفة الغربية عن الجزيرة العربية ديفيد هوغارث عدّه أحد أقدر الأوروبيين الذين وطئوا أرض الجزيرة العربية، وأنه مكتشف علمي من الطراز الحديث، لأنه كان

وصل عبدالمولى إلى الجوف ثم إلى حائل، ولم يكمل رحلته إلى الرياض عبر القصيم لضيق ذات اليد



خريطة تبين طريق رحلات والن إلى الشام ومصر والجزيرة العربية

«مُعَدًّا بشكل كامل وعاقداً العزم على ألا يترك شيئًا لأي أحد يمكن أن يأتي بعده».

امتازت كتابات والن بالموضوعية والعلمية، ولم يكتب أي شيء عن المناطق التي زارها بطريقة الرحالة التقليديين، بل كتبها كدراسات علمية مستنداً على خلفية تراثية جيدة، فنجده لا يكف عن الرجوع إلى الكتب التاريخية والجغرافية والدينية، وحتى في مذكراته التي جمعت فيما بعد لم يكن له موقف مسبق في إصدار أحكامه على من قابلهم أو عاش معهم. بل ومن الاطلاع على أوراقه الخاصة - وقد فعلت ذلك شخصيًا - المحفوظة في جامعة هلسنكي يتبيّن أنه كان معجباً بحضارة العرب وتاريخهم، ومحباً لهم، وله أقوال يتمنى فيها أن يموت بينهم.

لم ينل والن حقه من الدراسة، وارتكزت شهرته خارج فنلندا على المواضيع التي نشرت له باللغة الإنجليزية والألمانية، أما جل أعماله الأخرى فكتبها باللغة السويدية، ولعدم انتشار هذه اللغة بقيت تتداول في فنلندا والسويد. كما نشرت عنه كتب ودراسات كثيرة باللغتين الفنلندية والسويدية، ويجري العمل على إعادة نشر أعماله. ونظراً لعدم تمكنه من تفريغ الكثير من المعلومات الموجودة في أوراقه الخاصة (بعضها باللغة السويدية مكتوبة بحروف عربية) ولصعوبة قراءة خط يده، فقد عكف أحد العلماء (س.غ. ال مقرين) في القرن الماضي على إعداد مراسلاته ويومياته ونشرها في أربع مجلدات باللغة السويدية، ثم أعد عالم آخر هو كينوت تالكفست جزءًا خامسًا للمراسلات، التي لم تضمها المجلدات الأربعة. ويجري العمل على تفريغ معلومات أخرى ليعاد إصدار مجموعة هذه المذكرات بطبعة جديدة.

أهم أعمال والن المنشورة حتى اليوم، بالإضافة إلى الأطروحتين الجامعيتين، وهي:

١ـ خمسة مجلدات تشمل يومياته ومراسلاته خلال رحلاته (٢٥٠٠ص) وتشمل رحلاته في مصر والجزيرة العربية والعراق وإيران وفلسطين وسورية ولبنان.

٢ـ كتاب تفاصيل الأيام الأولى من رحلته إلى الجزيرة العربية الذي توفي وهو يكتبه.

٣ـ المحاضرات الثلاث المنشورة باللغة الإنجليزية التي تمت الإشارة إليها سابقًا.

٤ـ مجموعة من الدراسات التي نشرها والن عن الشعر الشعبي في شمال الجزيرة والمنشورة باللغة الألمانية، والأشعار مكتوبة باللغة العربية، وبعض هذه القصائد غير معروفة، وكان يمكن أن تندثر نهائيًا لو لم يسجلها والن، وهي قصائد وطنية وغزلية، وتضم أوراقه قصائد كثيرة لم تنشر بعد. وجميع هذه المطبوعات موجودة الآن في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

لقد أثار انتباهي عند زيارة (للمعرفة) ضريح والن في هلسنكي وجود صخرة غريبة الشكل وكبيرة الحجم على القبر تخالف جميع القبور في المقبرة، و كتب عليه اسم «عبد الولي» بهذا الشكل وبحروف مذهبة، ولم تكتب أية معلومات أخرى كما هو معتاد على القبور الأخرى. وعند السؤال عن السبب تبين: أن الصخرة ترمز لطبيعة شخصيته وحياته الصعبة التي عاشها، وأن عدم وجود أي معلومات أخرى كتاريخ ولادته وتاريخ وفاته رمز لخلوده بما حققه للعلم في فنلندا، وعدم وجود إشارة الصليب تشير الى أنه قد يكون مات مسلماً.

دنانير هارون الرشيد الذهبية

نايف الشرعان

كان هارون الرشيد بحق أعظم خلفاء بني العباس، وقد تحدث عنه العلماء والقصاصون وأصحاب السير الشعبيةَ. وأعمل كثير منهم خيالهم في كتاباتهم حتى غدا هذا الخليفة المؤمن الذي كان حريصا على أمور الدولة، مخلصا في متابعة شؤونها، غدا أسطورة. فهو في كتاباتهم كسوب ومتلاف، وصاحب سهر وسمر، وشراب وطرب، وميل إلى الجواري الحسان، والمطربات من القيان، وأنه كان ينفق في شرائهن مئات الألوف، ويبالغ في الإكثار منهن، ويغدق عليهن الأموال من دون حساب.



دينار عباسي ضرب سنة ١٧٨هـ. بأمر جعفر البرمكي حاكم مصر

على أن كتب التاريخ والسير التي يتوخى أصحابها الدقة في الخبر، يذكر أصحابها ما حفل به عهد الرشيد من إنجازات كبرى، وما قدَّمه من أعمال جليلة في خدمة الإسلام ونشره، وبناء الدولة. وسنتناول في هذا المقال إبراز هذا جهود الرشيد في سكّه للدنانير والدراهم، وتطورها، ودلالة ما نقش عليها على الأحداث السياسية والاجتماعية والإدارية في زمنه، وإن كان المقال لا يخلو من ذكر بعض ما ذاع وشاع وملأ الأسماع من إتلاف المال، والسرف في الإنفاق.

النقود الذهبية كانت سببا في مقتل جعفر البرمكي

النقود وسيلة إعلامية

عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ١٧٠ ـ ١٩٣هـ (٧٨٦ ـ ٨٠٩م) العديد من التطورات النقدية. فالخليفة هارون الرشيد يعد من أوائل الخلفاء العباسيين الذين أحدثوا تطورًا مهمًا في نظام النقود. فمنذ الوهلة الأولى لتوليه الخلافة بعد مقتل أخيه الخليفة الهادي سنة ١٧٠هـ وإعادة تنصيب هارون خليفة بدل جعفر بن الهادي الذي نصبه أبوه وليًا للعهد بدلاً من هارون الرشيد، أمر الرشيد بسك نقود جديدة دنانير ذهبية ودراهم فضية سنة ١٧٠هـ نقش في مركز الظهر (محمد رسول الله مما أمر به عبدالله هرون أمير المؤمنين). ولعل هذا التطور أو التغيير الذي حدث أول مرة على المسكوكات الإسلامية له





دينار عباسي
ضرب سنة ١٧٨

ما يسوّغه. فالغاية الرئيسة من وضع اسمه ولقبه أمير المؤمنين على نقوده تلك كانت تأكيد سلطته الشرعية خليفة للمسلمين، ولإعلام الناس بأنه هو الخليفة، وليس جعفر بن الهادي.

بعد ذلك حدث تطور آخر تمثل بظهور أسماء بعض ولاة الخليفة على الأقاليم الإسلامية على الدنانير الذهبية مثل (علي) سنة ١٧٠هـ، و(موسى) في السنوات ١٧١ ـ ١٧٥هـ، و(عمر) في السنوات ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤هـ، و(داود) في سنة ١٧٤هـ، و(إبراهيم) في سنة ١٧٦هـ، وأخيرًا (جعفر) منذ سنة ١٧٦هـ حتى سنة ١٨٦هـ. وبذلك تكون الدنانير الإسلامية في عهد الخليفة هارون الرشيد قد سجلت تطورًا كبيرًا حين صار ينقش عليها أسماء الأمراء والولاة ذوي المكانة الرفيعة في الدولة العباسية.

ولعل أهم التطورات النقدية التي حدثت خلال فترة حكم الخليفة هارون الرشيد هو ترفعه عن مباشرة العيار بنفسه، وإشرافه على دار السكة كأول خليفة في الدولة الإسلامية يتخذ مثل هذا القرار. يقول المقريزي: «فلما صيّر هارون الرشيد السكك إلى جعفر بن يحيى البرمكي كتب اسمه بمدينة السلام وبالمحمدية من الري على الدنانير والدراهم.. وهارون الرشيد أول خليفة ترفع عن مباشرة العيار بنفسه، وكان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم. وكان هذا ما نوّه باسم جعفر بن يحيى، إذ هو شيء لم يتشرف به أحد قبله».

مقتل جعفر ونهاية البرامكة

الأدلة النقدية المتوافرة تؤكد ما ذكره المقريزي، فقد استمرت النقود العباسية في أثناء خلافة الرشيد تحمل اسم جعفر بن يحيى من سنة ١٧٦هـ حتى سنة ١٨٦هـ، أي قبل ما يزيد على شهر من قتله. إذ أمر الخليفة هارون الرشيد بإعدامه في ٥ صفر ١٨٧هـ. بعد أن تجمعت لدى الخليفة هارون الرشيد الأسباب والأدلة المقنعة التي أوجبت قتله، كالثراء الفاحش وغير المشروع، وتوغله في عنصريته الفارسية، ومحاولته سحب البساط من تحت الخليفة. ولقد أفاضت المصادر التاريخية بذكر العديد من أسباب نكبة البرامكة، إلا أن هناك سببًا آخر له علاقة كبيرة بالسكة ويراه بعض المؤرخين وعلماء السكة أحد الأسباب الرئيسة التي أدت إلى قتل جعفر البرمكي.

ويتلخص هذا السبب بأن جعفر بن يحيى قام بسك دنانير صلة (ميداليات) يزن كل دينار منها (١٠١) مثقال، علمًا بأن وزن الدينار الشرعي الواحد يساوي مثقالاً واحدًا. نقش على هذه الدنانير صورة جعفر بن يحيى، وقد وصف الشاعر أبو العتاهية تلك الدنانير بقوله:

وأصفرَ من ضرب دار الملوك
يلوح على وجهه جعفرُ



دينار سنة ١٧١ هـ



دينار سنة ١٧٧ هـ



دينار سنة ١٨٥ هـ

ونهاية عصر البرامكة



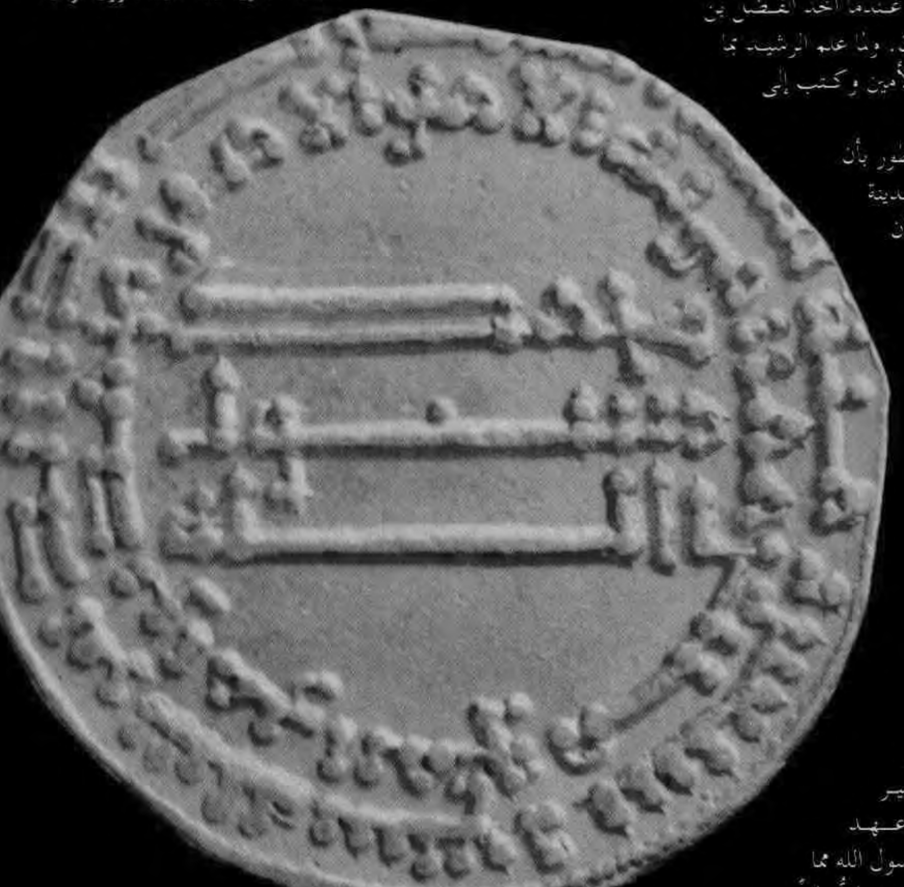
دينار عباسي ضرب سنة ١٧٧ هـ. بأمر محمد الأمين، أيام الخليفة هارون الرشيد

يزيد على مئة واحداً
إذا ناله معسرٌ يوسرُ

من المحتمل أن تكون هذه النقود الذهبية الثقيلة الوزن من أهم الأسباب التي أدت إلى مقتل جعفر ونهاية البرامكة. وبعد هذه الحادثة لم ينقش على الدنانير العباسية أي اسم حتى نهاية عهد الخليفة هارون الرشيد ١٩٣هـ. عدا بعض الحروف التي ربما كانت ترمز إلى أسماء المشرفين على دار السكة آنذاك.

أسماء أولياء العهد على النقود

واكبت النقود التطورات السياسية التي شهدها عهد الخليفة هارون الرشيد. ذلك عندما قام بتولية أولاده الثلاثة بالتعاقب: محمد الأمين، يليه عبدالله المأمون، ثم القاسم المؤتمن. وعلى الرغم من أن المأمون هو الابن الأكبر لهارون الرشيد إلا أنه لم يحظَ بحق البيعة. ذلك لأن أمه كانت أم ولد. بينما كان الأمين الابنُ الثاني، ابنَ عباسية هاشمية هي زبيدة بنت جعفر، التي كانت تسعى لينال ابنها ولاية العهد. وكانت ذات نفوذ فعملت مع أخوال الأمين، ومع يحيى بن خالد على أخذ البيعة لابنها من الجند والرعية. وقد تحقق ذلك عندما أخذ الفضل بن يحيى البيعة من الجند ومن أهل خراسان. ولما علم الرشيد بما حدث بايع لمحمد سنة ١٧٥هـ ولقبه بالأمين وكتب إلى الأمصار لأخذ البيعة.



وبالفعل، فقد واكبت السكة هذا التطور بأن خلد الرشيد هذا الحدث بإصداره في مدينة السلام نقداً فضيًا نقش عليه ما يفيد بأن ولي عهده هو الأمين. نقش في مركز وجه هذا النقد شهادة التوحيد «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وفي الهامش «حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم». في حين نقش في مركز الظهر «لولي العهد محمد بن أمير المؤمنين». أما الهامش فقد تضمن «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». بعد ذلك نقش على النقود العباسية في عهد الرشيد ما يوثّق هذه البيعة حسب ترتيب ولاة عهده إذ نقش في مركز الظهر «محمد رسول الله مما أمر به الأمير الأمين محمد بن أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين». وعلى نقود أخرى «محمد رسول الله مما أمر به الأمير المأمون عبدالله بن أمير المؤمنين وليُّ وليّ عهد

المسلمين». وبذلك يتضح لنا الدور الإعلامي الذي اضطلعت به المسكوكات إبان تلك الفترة وغيرها من العصور الإسلامية.

حادثة فريدة

ومن التطورات النقدية التي سجلت في عهد الخليفة هارون الرشيد، بل هي تُعدُّ حادثة لم يسبق أن مرت على النقود الإسلامية قبل عهد الخليفة هارون الرشيد أو بعده؛ فقد حدث أن قامت السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد بسك النقود، وكان ذلك حقاً منح لها منذ ولاية ابنها للعهد. فقد قامت بسك الدراهم الفضية في الكاملية، والمحمدية، ومعدن با جنيس. وجميعها مدن تقع ضمن إقطاعات السيدة زبيدة، وكان لقبها ينقش على هذه النقود. فأول لقب ورد على نقودها هو «أم جعفر» تلاه لقب «أم الخليفة» وأخيراً «السيدة أم الخليفة»، وهي ألقاب تبرز الأحداث السياسية والفتن التي نشبت بين ابنها الأمين وأخيه المأمون على الخلافة. ومهما يكن، فإن السيدة زبيدة قد تمتعت بصلاحيات لم تتمتع بها زوج أيٍّ خليفة آخر على مر العصور الإسلامية.

هذه بعض التطورات النقدية التي طرأت على المسكوكات العباسية إبان خلافة هارون الرشيد، والتي كان يجري سكها بشكل كبير جداً حتى تفي باحتياجات الدولة والرعية على حد سواء، يتضح ذلك من خلال ما أوردته بعض المصادر التاريخية من مصروفات الخلافة في عهد الخليفة هارون الرشيد. فقد ذكر أنه أنفق عند توليه الخلافة أموالاً لم ينفق مثلها أحد من الخلفاء العباسيين من قبله، كذلك أوردت المصادر، أن إجمالي نفقات الرشيد الخاصة خلال السنة الواحدة تزيد على ٣٫٦٠٠٫٠٠٠ درهم، وأنه كان ينفق على مائدته يومياً ١٠٫٠٠٠ درهم، أما بشأن ما أنفق على زواجه من زبيدة فقد اختلفت المصادر في حصر تلك النفقات، حيث ذكر أن المهدي والد الرشيد أنفق على هذا الزواج ما يزيد على ١٫٣٨٨٫٠٠٠ دينار، وذكر أيضاً أن الرشيد نفسه أنفق من بيت المال ما يقدر بـ (٥٥٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم، كما أن الرشيد قد منح زوجته زبيدة خراج مصر لسنة واحدة قدرت بـ (٣٠٠٫٠٠٠) دينار. كذلك بلغ ما صرفته زبيدة نفسها سواء على المشاريع الخيرية أو غيرها ما يزيد على (٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار.

أما ما صرفه الخليفة الرشيد على بعض جواريه فهي مبالغ كبيرة جداً، فقد ذكر أنه دفع ثمن جارية تعرف باسم خالصة مبلغ (١.٠٠٠.٠٠٠) درهم، وفي جارية أخرى عرفت باسم عنان مبلغ (٢٥٠٫٠٠٠) درهم، وقد جاء في أخبار الليلة الحادية والخمسين بعد الأربعمئة من كتاب «ألف ليلة وليلة» في معرض الحديث عن الجارية «تودَّد» التي دفع الرشيد لصاحبها مئة ألف دينار ثمناً لها.. «قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الخليفة أعطى الجارية خمسة آلاف دينار، وردّها إلى مولاها، وجعله نديماً له على طول الزمان، وأطلق له في كل شهر ألف دينار، وقعد مع جاريته تودد في أرغد عيش، فاعجب أيها الملك من فصاحة هذه الجارية، ومن غزارة علمها وفهمها وفضلها في كل العلوم، وانظر إلى مروءة أمير المؤمنين هرون الرشيد حيث أعطى سيدها هذا المال وقال لها: تمنّي عليَّ، فتمنت عليه أن يردّها إلى سيدها؛ فردها إليه، وأعطاها خمسة آلاف دينار لنفسها، وجعل سيّدها نديماً له؛ فأين يوجد هذا الكرم بعد الخلفاء العباسيين رحمة الله تعالى عليهم أجمعين».

كذلك أنفق الرشيد على العلماء والمدرسين والمربين الشيء الكثير، وأغدق على الشعراء والمغنين مئات الآلاف من الدراهم والدنانير.

وفي ضوء ما سبق طرحه يتضح أن عصر الخليفة هارون الرشيد قد شهد العديد من التطورات النقدية الكبيرة التي واكبت التطورات السياسية والاجتماعية التي عاشتها الخلافة إبان حكمه.



دينار سنة ١٨٦ هـ



دينار سنة ١٨٧ هـ



درهم عباسي ضرب في مدينة السلام سنة ١٧٠ هـ



دينار سنة ١٨٩ هـ



دينار سنة ١٩٣ هـ

نقش لقب السيدة زبيدة على النقود حدث فريد في تاريخ النقود الإسلامية

مصادر الصور:

١ ـ كتاب متحف العملات ومؤسسة النقد العربي السعودي.
٢ ـ المسكوكات الإسلامية (مجموعة خاصة ـ وليم قازان).



دمية «الإيقاع» التي تصور عازفة على آلة موسيقية يابانية

الدمى اليابانية..

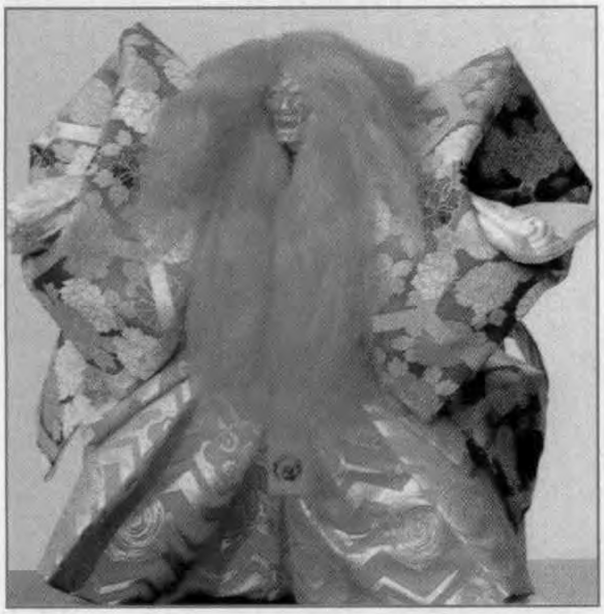
عشرة آلاف عام من التطور الفني

كامل يوسف حسين

على الرغم من صعوبة تحديد تاريخ الإطلالة الأولى للدمى والعرائس على اختلاف أنواعها في حياة البشر، فإن الخبراء يشيرون إلى أن أقدم دمية معروفة على مستوى العالم تعود إلى نحو ٢٤ ألف عام، إذ ارتبطت الدمى بأداء وظائف محددة، منها ما يتعلق بمد جسور الحوار بين الإنسان والقوى المجهولة في الطبيعة التي طالما أثارت خوف البشر، كما أنها استخدمت لاستحضار خواص سحرية بعينها، أو للعب، أو اللهو بها، وأخيرًا لعرضها والاستمتاع بها وبحضورها الزخرفي والجمالي.

الدمى اليابانية .. عشرة آلاف عام من التطور الفني





جانب من دمية نينن داتشي شاكو - التي تصور أسدين يرقصان رقصة مستمدة من مسرح الكابوكي

والدمى اليابانية تندرج في إطار هذه التقاليد الموغلة في الزمن، فتعود الإطلالة الأولى للدمى في اليابان إلى النماذج المبكرة التي ظهرت في مرحلة ما قبل التاريخ، والتي يعتقد أنها كانت لها دلالاتها الروحية والسحرية. والدمى الأولى التي عثر عليها، في هذا المجال، تعود إلى مرحلة جومون الممتدة من عشرة آلاف عام قبل الميلاد إلى ٣٠٠ عام قبل الميلاد، وهي أشكال صغيرة من الخزف والحجر. وفي مرحلة كونون (٣٠٠٠ ق.م. - ٧١٠م) ظهرت أشكال بشرية وحيوانية أكبر حجمًا، وكانت تحيط بمناطق دفن جثث أبناء الطبقات العليا من المجتمع الياباني.

والواقع أن هناك أكثر من مدخل لتحقيق إطلالة معرفية على الدمى اليابانية يعتد بها، منها المدخل التاريخي، ومنها المدخل الوظيفي، وكذلك هناك المدخل المتعلق بتقنيات صنع الدمى.

ومن ناحية التطور الفني التاريخي، يمكن الإشارة إلى ثلاثة عصور:

- عصر نارو كان امتدادًا لعصري أزوتشي - موموياما (٧١٠ - ١٦٠٠م) واستخدمت الدمى في هذه المرحلة لأغراض تتعلق بالتطهير، ومنع الأمراض، ورد المؤثرات السلبية العنيفة، كما أشارت عرائس قديمة تم العثور عليها، وتعود إلى هذه الفترة، إلى استخدامها في اللعب بها.

- في عصر إيدو (١٦٠٠ - ١٨٦٨م) ازدهر صنع الدمى وبدأ انطلاق مهرجان الدمى المعروف باسم «هينا ماتسوري»، وظهرت أنواع



دمية كوتورو التي تصور لعبة أثيرة لدى أطفال اليابان



جديدة من الدمى تستمد قيمتها في المقام الأول من الجوانب الجمالية.

- في عصر ميجي (١٨٦٨ - ١٩١٢م) وامتدادًا إلى الوقت الحالي ظهرت أشكال يابانية من الدمى الغربية في أسواق اليابان، وتحول صنع الدمى إلى فن يلقى الاعتراف والتقدير من الجميع. ومنذ عام ١٩٥٥م اختير خمسة من كبار مبدعي الدمى اليابانيين لحمل اللقب التقليدي «الكنوز الحية».

ويوضح خبير الدمى تيتسورو كيتامورو أن الدمى اليابانية تصنع، عادة، من الخشب، أو الورق، أو الأقمشة، أو الصلصال، وتستخدم في إبداعها تقنيات دقيقة لتحقيق جمال التعبير وغنى الألوان، وهكذا فإنها لم تعد لُعب أطفال، وإنما وصلت إلى مرتبة الفن الراقي، وشكلت نوعا شديد التميز من أنواع المشغولات اليدوية، وهو يضرب مثلاً بدمى جو شونيجو (أو دمى القصر الإمبراطوري) التي تحاكي تقاطيع الأطفال الجميلة، حيث يتم تغطية القاعدة الخشبية للدمية بطبقات متراكبة من مسحوق قواقع المحار، ثم يجري تلميعها ورسم الحاجبين والعينين والفم. وتنحت دمى كيميكومي من الخشب، ويجري كساؤها بأنسجة تلصق باستخدام الغراء، ويتم ضغط أطراف الأنسجة داخل شقوق منحوتة في هيكل الدمية.

ويشير الخبير كيتامورو إلى أن دمى الأزياء - كما يوضح اسمها - تجسيد معاصر للدمى التي تكتسي بثيابٍ عادية. وهي تصمم بأشكال مختلفة، ومتعددة، وتصنع على مراحل متعددة، إذ يصنع الرأس أولاً، ثم يقوم خبير الأزياء بإلباس الكيمونو للدمية، ويصنع اختصاصيون آخرون الذراعين والساقين، ثم يتم تجميع الأجزاء المختلفة في دمية واحدة.

أما الدمى الخزفية، فتعد من أنواع معينة من الطين، وتشوى في أفران خاصة، ثم تطلى بألوان مختلفة، أو بمسحوق القواقع، وفي هذا النوع بصفة خاصة يبرز التباين بين المناطق المختلفة، حيث تحرص كل منطقة على الحفاظ على طابعها المميز في استخدام الألوان.

ويتم إبداع دمى كوكيشي الخشبية عن



نماذج من الدمى اليابانية





طريق استخدام أساليب فنية دقيقة في خرط الخشب ثم تلوينه، وهذا النوع من الدمى ليس قديمًا جدًا؛ وإنما هو يعود إلى عهد إيدو المتأخر، ويتم إبداعه بصفة خاصة في منطقة توهوكو، ومما يميزه بشكل خاص - حتى بالنسبة إلى عيني غير الخبير - أنه يتكون من الجذع والرأس، من دون ظهور الذراعين والساقين.

ولكن ما الذي يستقطب نظر الزائر لأي معرض للعرائس اليابانية؟

الملاحظة الأولى بصدد هذا هي أن العارضين اليابانيين يحرصون على الجمع بين العرائس ومجموعات من الصور التي تلقي الضوء على مهرجان العرائس، وعلى الملامح التقليدية والتراثية في الحياة اليابانية.

ومن أبرز ما يتوقف عنده الزائرون في هذه المعارض «كوتورو» وهي مجموعة دمى تجسد لعبة تلقى شعبية كبيرة في صفوف الأطفال اليابانيين، وفيها يحاول الطفل الذي يحل عليه الدور أن يمسك بالطفل الأخير في صف من الصغار يعمد إلى المراوغة ومحاولة الهرب.

وتعد دمية «كينزوري» (أو خفيف الثياب) من الدمى المميزة كذلك، حيث تبدو فيها فتاة في مقتبل العمر تنتمي إلى النبلاء، وهي ترتدي زيًا مما يستخدم في البلاط الإمبراطوري يعرف باسم «جينهايتو»، يعيد أصداء أجمل ما في المرحلة الهاينية من التاريخ الياباني، التي امتدت بين الأعوام (٨٠٠ - ١٢٠٠).

أما الدمية المعروفة باسم «يوجين توكو كازاري» أو المعركة الأولى للمحارب، فهي غالبًا ما توضع في صدارة المعارض، لتميزها، وما يبذل فيها من جهد إبداعي كبير، وهي من الدمى التقليدية التي يتم إبرازها في «مهرجان الفتيان»، والمشهد فيها يتركز حول محارب شاب، شجاع، يوشك على خوض غمار معركته الأولى، وقد ارتدى حلته العسكرية الكاملة.

وتبدو دمية «كنتارو» مألوفة تمامًا لعشاق فن الدمى اليابانية، فهي تجسد حبيبًا يابانيًا، يتميز بقوته المدهشة، وهو ينتمي إلى الحكاية الشعبية التي تحمل الاسم نفسه، وقد أصبحت هذه الدمية في اليابان رمزًا للصحة الطيبة عند الفتيان.

وفي دمية «كورودا - يوشي» (محارب من قبيلة كورودا) سنجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام أجواء الأسطورة الشهيرة التي تدور حول شجاعة أبناء هذه القبيلة، إذ يبدو المقاتل قد أمسك بحربة، تلقاها تقديرًا لشجاعته.

وفي العديد من الدمى تبدو الصلة الوثيقة بين فن إبداع الدمى اليابانية والمسرح التقليدي الياباني المعروف باسم الكابوكي، ومن هذه الدمى «نينين - داتشي شاكو» (شكلان) وهي تجسد رقصة قوية يؤديها أسدان، هما أب وابنه، يقطنان في واد غامض من أودية اليابان يقع وسط جبال سامقة.

المصادر والمراجع

1 - OMURA KAZUICHI (ED.) - JAPAN: AN ILLUSTRATED ENCYCLOPEDIA - KODANSHA - TOKYO 1993.

2 - THE INTERNATIONAL SOCIETY FOR EDUCATIONAL FORMATION INC. - THE JAPAN OF TODAY 3rd. EDITION - TOKYO 1993.

٣- جولة للكاتب في معرض «عرائس اليابان» الذي انتقل حول العالم لمدة عام.

٤- حوار أجراه الكاتب مع خبير الدمى الياباني كيتسورو كيتامورو.

سابك
sabic



سأل " الممكن " المستحيل:
أين تقيم ؟
فأجابه :
في أحلام العاجز .

عزيزي الأب ..
أسرع بتقديم ابنك المعاق لأحد مراكز ومؤسسات رعاية المعاقين المنتشرة بأنحاء المملكة، ليدربه ويؤهله لأن يكون إنساناً نافعاً لنفسه ولوطنه.

قوة العطاء

جوائز

ساراماجو ... الإبداع

إعداد: قسم التحرير

فاز الروائي البرتغالي جوزيه ساراماجو البالغ من العمر (٧٥ عامًا) بجائزة نوبل للآداب لعام ١٩٩٨م، ليكون بذلك أول أديب يكتب بالبرتغالية يفوز بهذه الجائزة. ويتحدث بهذه اللغة نحو ١٤٠ مليون شخص في العالم.

ولد ساراماجو في أزينياجا - ريباتيجو عام ١٩٢٢م، وهو ينتمي إلى أسرة فقيرة تعمل بالزراعة، ولم يستطع أن يكمل تعليمه النظامي لظروف الفقر التي كانت تعيشها أسرته، بعد أن كان تلميذًا في مدارس لشبونة، فعكف على تثقيف نفسه بنفسه، واضطر إلى العمل منذ صغره، فبدأ حياته ميكانيكيًا، ثم عمل رسامًا، وصحفيًا، ومترجمًا، فعمل اثني عشر عامًا في دور للنشر في قسمي التحرير والإنتاج، وكتب مراجعات أدبية لجريدة سيارا نوفا، ثم عمل معلقًا سياسيًا لجريدة دياريو دي لشبونة في عامي ١٩٧٢م و١٩٧٣م. وكان يحرر ملحقها الثقافي مدة عام، ثم عمل نائبًا لرئيس التحرير من أبريل/نيسان إلى نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٧م. ومنذ عام ١٩٧٦م بدأ جادًا في عملية الكتابة.

وقد صرح بأن أول كتاب اقتناه كان في سن الثامنة عشرة، ولم يبدأ في التأليف إلا في سن الخامسة والعشرين، وكان ذلك في عام ١٩٤٧م حين وضع روايته «أرض الخطيئة»، ثم انصرف عن التأليف، فلم يضع كتابه الثاني «قصائد ممكنة» إلا في عام ١٩٦٦م، ويعلق على ذلك بقوله: إنه لو كان قد مات في سن الستين لَمَا ترك شيئًا له قيمة.

وكانت روايته «مانويل بالرسوم والكتابة» الصادرة في عام ١٩٧٣م، بداية طريقه إلى الشهرة، ويتناول فيها المؤلف موضوع الابتكار والفن بطريقة كتابة السيرة الذاتية. وتوالت بعد ذلك الروايات التي لاقت نجاحًا كبيرًا، ومنها:

«ثورة الأرض» (١٩٧٩م)، و«ذكريات الدير» (١٩٨٢م)، و«عام موت ريكاردو ريش»(١٩٨٤م)، و«بحيرة الحجارة» (١٩٨٦م)، و«تاريخ حصار لشبونة»(١٩٩٠م)، و«الإنجيل طبقًا لرؤية المسيح» (١٩٩١م)، و«محاولة أدبية حول العمى»(١٩٨٥م)، و«كل الأسماء»(١٩٨٨م).

ويبلغ مجموع رواياته عشرين رواية، تُرجم بعضها إلى عدد من اللغات. ومن مسرحياته: «ليلة» (١٩٧٩م)، و«ماذا سأفعل بهذا الكتاب»؟(١٩٨٠م)، و«الحياة الثانية لفرانسيسكو أسيس»(١٩٨٧م)، و«باسم الله». ومن قصائده: «البهجة المحتملة»(١٩٧٠م). ومن مقالاته وقصصه القصيرة: «من هذا العالم، ومن العالم الآخر»(١٩٧١م)، و«حقائب السفر»(١٩٧٣م)، و«الآراء التي كانت لديَّ»(١٩٧٤م)، و«عام١٩٩٥م» (١٩٧٥م)، و«المواعيد»(١٩٧٦م)، و«شيء تقريبًا» (١٩٧٨م)، و«رحلة إلى البرتغال»(١٩٨١م)، وتحولت روايته «ذكريات الدير» إلى أوبرا عرضت في مسرح سكالا بميلانو عام ١٩٩٠م، واتخذت اسم «بليموندا»، كما استوحت أوبرا ويفار التي عرضت عام ١٩٩٣م من روايته «باسم الله».

وقد تركزت موضوعات روايات ساراماجو على تصوير تاريخ بلاده، والقضايا الاجتماعية والسياسية الملحة في المجتمع البرتغالي، وتأثيرات الحرب الأهلية الإسبانية في هذا المجتمع، وقضايا حرية الرأي والفكر والعلاقة بين الفرد والسلطة. ووصف أسلوبه بأنه يجمع بين التاريخ والسرد، والواقع والسخرية.

وتدور رواية «ثورة الأرض» حول الصراع الذي تعانيه أسرة فقيرة في جنوب البرتغال من خلال أربعة أجيال.

أما «ذكريات الدير» فقصة تاريخية تدور بالبرتغال في زمن محاكم التفتيش في القرن الثامن عشر الميلادي، حين أمر الملك جون الخامس ببناء دير مافرا احتفالاً بمولد ولي عهده، فأجبر العمال على العمل في البناء، وكان من بينهم بالتسار ذو الذراع الواحدة وبليموندا المرأة التي يحبها، والتي تشتهر بقوة حاستها السادسة، وقد ورثتها عن والدتها التي أُحرقت بسبب تلك الحاسة.



بوريس باسترناك

قد يأتي متأخرًا!

وتتناول رواية «عـام موت ريكاردو رييش» الحقبة المظلمـة من تاريخ البرتغال من خلال حياة خيالية.

وتبدو روح السخرية واضحة في روايتـه «تاريخ حصار لشبونة» التي يدعو فيها إلى إعادة كتابة تاريخ بلاده.

وفي رواية «محاولة أدبيـة حول العمى» يصـاب جميع شخـوص الرواية بالعمى مـا عدا واحدة، وفيها يتناول قضيـة الطمع والصراع من أجل البقاء.

وعـارض ساراماجو بشـدة انضـمام البرتغـال إلى السوق الأوربيـة المشتركـة، وكتب عدة مقالات تحـذر من هذه الخطوة، وانطلاقًا من هذا الموقف، وضع روايته «بحيرة الحجـارة» في عام ١٩٨٦م التي يتناول فيها تمزق انتمـاء البرتغال بين أوروبـا وأمريكا اللاتينية، متخيـلاً انفصال شبه جزيرة أيبـريا عن القارة الأوروبيـة، وفي هذه الرواية تبدو خصوبة خيال ساراماجـو واهتمامه باستشـراف المستقبل في ظل قراءة واعية للماضي. وهو يرى أن الانتـماء الثقـافي الصحيح للمجتمع البـرتغالي إلى أمـريكا اللاتينية، وكـان ساراماجو قد سـأل في مؤتمر عقد في فـرنسا عن الأدب الأوروبي: هل الأدب البرتغالي أدب أوروبي؟

ومن آرائه: «نحن كائنات عاقلة، لكن سلوكـياتنا لا تتسم بالعقل»، وهو يشير بذلك إلى أن الإنسان لو احـتكم إلى العقل لما كـان في العالم جياع. ويقـول عن انتـمائه الفكري: إنه من حـزب الرافـضين للرؤية من خلال الآخرين، وإنما على الفرد أن يكون له رؤيته الخاصة.

ومع أن ساراماجـو قد سبق له الحصول على ١٢ جـائزة أدبية خلال خمـسة عشـر عامًـا، إلا أن اختيـار الأكاديميـة الملكية السويديـة له للفوز بجـائزة نوبل واجـه حمـلات تشكيك، وعلق المـشككون على ذلك بأن لجنة الاختيـار أصبحت مولعة باختيار كُتَّابٍ مجـهولين أو ذوي اتجاهات سياسيـة مـعينـة؛ ولكن لم تكن الحـمـلات بحـدة تلك التي صاحبت منح الجائزة للمسرحي الإيطالي داريو فـو، والتي وصلت إلى حد إعلان عـدد من الأعضاء استـقالاتهم احتجاجًـا على هذا الاختيار، ولعل ما يجمع الفائزين أنهمـا من كتاب اليـسار، وأنهـما ينتميان إلى دول جنوب أوربا.

ساراماجو: لو مت قبل سن الستين لما تركت شيئًا له قيمة!

وأثار هذا الاختيار حـفيظة الفاتيكان الذي يراه شخصًـا متمردًا على الكنيسة الكاثوليكية، وقد وَصَفَ هذا الاختيار بأنه غير بريء.

أما الأديب البـرتغالي فردَّ بأن على الفـاتيكان التفـرغ لصلواته، تاركًا الآخرين يعيشون في سلام.

وكانت روايتـه «الإنجيل طبـقًا لرؤية المسيح» قد منعت من التداول في المدارس والجامعات بأمر وزير الثـقافة والتعليم، مما دفعه إلى الهجرة والعيش في جزيرة «لنشاروتـي» إحدى جـزر الكناري الإسـبانيـة منذ



ساراماجو

عام ١٩٩٣م.

ويوجه ساراماجو انتقـادات حادة إلى النظام الرأسمالي، الذي يصفه بأنه غير قادر على تقديم حلول حـقيقـية لمعـاناة الإنسان، بينـما لا يزال متمسكًا بقناعته بالنظام الشيوعي، وقـدرته على تحقيق العدالة الاجتماعية على الرغم من سقـوط الاتحاد السوفييـتي، وانهيار النموذج الـشيوعي في دول أوروبا الشـرقيـة. وبدأت عضـوية سارامـاجو في الحـزب الشيـوعي البرتغالي منذ عام ١٩٦٩م.

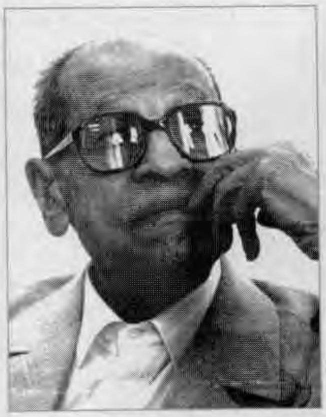
ومن مسوغـات قرار الأكاديمية السويدية لمنح سارامـاجو جائزة نوبل «أنه كاتب يتمتع بالبراعة اللغوية المدعمة بالمشاعـر والسخرية التي تمكننا من فهم الحقيقة المراوغة.

وألمح ساراماجـو إلى أن فوز أديب يكتب بالبرتغاليـة بجائزة نوبل لن ينقـذ هذه اللغـة، وإنما قـد يستطيع الآخـرون رؤية البرتـغاليين وسمـاع صوتهم بشكل واضح.

ومن مظاهر التقدير والتكريم التي حظي بها ساراماجو قبل نيل جائزة



جان بول سارتر



نجيب محفوظ

نوبل حـصوله على وسام قـائد النظام الحـربي لسنتيـاجـو دا أسيـادا من الحكومة البرتغـالية، وفارس نظام الفنون والآداب من الحكومة الفـرنسية؛ بالإضافـة إلى أوسمة شرفـية من جامـعات عدة منهـا: تورنتو ومانشستـر وأشبيلية وطليطلة.

بسبب الفقر لم يكمل ساراماجو تعليمه، وعمل ميكانيكيًا ورسامًا وصحفيًا ومترجمًا

وحـصلت روايتــه «ذكـريات الـدير» على جائزة نادي القلم البـرتغالي في عام ١٩٨٣م عن أفضل قصة لعـام ١٩٨٢م؛ والجائزة الأدبية لمدينة لشـبونة في عـام ١٩٨٣م عن أفضل قـصة لعـام ١٩٨٢م، وحصـدت روايته «عـام وفاة ريكاردو ريش» عــدة جـوائز منهـا جــائزة نادي الـقلم البرتغالي عن أفضل قـصة لعام ١٩٨٤م، وجائزة اتحـاد نقــاد البـرتغـــال (١٩٨٥م)، وجـائزة دوم دينيش من مـؤسـسـة النقـاد البـرتغـاليين في عـام ١٩٨٦م. وجـائزة جـرينذان كـافـور من اليـابان بإيطاليا عام ١٩٨٧م، وجـائزة القصص الأجنبي المستـقل من المملكة المتحدة. ونالت روايتـه «الإنجيل طبقًـا لرؤية المسيح» الجائزة الكبـرى للرواية والقصـة من اتحاد الكتـاب البرتغـاليين (ابي) لعام ١٩٩١م، والجـائزة الأدبيـة الدوليـة مـونديلو (باليـرمـو) عـام ١٩٩٢م، والجائزة الأدبية برانكاتي (زاسيرانا ـ صقلية) عام ١٩٩٢م، وجائزة الحياة الأدبية من اتحاد الكتاب البرتغاليين (ابي) عام ١٩٩٣م.

وقد بدأ مـنح جائزة نوبل للآداب في عـام ١٩٠١م، وكان الشـاعر الفـرنسي رينيـه سوللي برودوم أول فـائز بهـا، وتعد فـرنسـا أكثـر الدول حصولاً على هذه الجـائزة، إذ فازت بها ١٢ مرة، وتأتي في المرتبـة الثانية الولايات المتحـدة الأمريكيـة وعدد مرات فـوز أدبائها بهـذه الجائزة ١٠ مـرات، وتأتي في المرتبـة الثالثـة بريطانيـا بعدد ٨ مـرات، بينمـا لكل من السـويد وإيطاليا ٦ مـرات فـوز، وفاز بهـا أديب عـربي واحد هو نجيب محفوظ، وذلك في عام ١٩٨٨م.

وفازت ٩ نساء بهذه الجائزة، وهن: سلما لاجيرلوف (السويد) في عــام ١٩٠٩م، وجــرازيا ديليـدا (إيـطاليــا) في عــام ١٩٢٦، وسيجريـد أوندست (النرويج) في عام ١٩٢٨، وبيرل باك (الولايات المتحدة الأمـريكية) في عام ١٩٣٨م، وجابـريـيلا ميستـرال (تشيلي) في عـام ١٩٤٥م، ونيللي سـاشز (السـويد) مناصـفة مع الإسـرائيلي صـموئيل يوسف أغنون فـي عام ١٩٦٦م، ونادين جـورديمر (جنوب إفـريقـيـة) في عـام ١٩٩١م، وتوني مـوريسـون (الولايات المتـحـدة الأمريكية) في عام ١٩٩٣م، وفسيلافـا شيمبورسكا (بولندا) في عام ١٩٩٦م.

ورفض فـائزان تسلم الجـائـزة، همـا بوريس بوسـتـرناك من الاتحـاد السوفييتي السابق في عـام ١٩٥٨م، والأديب والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في عام ١٩٦٤م.

وحــجــبت الجــائزة في أعــوام ١٩١٤م، و١٩٣٥م، و١٩٤٠م، و١٩٤١م، و١٩٤٢م، و١٩٤٣م.

وتبلغ القيمة المادية لجائزة نوبل للآداب ٦ر٧ مليون كورون سويدي أي ما يقارب مليون دولار أمريكي.

قالت الصحافة عن جوزيه ساراماجو:

إن سـاراماجـو واحـد من أبرز كتـاب أوربا وأكـثرهم أصـالة. وكتابته مفعمة بروح الاسـتفسار المضحك والتشاؤم التأملي، وهي طاقة متحولة بهدوء تحول غير المحدود إلى ما لا ينسى.

ريتشارد إيدير ـ جريدة لوس أنجليس تايمز

لا يوجد مرشح لجائـزة نوبل أكثر استحقاقًا للاعتراف الدائم من هذا القصاص.

إدموند هوايت ـ نيويورك تايمز

إن رواية «العـمى» دليل آخر على أن سـاراماجو مـازال يمضي بقوة بوصفه قاصًا موهوبًا وكاتبًا له أسلوبه المميز.

يان كارلسون أول أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٧م، جريدة أوستجوتا كورسبوندنتن

يا لها من افتتاحية! يا لها من فكرة! يا لها من قصة! إن ساراماجو ألف كتاباً مصيره أن يصبح رائعة حديثة مثل رائعة «الوباء» لألبير كامي، و«سيد الذباب» لوليام جولدينج.

لارس هاجستروم ٢٨أغسطس/آب ١٩٩٧م، جريدة بوروس

إن رواية «العمى» قصة أخلاقية جذابة تأسرنا من البداية إلى النهاية، وهو كتاب له وزنه الأدبي، ويجعل معظم المطبوعات الأخرى في الظل تماماً في هذا الخريف.

أوسكار هيمر ٢٨ أغسطس/آب ١٩٩٧م، سيد سقسكا دا جبلايت

أود أن يقرأ أكبر عدد ممكن من الناس رواية «العمى» بأسرع ما يمكن، وهذا يعني قبل النهاية حتى يمكنهم المساهمة في منعها.

توفي ألستيردال ٦نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٧م، نوروبوتينس كوريرين

إنها رواية بعد رائعتيه «التاريخ» و«الكتاب المقدس»، فهي تبين مرة أخرى أن جوزيه ساراماجو هو واحد من أكبر القصاصين الأوروبيين القلائل في زماننا.

مايكل نوردفال ١٦سبتمبر/ أيلول فيستربوتينس كوريرين

باستثناء فرناندو بيسوا لا أعرف أي كاتب آخر باللغة البرتغالية على وعي باستمرار بأصول عمله وبمسألة وجوده ومعناه. إن كل مؤلف روائي كأنه مصحوب باليد اليسرى، فهو محاط بصدى موسيقى يطيله بأن يجري أمامه كما كان. وهو يحتوي بداخله على تأثير المعجزة التي تشكل العمل.

إدواردو لورنسو في باتيستا باستوس، جوزيه ساراماجو: الاقتراب من صورة.

إن جوزيه ساراماجو في الواقع يخترع القصة، ولكنها قصته، فبينما يتحدث عن الماضي والمضارع والمستقبل، فإنه لا يجرؤ على خلق العالم نفسه.

ماريا الزيرا سيشوفي باتيستا باستوس ـ جوزيه ساراماجو: الاقتراب من صورة

إنه واحد من القصاصين المعاصرين النادرين، فهو يفكر في نصه كماكينة رومانسية حقيقية: فالفن المعماري مدروس بعناية، وهو معقد بدرجة كافية. ومن كتبه نجد انطلاقة قريبة جدا من أفضل روايات الألغاز، حيث نعرف أن تركيبها حاسم تماماً.

التحرير ٨ مارس/آذار ١٩٩٠م

أيامنا هذه في أوربا غنية جداً بالوسائل، ولكنها فقيرة جداً بالأفكار، فإن كاتباً مثل جوزيه ساراماجو هو معجزة تقريباً. إنه يتجنب الخطابة الخاوية لأيديولوجيي الحقبة بعد الحديثة، ويعتمد بدلاً من ذلك على الأدب للمساعدة في تغيير العالم. فمنذ زمن إيسادي كيروز العظيم ومع الاستثناء الملحوظ لفرناندو بيسوا فلم يجد أي كاتب برتغالي مثل هؤلاء القراء المخلصين في إسبانيا. وهذا يعد شيئاً طيباً في حالة بلدين مثل إسبانيا والبرتغال مازالا بعيدين جدا عن بعضهما.

خافير الفايا ـ ال موندو ٢٤ مايو/أيار ١٩٩٣م.

إن الكتاب الثاني لساراماجو المترجم إلى الإنجليزية وهو «سنة وفاة ريكاردو ريش» هو قنطرة بين عمله وعمل بيسوا. وإنني أضعه بين أفضل الروايات التي قرأتها، فهي رائعة جميلة تدور في لشبونة عام ١٩٣٦م. إن ساراماجو يكرم أشهر سابق له بالبرتغال، ويربط نفسه بتقليد قومي يقيم التفكير الذاتي والإشارة للذات. وكما في «هاملت» و«دون كيشوت»، فإن ساراماجو يبني عالما يشبه صالة من المرايا.. وإن تأثير بورجيس وميجيل دي أونامونو لا يمكن إنكاره في تناول ساراماجو للعالم ككتاب ضخم كتبه قصاص مرتكز حول ذاته، وأكبر من الحياة. ألسنا جميعاً وقعنا في فخ، في حلم شخص آخر، هذا هو ما يسأل عنه.

فبينما نجد قصصاً أخرى لساراماجو تنتظر ترجمتها إلى الإنجليزية، فإن قصة «الكتاب المقدس طبقا ليسوع المسيح» كافية لتضمن له مكاناً في المكتبة العالمية وفي الذاكرة الإنسانية، وإن نثره الواضح يعكس وزن الوجود الإنساني، ويتأمل مباشرة بدلاً



توني موريسون



نادين جورديمر

من أن يكون ذلك رمزياً في المسائل الكونية، ويجرؤ أن يسافر عبر الحدود الهشة حيث يمتزج الإيمان مع العقل.

إيلان ستافاس ـ الأمة ١٦مايو/أيار١٩٩٤م

بذكاء صبور وساخر يمكنه مقارنته بموزيل، فإن جوزيه ساراماجو يبني لشبونة المسكونة والساكنة في قصته «سنة وفاة ريكاردو ريش»، إنها قصة سياسية رئيسة تلقي أيضاً ضوءاً أخاذاً على أحد الموضوعات الأقدم والأكثر تأكّلاً على ما يبدو: العلاقات الحميمة بين تأليف الشعر والموت.

ـ جورج شتاينر، الملحق الأدبي للتايمز

لكي نبدأ، فعلينا أن نوضح بضع نقاط مهمة: أولاً: أن جوزيه ساراماجو هو أفضل كاتب حي باللغة البرتغالية. ثانياً: منذ جيمارانش روزا لم يوجد أي نثر برتغالي أصلي وخلاب ومترابط مثل القصص التي كتبها ذلك المؤلف البرتغالي من محافظة ريباتيجو، وثالثاً: أن قصة «الكتاب المقدس» كتاب مدهش.

روبرتو بومبيتو من طليطلة في فيخا ـ ساو باولو

العلاقات العربية التركية

مجموعة باحثين   مراجعة: جودت جقمقجي

تشكل العلاقات العربية التركية موضوعًا مهمًا للشعبين العربي والتركي خاصة، وللشعوب الإسلامية بشكل عام، إذ يربط الشعبين الإسلام والتاريخ والجوار والمصالح المشتركة. ولابد من إزالة العراقيل والسلبيات التي تعيق تطوير هذه العلاقات، وتوطيد عرا التعاون والتعاضد، وتنسيق الجهود والمواقف، والمشاركة في دعم السلام والاستقرار في منطقتنا، ويلاحظ في الآونة الأخيرة تفاقم الخلافات حتى وصلت إلى حد المواجهة مع دولة عربية، وهذا ما يؤسف له.

يتكون هذا الكتاب «العلاقات العربية التركية» من مجلدين، كل مجلد يحتوي على ثمانية أبحاث، وهذه محاولة لتعريف القارئ بموضوعات هذه الأبحاث، وما ورد من نقد وتحليل حول ماضي هذه العلاقات وحاضرها، وعناوين هذه الأبحاث هي:

- التعارف الأول بين العرب والأتراك.
- الدور التركي في الدفاع عن الوطن العربي.
- العرب في ظل الرابطة العثمانية.
- الخروج العربي عن الدولة العثمانية.
- العلاقات التركية العربية فيما بين الحربين العالميتين.
- العلاقات العربية التركية في مرحلة المد القومي العربي.
- تركيا والصراع العربي الإسرائيلي.
- التقارب التركي العربي في ضوء التطورات السياسية والاقتصادية المعاصرة.

وقد تناول كل بحث من هذه الأبحاث باحثان متخصصان، أحدهما عربي والثاني تركي، مما ضمن وجهة نظر الطرفين تجاه كل موضوع من هذه الموضوعات، وقد روعي التزام الموضوعية في كتابة الموضوعات، بغض النظر عن الأوضاع السياسية. كما تم التركيز على وضع الدولة العثمانية في مكانها من حلقات سلسلة التاريخ الإسلامي، مثلها في ذلك مثل دول الخلافة الإسلامية التي سبقتها كالدولة الأموية أو العباسية أو الفاطمية، على أنها كانت مثل هذه الدول لها حسناتها وسيئاتها، من منطلق أنه لابد من تناول تاريخنا بعيوننا وليس بعيون الآخرين، وننظر إليه من خلال معاييرنا وقيمنا، ومحاولة فهمه وإعادة كتابته، إيمانًا منا بعراقة الحضارة الإسلامية وقدرتها على التجدد، وبعراقة الشعوب التي شاركت في تشييد صرحها.

كما ورد في مقدمة الكتاب أنه ليس من الصواب أن نحكم على تاريخ مشترك امتدَّ قرونًا طويلة على ضوء أحداث طارئة أو من خلال منظور شخصي معين أو توظيف الأحداث وتفسيرها لخدمة مذاهب فكرية (أيديولوجيات) معينة.

كما تمَّ التطرق في مقدمة الكتاب إلى العوامل السلبية التي أدت إلى جمود العلاقات العربية التركية، ومنها كتب التاريخ التي تُدرس في مدارس بعض الدول العربية، والتي تنظر إلى التطورات الداخلية في تركيا خلال النصف الثاني



كان للحربين العالميتين تأثيرهما في العلاقات العربية التركية

من القرن الحالي نظرة غير موضوعية. كما نلاحظ على الطرف الثاني أيضًا أن كتب التاريخ التي تُدرس في المدارس التركية لا تقدم أية معلومات تقريبًا عن العالم العربي. ونظرت تركيا إلى العالم العربي خلال هذه الفترة من منظور غربي، يمكن القول بأنها أدارت ظهرها للعالم العربي. ولاشك أن تصحيح هذه الأفكار، وتنقية التاريخ المشترك سوف يكون من شأنه وضع الأساس الثقافي المتين لتيسير عملية التقارب، وتطوير العلاقات نحو الأحسن، على الأقل في المستقبل القريب.

كتب البحث الأول «التعارف الأول بين العرب والترك» الأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب في جامعة القاهرة، تحدث الكاتب عن مصادر تاريخ الترك وطباعهم، والدول التي أقاموها، وحدودها وأماكنها، مشيرًا إلى أن قيام أول دولة للترك كانت في القرن السادس الميلادي، امتدت من حدود الصين شرقًا إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية غربًا.

وذكر الباحث أن الديانة الغالبة على الترك حتى ذلك الوقت هي الديانة البوذية السائدة في شرق القارة الآسيوية، بالإضافة إلى بعض الديانات الأخرى مثل المسيحية والمانوية.

وبعد أن ظهر الإسلام في صورة قوة كبرى في القرن السابع الميلادي، حدثت تغييرات ضخمة في موازين القوى في الشرق والغرب جميعًا، وبدأت الفتوحات الإسلامية، ويرى بعض الباحثين سنة ٨٦ هجرية (٧٠٥م) بداية الفتح الحقيقي لبلاد الترك، ولم تظهر الملامح الأولى لانتشار الإسلام بين الترك إلا في عصر الدولة السامانية، أي منذ النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، واستمر في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بخطا سريعة، واكتمل في القرن الخامس الهجري.

ويفهم من بعض الروايات التاريخية أن الخلافة العباسية استخدمت الأتراك في الجيش منذ وقت مبكر، حتى إن المعتصم اعتمد على الجنود الأتراك، وكانت أمه تركية، وبنى لهم مدينة سامراء، وهو أول خليفة أدخل الأتراك الديوان.

أما المبحث الأول من الجزء الثاني من الكتاب فيحمل العنوان نفسه، وقد أعدّه كل من الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، والأستاذ الدكتور رمضان ششن، فقد بدأا بالحديث عن أصل الأتراك ومناطق سكناهم، وذكرا أن أول دولة مسلمة من الأتراك هي دولة بلغار الفولغا، فقد اعتنق هؤلاء الإسلام نحو عام ٩٠٠م، ثم أعقبهم في ذلك القرخانيون، ثم جاء بعدهم السلاجقة، وهم العثمانيون من الغز. كما أضافوا أن بداية العلاقات بين العرب والأتراك ترجع إلى ما قبل الإسلام بعصور طويلة، وتحديدًا إلى القرن السابع قبل الميلاد. وأمر آخر هو أن الخيام التركية كانت مستخدمة في بلاد العرب في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن النبي عليه السلام كان ـ وهو يشرف على أعمال حفر الخندق في الغزوة المعروفة بهذا الاسم ـ يجلس في خيمة تركية. كما ورد اسم الترك في شعر حسان بن ثابت، والنابغة الذبياني (ت:٦٠٤م)، كما ذكر في البحث أن أول الاتصالات المباشرة بين الترك والعرب قد تمت في سنة ٢٠هـ/٦٤١م بعد فتح إيران، وكان ذلك في أذربيجان وخراسان، واستمرت هذه العلاقات بشكل مواجهات أو مشاركات أو علاقات كما هو ثابت في المصادر المختلفة. ولا أظن أن هناك خلافًا بين الطرفين في الحقائق التاريخية الثابتة حول تاريخ الأتراك أو العلاقات بين الشعبين.



العلاقات العربية التركية
من المنظورين العربي والتركي
إشراف: أكمل الدين إحسان أوغلي
ومحمد صفي الدين أبو العز.
القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية.
إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٩١م-١٩٩٣م، ٧٤٥ص.

تنقية التاريخ المشترك من شأنه وضع الأساس الثقافي المتين لتيسير عملية التقارب

الدور التركي في الدفاع
عن الوطن العربي

أعد هذه الدراسة الأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، وذكر أن الكثير من الباحثين يرون أن الخلافة العباسية قد اشتد ساعدها بالسلاجقة حين دخلوا إلى العراق بزعامة طغرلبك، بدءًا في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ويضيف أيضًا أن روح الإسلام كانت متغلغلة في قلوب الأتراك السلاجقة، مما أجج حماستهم الشديدة للدفاع عن الإسلام، والذود عن أرضه وأهله أمام العدوان الذي أخذ يتعرض له الوطن العربي في الشرق الأدنى على أيدي خصوم الدولة الإسلامية، وأعدائها. وفي تتبعنا لمسيرة الأتراك السلاجقة، نرى أن هدفهم لم يكن اقتحام الوطن العربي للاستقرار فيه، والسيطرة على الخلافة فحسب، وإنما أرادوا أيضًا أن يعبّروا عن حماستهم للإسلام عن طريق النهوض بمهمة الجهاد في سبيل الله وحماية أرواح المسلمين وأرضهم من عدوان المعتدين، فضلاً عن حماية الخلافة.

العرب
في ظل الرابطة العثمانية

أعدّ هذه الدراسة في القسم العربي الأستاذ الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب في جامعة عين شمس.

يوضح الباحث أن الدولة العثمانية قامت في شمال غربي الأناضول في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وظلت تتوسع في أوربا وتحرز انتصارات باهرة متتالية على الحملات الصليبية إلى أن استولت على القسطنطينية في عام ١٤٥٣م، وأصبحت أقوى الدول الإسلامية، ولما كان العثمانيون منذ نشأة دولتهم قد رفعوا لواء الجهاد فإنهم ما لبثوا أن عدّوا أنفسهم ملزمين بالدفاع عن العالم الإسلامي بأسره.

وعندما تولى السلطان سليم الأول السلطة في الدولة العثمانية ضمّ البلاد العربية لدولته، حيث ضم الشام في عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ومصر والحجاز في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م. وفي عهده دخلت السياسة العثمانية دورًا جديدًا، واتسع نطاق مسؤوليات الدولة العثمانية في العالم العربي الذي سيطرت على معظمه عدة قرون.

وقد فرضت الدولة العثمانية العزلة على أملاكها العربية وغير العربية وكان مبعثها الخوف الناتج من الصراع المستمر بينها وبين العالم المسيحي.

وذكر الباحث أن الدولة العثمانية لا تتحمل وحدها مسؤولية التدهور الذي أصاب الاقتصاد والثقافة في العالم العربي، إذ كان لتحول طرق التجارة العالمية إلى المحيطات بعد اكتشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح أثر كبير في الاقتصاد. كما أضاف أنه قد بولغ في وصف التخلف الفكري في الولايات العربية في العصر العثماني إذ ثمة شواهد كافية على وجود حركة ثقافية نشطة في العراق والشام ومصر.

وقد تناول الموضوع نفسه من المنظور التركي من الكتاب الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي والدكتور صالح سعداوي اللذان ذكرا أن الحديث عن «العلاقات التركية العربية» في أي عهد من العهود السابقة يختلف اختلافًا بيّنًا عن حديثنا عن علاقتهما في العصر الحاضر، ذلك لأن الدول التي كانت تجمع بين الشعبين العربي والتركي في الماضي تختلف عن الدول التي ينتميان إليها في العصر الحاضر. وهناك تشابه في تاريخ الشعبين التركي والعربي دعت إليه وحدة الدين والتقاليد والشمائل والسجايا، حتى كان ذلك من الأسباب القوية في حدوث الاتصال بينهما والتعايش والتصاهر على امتداد العصور السابقة.

والمتتبع لتاريخ العلاقات التركية العربية يرى أن العرب حملوا الإسلام إلى بلاد الترك، وأن الأتراك لم يترددوا في قبوله وسعوا إلى تأييده، ونشأ بينهما تعاطف وتواد، وخاصة عندما أدرك الأتراك سمو الدين الإسلامي الذي دخلوا فيه، فاختلطوا مع العرب. وفي العهد العثماني، عندما دخل العثمانيون المنطقة العربية أخذوا العراق من الصفويين، والشام ومصر من المماليك الجراكسة، ودخلوا شمال إفريقية دفاعًا عن شعوبها ضد الاعتداءات البرتغالية ثم الإسبانية، وترك العثمانيون أمور البلاد لأهلها في مجالات كثيرة.

الخروج العربي
عن الدولة العثمانية

أعد هذه الدراسة الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب في جامعة عين شمس. وهو يشير إلى أن العلاقات بين العرب والترك خلال العهد العثماني الذي استمر في بعض الولايات العربية إلى ما يزيد على أربعة قرون بأطوار متعددة، تميز كل طور منها بظروفه وسماته الخاصة. وكانت المحصلة النهائية لتلك العلاقات هي خروج العرب، شأنهم في ذلك شأن بقية العناصر الأخرى، عن الدولة العثمانية.

وقد تعايشت الغالبية المسلمة من سكان الولايات العربية عدة قرون مع الترك في إطار الرابطة العثمانية التي كان يقوي من أواصرها عاملان رئيسان: أولهما: ارتباط المسلمين في الولايات العربية بالفاتحين الترك منذ دخولهم بلادهم. والعامل الثاني الذي كان يقوي من تلك الرابطة أن العثمانيين لم يفرضوا على الولايات العربية أسلوبًا مركزيًا في الحكم، وإنما اكتفوا بالسيطرة العسكرية والسياسية العليا تاركين لسكان الولايات

العربية حرية التصرف في شؤونهم المعيشية، بما في ذلك المحافظة على لغتهم وعوائدهم وتقاليدهم ومؤسساتهم الخاصة بهم.

غير أن الأوضاع لم تظل ثابتة، وإنما ظهر العديد من المتغيرات التي كان لها أثر كبير في فصم الروابط بين العرب والترك، وأدت إلى الخروج العربي عن الدولة العثمانية. ويمكن إدراج تلك المتغيرات في محاور ثلاثة هي: الحركات الانفصالية، ودور الاستعمار الأوربي، والصراع بين القوميتين العربية والتركية.

أما من الجانب التركي فأعد البحث الأستاذ الدكتور ميم كمال أوكه، أستاذ التاريخ بجامعة البوسفور بإستانبول، وبدأ بحثه بالتطرق إلى الحركات الانفصالية في الدول العربية والدعم الأوربي لها بين الحربين العالميتين.

العلاقات العربية التركية بين الحربين العالميتين

أعد هذه الدراسة في القسم العربي الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق، أستاذ التاريخ الحديث بكلية البنات في جامعة عين شمس.

وذكر أن الوجود العثماني كان قد انحسر إلى حد كبير عن الرقعة العربية قبيل قيام الحرب العالمية الأولى، ولم يكن قد تبقى من الدولة العثمانية سوى ما هو واقع شرق شبه جزيرة سيناء، في الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية، أي المناطق العربية المتاخمة لتركيا، مقر الدولة. وإذا كانت ظروف الحرب قد أخرجت الأتراك من تلك المناطق المتبقية من الدولة العثمانية في الوطن العربي، فإن كل الظروف السابقة كانت تمهد لذلك، ومنها تدهور العلاقة بين العرب والترك، وهو الأمر الذي عبر عن نفسه في الإسهام العربي في التخلص من الوجود التركي خلال الحرب. تنازلت الجمهورية التركية بمقتضى معاهدة لوزان بعد الحرب العالمية الأولى عن أية حقوق لها في المنطقة العربية فتخلّت بذلك عن آخر شكل من أشكال الوجود في العالم العربي، واعترفت الجمهورية التركية بالدول العربية، وأهم قضيتين حصلتا في هذه الفترة هما قضية الموصل ولواء الإسكندرون.

أما الأستاذ إسماعيل صويصال، السفير السابق ورئيس وقف دراسات العلاقات التركية العربية بإستانبول، فقد أعدّ دراسة بالعنوان نفسه ذكر فيها أنه كان من الصعب في ذلك الوقت على أتاتورك أن يحقق رغبته في إقامة علاقات وثيقة بين الشعبين التركي والعربي، وتشير أحاديثه الرسمية إلى أن السبب في ذلك الدول الأجنبية التي تحكمت في البلاد العربية، والتي لم تكن مستريحة من أحاديث أتاتورك عن تحرير الأمم المضطهدة. وفي تلك الأثناء كانت سلطات الانتداب في بعض البلدان العربية تحاول كسب عطف شعوبها بتشويه صورة الحكم العثماني السابق، وبتقديم نفسها قوة منقذة، فضلاً عن ذلك، فإن غالبية الكتاب العرب إبان تلك الفترة صوّروا العصر العثماني بأنه عصر الركود، وسوء الإدارة مما عاق تقدم العالم العربي، وقد انعكست هذه الآراء على الكتب المدرسية. وفي ظل هذه الظروف حتى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى السبعينيات استمر كل من العرب والترك يديرون ظهورهم بعضهم لبعض مما لم يتح الفرصة لتعرّف بعضهم بعضًا بقدر كاف، أو إتاحة الفرصة ليتفهم كل طرف مشكلات الطرف الآخر أو يتعاون معه.

العلاقات العربية التركية في مرحلة المد القومي العربي

أعدّ هذه الدراسة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب في جامعة عين شمس. ويشمل فترة العلاقات العربية



كمال أتاتورك

كان لقيام دولة إسرائيل وللعلاقات التركية الإسرائيلية تأثير مباشر في العلاقات العربية التركية

التركية في مرحلة المد القومي العربي منذ الحرب العالمية الثانية حتى مطلع الستينيات.

يقول الباحث: إنه على الرغم من الصراعات الدموية بين العرب والترك خلال الحرب العالمية الأولى، ومرارة المطالبات والمطالبات المضادة على الحدود التركية العراقية والحدود التركية السورية، كانت هناك أرضية مشتركة تمثلت في رغبة جميع الأطراف في حسن جوار متبادل. إلا أن كثرة القضايا التي حصلت سواء بين العرب وتركيا أو بين العرب وتركيا والبلاد الغربية أو المعسكر الشرقي عقّدت العلاقات العربية التركية وحملتها كثيراً من السلبيات.

وكتب الباحث التركي الأستاذ الدكتور فاخر أرما أوغلي في الموضوع نفسه قائلاً: بعد أن استقلت الدول العربية في الشرق الأوسط صاغت لنفسها نظامًا سياسيًا وسياسة خارجية مختلفة بعضها عن بعض، وأصبحت مواقفهم متباينة في الحرب الباردة بين الشرق والغرب، وقد سهل ذلك لروسيا القيام بدور فعال في السياسة الدولية في الشرق الأوسط، مما زاد بروز عنصر الجنوب ـ أي تهديد روسيا لجنوب تركيا ـ، واكتسبت السياسة في الشرق الأوسط تركيًا معقداً بما فيه السياسة التركية، ويعدّ قيام إسرائيل أهم عامل سلبي في العلاقات العربية التركية.

تركيا والصراع العربي الإسرائيلي

أعدّ هذه الدراسة الأستاذ الدكتور عبدالوهاب بكر، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب في جامعة الزقازيق.

ويذكر أنه كان لقيام دولة إسرائيل وللعلاقات التركية الإسرائيلية تأثير مباشر في العلاقات العربية التركية. علمًا بأن الحكومة العثمانية لم تكنّ أيّ تعاطف مع الصهيونية وكل ما نتج منها، بما في ذلك إقامة وطن قومي يهودي، وقد رفض السلطان عبدالحميد الثاني جميع المحاولات التي بذلتها عدّة مؤسسات صهيونية بالسماح لليهود بإقامة مستوطنات جماعية يهودية في فلسطين، على الرغم من العروض المالية السخية التي بذلت له، على ما كانت عليه الدولة حينذاك من عسر مالي. لقد كانت سياسة تركيا تجاه القضية الفلسطينية محايدة إلى عام ١٩٤٥م، ولكنها اعترفت بإسرائيل في عام ١٩٤٩م، ولقد



نتنياهو



ديميريل

العلاقات الإسرائيلية التركية تلقي بظلالها على العلاقات العربية التركية

قامت السياسة الخارجية لتركيا في الشرق الأوسط دون أن تفهم اتجاه التطورات والأهداف السياسية الخاصة بجيرانها العرب. وكانت المطالب السوفييتية الإقليمية عام ١٩٤٦م ومواجهتها بالدعم الذي قدمته كل من الولايات المتحدة وإنجلترا لتركيا ضد هذه المطالب، هي القواعد الأساسية التي حكمت سياسة تركيا الخارجية ما بين ١٩٤٦ ـ ١٩٦٤م، وقد عدّت تركيا سياستها الشرق أوسطية امتداداً لسياستها المنحازة إلى الغرب، الذي كان هدفه الرئيس ـ بصرف النظر عن أي أمور أخرى ـ إيجاد نظام دفاعي ضد الاتحاد السوفييتي والشيوعية.

وغيرت تركيا سياستها بعد الحرب العربية الإسرائيلية في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣م، ووقفت بجانب العرب في المحافل الدولية، وتطورت نحو علاقات أحسن، إلا أن ما كان يتوقعه العرب من تركيا هو دور أكثر فاعلية في الشرق الأوسط، أي المساعدة في تحقيق سلام عادل للفلسطينيين.

وقد أعدّ من الجانب التركي الأستاذ الدكتور فاخر أرما أوغلي بحثًا في الموضوع نفسه ذكر فيه أن موقف تركيا تجاه العالم العربي حتى الستينيات وقع تحت تأثير علاقات تركيا بالغرب، ومع ذلك، فلم تكن العلاقات التركية الإسرائيلية برمتها تحت تأثير هذا الاتجاه، وكانت الولايات المتحدة تحكم علاقة تركيا بإسرائيل، وظلت تركيا مجبرة على اتباع الحذر في سياستها تجاه إسرائيل. وتطرق أيضًا إلى القضية القبرصية التي لم تلاق دعمًا عربيًا.

وقد شجب العرب وأبدوا مخاوفهم من العلاقات التركية الإسرائيلية في الفترة الأخيرة، وأدرج هذا الموضوع كفقرة دائمة في جدول أعمال اجتماعات الجامعة العربية، وذلك على الرغم من تصريح المسؤولين الأتراك بأن هذا التعاون غير موجه ضد أحد.

التقارب التركي العربي في ضوء التطورات السياسية والاقتصادية المعاصرة

أعدّ هذه الدراسة من الجانب العربي الأستاذة الدكتورة نازلي معوض أحمد، أستاذة العلاقات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة.

ذكرت الباحثة أن تركيا شرعت في فتح صفحة جديدة إيجابية في ميادين علاقتها بالدول العربية منذ أواسط أعوام الستينيات، وبعد مرحلة عداء مستحكم مدة خمسة عشر عامًا، وأن تركيا منذ

فجر تاريخها السياسي الحديث تعيش صراعًا فكريًا مجتمعيًا، أو جدلية ضميرية حادة وعامة. قوامها ازدواجية ثقافية أو ثنائية حضارة معنوية، تتميز بها الشخصية القومية التركية، بعبارة أخرى: إن تركيا تنتمي في آن واحد إلى عالمين مختلفين: الغرب أو القارة والحضارة الأوربيتين، ثم هي جزء مهم لا يتجزأ من القارة الآسيوية، ومن التراث الحضاري الشرقي التليد. وكانت المعضلة الحقيقية أمام النظم الحاكمة المتتالية تكمن في كيفية التوفيق بين متطلبات الانتماء إلى كل من العالمين المذكورين.

وبعد مشكلة قبرص خاصة وعدم دعم الحلف الأطلنطي لتركيا في قضية قبرص ومشكلاتها مع اليونان، بادرت تركيا إلى إعادة تقويم مبادئ الأمن القومي والمصلحة العليا في المتوالية الفكرية التالية:

- اعتماد الأمن التركي القومي على علاقات حسن الجوار، وبناء جسور الثقة مع الدول المجاورة لتركيا في المنطقة.
- اعتبار تركيا أساسًا وفي المقام الأول دولة شرق أوسطية وبلقانية - بحر متوسطية، قبل أن تكون دولة أوربية.
- تعديل السياسة الدفاعية التركية بما يتوافق مع متطلبات التوازن العالمي للقوى، ومع مقتضيات الاقتصاد الوطني التركي، ومع أولويات الدولة التركية ومصالحها الذاتية.
- توافق السياسة الدفاعية التركية مع التزامات تركيا الذاتية في حلف الأطلنطي، بحيث يكون حجم المشاركة التركية ونوعها في التحالف عكسًا لحجم مشاركة التحالف الأطلنطي ونوعه في أمن تركيا.

وقد أعد من الجانب التركي السفير إسماعيل صويصال، السفير السابق ورئيس وقف دراسات العلاقات التركية العربية بإستانبول دراسة في الموضوع نفسه قال فيها: بينما كانت تركيا تدبر للتدخل العسكري في قبرص للخروج من مأزق الطريق المسدود، إذا بها تتلقى إنذارًا من الولايات المتحدة سنة ١٩٦٤م، مما حدا بها إلى انتهاج سياسة خارجية أكثر مرونة وتنوعًا؛ فراحت تحسن من علاقاتها بالاتحاد السوفيتي، وسعت في الوقت نفسه نحو إقامة علاقات طيبة مع البلدان العربية على أسس أكثر صلابة من ذي قبل. وذكر أن تركيا أدركت أيضًا أن الصداقة التركية العربية ينبغي أن ترتكز في الدرجة الأولى على الآليات (الديناميات) المحلية المتصلة بنسيج المنطقة، وأنه من خلال هذا التوجه يمكن لتركيا أن تطل على الغرب بوجه أكثر قبولاً، وبمعنى آخر، فإنه لكي تؤدي تركيا دورًا فعالاً من خلال تطوير علاقاتها مع البلدان العربية، فإنه يتحتم ألا تبقى صورتها في المنطقة كالمدافع عن حضارة الغرب أو المتحدث الرسمي باسم الغرب في المنطقة، ويجب ألاّ تنسى نفسها بأنها قطر من أقطار الشرق الأوسط. وقال أيضًا: إن تطور العلاقات التركية ومشاركتها في منظمة المؤتمر الإسلامي كانا عاملين أساسيين في التقارب التركي العربي.

وذكر أن تركيا حافظت على موقفها المحايد من الخلافات الداخلية بين العرب، وتجنبت التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان العربية، ولم تسمح تركيا لنفسها أن تكون في خدمة مصالح القوى العظمى على حساب البلدان الإسلامية الأخرى.

واقترح الكاتب أن على العرب أن يتفهموا هذا الشيء آخذين في الحسبان أهمية تركيا الإستراتيجية ومصالحها المرتبطة بإرساء قواعد السلم والأمن في الشرق الأوسط. إنه من هذا المنطلق يصبح طبيعيًا أن تضطلع تركيا بدور مهم، وأن تتبوأ مسؤوليات جسامًا في سعيها للحفاظ على توازن القوى في المنطقة.

موقف تركيا تجاه العالم العربي حتى الستينيات وقع تحت تأثير علاقاتها بالغرب

أعادت تركيا تقويم مبادئ الأمن القومي لعدم دعم الحلف الأطلنطي لها في قضية قبرص

نجد

هَمبرتو دا سيلفيرا   مراجعة: قسم التحرير

هذا كتاب مصور عن نجد يتناول بعض جغرافيتها وتاريخها، ويركز بشكل رئيس على العمارة التقليدية فيها، ويعتمد في إبراز خصائصها على الصور بوصفها أكثر تأثيراً في النفس، بتجسيدها للواقع.

يذكر المؤلف مسوغات إقدامه على وضع هذا الكتاب، ومما ذكره أن فكرة الكتاب راودته في أول زيارة له إلى المملكة العربية السعودية منذ أعوام مضت، عندما شعر بأن هناك حاجة عاجلة لوضع كتاب مصور يوثق العمارة التقليدية في نجد قبل أن تتوارى وتختفي في ظل ما تشهده المملكة من تطور، مشيراً إلى أنه وقع أسيراً لسحر نجد، بكل ما فيها من آثار عظيمة، وهدوء وخشونة، وعمارة تتجسد في مساجدها وأفنية منازلها، وأنه أراد أن يسجل ما فيها من جمال ونقاء وعناد يتمثل في وقوفها شامخة أمام تيار التحديث، مؤكداً أن الأشياء القديمة ليست إلا نتاج التطور عبر القرون، ويظل جمالها باقياً، ويعطيها التطبيق شكلها النهائي، وما فيها من العبقرية الإنسانية، وإحساس فني يجعلها تتوارث.



فناء البيت النجدي

وتحت عنوان «تاريخ مختصر لنجد» يبدأ المؤلف بتناول جغرافية نجد، ومساحتها، فيشير إلى أنها تقع في قلب شبه الجزيرة العربية التي تقارب مساحتها مساحة أوربا الغربية، وهذه المنطقة على امتداد تاريخها معروفة بحرارتها القاسية، وواحاتها المبعثرة، وقبائل البدو التي تعيش فيها، أما اليوم، فإن هذه الصحراء الشاسعة أصبحت مراكز حضرية، ومجتمعات زراعية.

وكان أول وصول أوربيين إلى الدرعية عاصمة نجد القديمة في منتصف القرن التاسع عشر، وقد استطاع العرب من الحجاز ونجد إقامة دولة إسلامية امتد تأثيرها إلى شمال أوربا وإسبانيا وحدود فرنسا مؤذنًا بسقوط الدولة البيزنطية، وكان هؤلاء المسلمون على قلتهم تدفعهم قوة الإيمان إلى أن تمكنوا من إقامة حكم إسلامي يمتد من قرطبة إلى الصين.

ويشرح المؤلف معنى كلمة نجد في اللغة العربية فيوضح أنها تعني الأرض المرتفعة أو السهل الواسع، ثم يعرج إلى توضيح أهم معالم التضاريس في نجد التي تضم سلاسل جبال مثل جبل شمر وجبل طويق وجبل العارض، إضافة إلى ما تضمه أرض نجد من مياه جوفية.

ويذكر المؤلف أهمية الماء في حياة نجد وتاريخها السياسي والعسكري، مبينًا أهم أوديتها، وهو وادي الرمة في شمال نجد، ووادي السهباء، ووادي حنيفة، ووادي الدواسر. ولهذه الأودية تأثير في حركة البدو، وطرق الزراعة، والعمارة. والأراضي الواقعة على هذه الأودية تظل صالحة للزراعة حتى في أوقات الجفاف عند عدم سقوط الأمطار، لوجود المياه السطحية، مما يجعل الري ممكنًا بمياه الآبار.

ولندرة الماء، فإن الجزء الشرقي الأوسط من نجد لم يكن يعرف الاستقرار الدائم للسكان، بينما تتركز أماكن الاستقرار في الشرق حيث يوجد عدد كبير من القرى والمدن القديمة.

ثم يتناول المؤلف نجدًا في التاريخ القديم، فيبدأ بالإشارة إلى أن الأدب العربي له نظرته الخاصة إلى تاريخ نجد قبل تدوين التاريخ، إلا أن هذه النظرة تعتمد على الأسطورة.

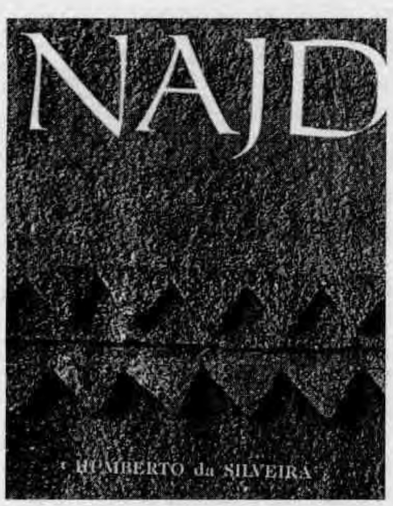
كانت الجزيرة العربية قبل ألف عام من بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تقع بين حضارتين قديمتين في مصر وفي بلاد ما بين النهرين. وكان للمصريين تجارة مع الجزيرة العربية من خلال البحر الأحمر منذ ما يقارب ٢٠٠٠عام قبل الميلاد، وكان الذهب والبخور من أهم ما يستوردونه منها ومن شرق إفريقية.

ويمضي المؤلف في سرد المراحل التاريخية التي مرت بها البلاد السعودية، ذاكرًا أهم الحضارات التي تأثرت بها، من خلال ما بينته الاكتشافات الأثرية؛ مستخلصا أن نجدًا ظلت منطقة بعيدة على حافة طرق التجارة المهمة والممالك القديمة، مما جعلها معزولة عن تاريخ بقية أنحاء الجزيرة العربية.

بعنوان «تحت لواء الإسلام» يستهل المؤلف حديثه عن بداية ظهور الإسلام وانتشاره أولاً في شبه الجزيرة العربية، ويورد سريعًا تاريخ الأديان في الجزيرة العربية قبل الإسلام، فيذكر أن العرب كانوا يعبدون الأشجار والينابيع والصخور، وعندما اتصلوا بأصحاب الحضارات الأخرى مثل الأحباش النصارى، والإمبراطورية البيزنطية النصرانية، والإمبراطورية الفارسية الزرادشتية بدؤوا في التأثر بفكرة التوحيد، ومعرفة القراءة والكتابة إلى حد ما.

ومثلت شبه الجزيرة العربية منطقة محايدة في القرن السادس عشر تصل بين ثلاث قوى كبرى في تلك الفترة هي البيزنطية والفارسية والأثيوبية.

وكانت تتكون من مناطق لها حكمها الذاتي، وقبائل غير متحدة. ثم يوضح المؤلف كيف ظهر الإسلام في مكة؟ ثم انتشر منها في أرجاء العالم، إلى أن يأتي إلى انتقال الخلافة إلى دمشق ثم إلى



نجد NAJD
هَمبرتو دا سيلفيرا
HUMBERTO DA SILVEIRA
باريس ١٩٩٢م، ٢٣٩ ص

المنازل المتراصة والشوارع الضيقة توفر الأمن والخصوصية للسكان وتعد تكيفًا مع ظروف المناخ

بغداد، وعودة النزاعات والصراعات إلى شبه الجزيرة العربية.

ويبدأ بعد ذلك المؤلف في تناول الدولة السعودية بأدوارها الثلاثة، بدءًا من الدولة السعودية الأولى التي وطد أركانها الإمام محمد بن سعود في مدينة الدرعية، الذي كان حريصًا على تطبيق الشريعة، فتبنّى الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وبعد أن يأتي على ذكر ظروف قيام الدولة السعودية الثانية وانتهائها، يبدأ بشيء من التفصيل في تناول ما قام به الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود من جهود كبيرة في توحيد البلاد بدءًا من خروجه مع أبيه وأسرته من الرياض حتى فتح الرياض، وتوطيد أركان دولة عظيمة شاسعة المساحة لها مكانتها الكبيرة بين دول العالم على أساس الشريعة الإسلامية السمحة، وذلك في ظل ظروف دولية بالغة التعقيد.

وبعد التوطئة الجغرافية والتاريخية، يبدأ المؤلف في تناول العمارة التقليدية في نجد، مبينًا أن الحياة في نجد بما تشتمل عليه من عادات وتقاليد وبيئة لم تتعرض لتغيير جوهري أزمانًا طويلة؛ وأن البيئة الصحراوية ظلت تفرض قوانينها الخاصة على شكل العمارة في المنطقة. ويشرح العلاقة التبادلية بين سكان البادية والحضر، وأهمية الماء في تحقيق الاستقرار، وما لبساتين النخيل من أثر كبير في نجد، وما تعرضت له تلك البساتين من دمار إبان غزوة إبراهيم باشا للدرعية.

ويبين المؤلف تميز العمارة في نجد من المناطق الأخرى في شبه الجزيرة العربية، وكيف أن خصائصها غير معروفة لكثيرين؟ وأن تلك العمارة استجابة للمناخ، والمواد الخام، والمهارات البدوية المتاحة، فضلاً عن أنها تعكس الظروف السياسية والاجتماعية في فترة ما قبل اكتشاف البترول.

وعن الدرعية والرياض كمثال للعمارة في نجد، يشير إلى أن هناك مبانيَ قديمة تعود إلى الدولة السعودية الأولى، وأن المواد الخام ونمط البناء لم يتغير بشكل جوهري في الفترات التالية، وأكد أن أهم ما يميز الرياض الحصون المعتادة في مدن سعودية أخرى، ثم يذكر أن فيلبي أخذ صوراً كثيرة لمدينة الرياض من بينها صور للأسوار القديمة المبنية من الطوب واللبن والحجارة والمدعمة بالأبراج، وقد كانت المزارع وأشجار النخيل تقع داخل هده الأسوار، وظلت المنازل في الغالب تتكون من طابقين إلى عام ١٩٧٥م.

والمنازل في نجد تشكل كتلاً متراصة، والشوارع ضيقة، وذلك لتوفير الظل والبرودة في كل المواسم، كما أن الشوارع مسدودة في نهاياتها مما يوفر الخصوصية والأمن للسكان، فلا يستطيع أي غريب أن يخترقها.

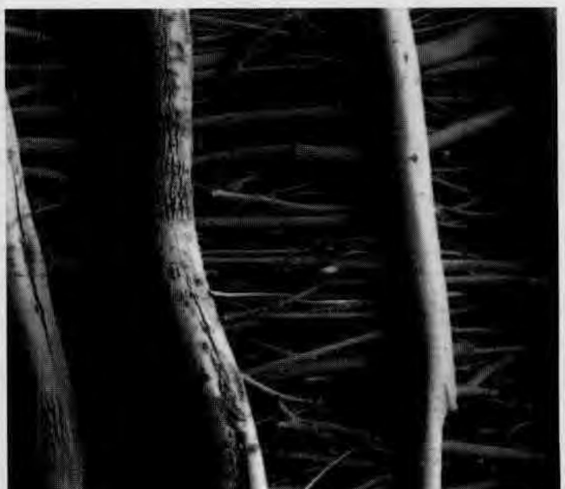
ويتناول المؤلف قصر المصمك ومسجد العيد وميدان الديرة وموقع القصور القديمة، شارحًا طبيعة العلاقة بين المسجد والسوق والميدان الرئيس في العمارة النجدية.

وعن البناء في نجد يقول المؤلف إن أهم المواد الخام المستخدمة فيه كان الطوب (اللَّبن) والطين والأعمدة الخشبية، كمواد عازلة للحرارة والبرودة، كما تطلى جدران البيوت من الداخل والخارج بنوع من الجير، لحمايتها من التآكّل والتشقق.

وعن تفضيل الطوب (اللَّبن) على الحجر يشير إلى أن ذلك قد يعود إلى سرعة إعداد الطوب، وسهولة توافره في البيئة؛ ومع ذلك فإن هذا لا ينفي وجود أبنية جذابة في نجد بها أعمدة حجرية.

ويشرح المؤلف كيفية صناعة الطوب (اللَّبن)، التي تقوم على مزج الطين بالتبن، وبعد أن يوضع في قالب، يترك في الشمس ليجف، ويعدّ هذا الطوب مادة متينة للبناء، فضلاً عن سرعة صناعته.

أما سقف البيت النجدي فيعرّش بجرائد النخل وسعفها. ثم يُغطى بطبقة من



سقف البيت النجدي



نموذج لبيت نجدي من الخارج

الطين، وتصنع القوائم الخشبية التي تسند السقف من أشجار الأثل التي تستخدم كذلك في صناعة الأبواب وتطلى بطلاء نباتي متعدد الألوان.

وعند تناول أبنية المنازل والقصور، يذكر أنه لا فارق كبير بين المنزل والقصر في نجد في المساحة، مع وجود اختلاف طفيف في الزخرفة الخارجية نظرًا لتجنب الأثرياء المباهاة حرصًا على مشاعر غيرهم.

وتأخذ الأبنية في نجد عامة الشكل المستطيل، وهي تتكون من طابقين، ونادرًا ما تتكون من ثلاث طوابق. والزخرفة الوحيدة التي على الجدران تلك التعرجات التي تأخذ شكل الحرف اللاتيني (V)، وبعض الفتحات التي في أعلى الجدران.

أما وسط البيت فيأخذ شكل فناء مفتوح محاط بالغرف من الجوانب الأربعة، وهو يأخذ شكلاً مربعًا أو مستطيلاً، وقد يكون في فناء المنازل الكبيرة حديقة أو حوض ماء إضافة إلى شجرة أو شجرتين.

وقد يكون هناك مدخل وحيد للفناء أو مدخلان حسب حجم المنزل. وصمم المدخل بحيث لا يستطيع من بالخارج كشف الفناء، كما أن النوافذ صغيرة للسبب نفسه، وبخاصة في الدور الأرضي. وكانت غرف الدور الأرضي تستخدم لتخزين الغذاء والماء، فكانت تبقى مظلمة وباردة، كما أن الفناء مصمم بحيث يضمن تجدد الهواء في المنزل، كما أن المداخل والنوافذ تحقق ذلك. وكذلك، فإن سمك الجدران يجعلها عازلة للحرارة.

وهناك أعمدة في الطابق الأرضي تدعم الشرفة، وتمتد في الطابق الأعلى. وتطل الشرفة على الفناء، ومنها يمكن الدخول إلى جميع الغرف.

ويستعرض المؤلف بعض مزايا المنزل النجدي، وما كان يضمنه لساكنيه من خصوصية وعلاقات حميمة تتوافق مع تعاليم الإسلام.

ويستفيض الكتاب في الحديث عن المجلس، وما يجسده من شهامة العرب وكرمهم، وكيف يعكس حياة الأسرة، ويمثل واجهتها.

ويصف المجلس بأنه يكون طويلاً وذا شكل مستطيل، كما يكون سقفه أعلى من أسقف الغرف الأخرى، وربما تكون هناك أعمدة في الوسط لدعم الأعمدة الرئيسة؛ وبخاصة إذا كانت الغرفة واسعة.

والأبواب وأعمدة الغرف تكون مميزة ببعض الرسومات، وتطلى بأصباغ متعددة الألوان مثل الأسود والأصفر والأزرق والأحمر.

وتكون الجلسات في المجلس على سجادات عليها وسادات صلبة.

ويشير الكتاب إلى ندرة الزخرفة والفخامة في العمارة النجدية، عدا تلك المشغولة بالجص التي في المجلس، إضافة إلى بعض الرسوم والأشكال المثلثة والدائرية، كما أن الجبس يغطي الجدار إلى حدود معينة، ويذكر أن فيلبي بيّن أن الزخرفة بالجص في شمال القصيم من أكثر الأنواع أناقة، وأن الرسوم الموجودة في تلك المنطقة قد تكون الأقرب إلى الفن الحديث.

وعن القلاع وأبراج المراقبة، يقول المؤلف: إنها تعد من أكثر الأشكال المعمارية البارزة والرائعة المنظر في نجد، وهي تتميز بالتنوع.

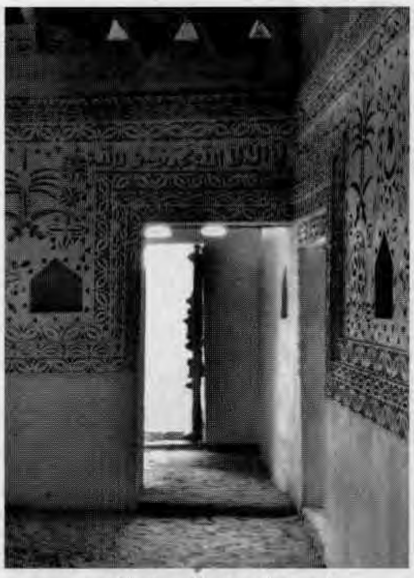
وقد أدت القصور دورًا مركزيًا في تاريخ الدولة، وكان الأمير يمتلك معاقل عظيمة مثل قصر المصمك الذي أنشئ في الرياض نحو ١٨٥٠م، وبدأ الملك عبدالعزيز تأسيس الدولة بافتتاحه هذا القصر عام ١٩٠٢م.

وقصر المصمك مستطيل الشكل ومحاط بالأبراج من أركانه الأربعة، وله مدخل واحد، بباب خشبي ضخم.

في الداخل عدد من الأبنية التي تتوزع حولها بعض الغرف، ويمكن بسهولة استنتاج أن القصور الملكية القديمة أنشئت قلاعًا مستقلة للإقامة.



الباب النجدي التقليدي



الزخرفة المشغولة بالجص في المجلس

المجلس في البيت النجدي يجسد شهامة العرب وكرمهم، ويعكس حياة الأسرة، ويمثل واجهتها

سكة حديد الحجاز

في دراسة وثائقية جديدة

أفق كولصوي مراجعة: مسعد بن سويلم الشامان

سبق لمجلة الفيصل أن نشرت مقالاً عن الخط الحديدي الحجازي بقلم وجيه الخيمي، في العدد ٣٢ بتاريخ صفر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٢٦ ـ ١٣٦.

بين أيدينا اليوم ثلاثة كتب عن هذا الخط القصير العمر، اثنان باللغة الإنجليزية والثالث باللغة العربية. الأول كتبه يعقوب لاندو Jacob Landau تحت اسم:

The Hejaz Railway and the Muslims Pilgrimage A case of Ottoman Political Propaganda - Dertoit 1971.

وهذا الكتاب لا يعدو أن يكون تحقيقًا وترجمة لرسالة باللغة العربية مخطوطة في مكتبة جامعة إستانبول ألفها السيد محمد عارف بن السيد أحمد المنير الحسيني الدمشقي باسم «السعادة النامية الأبدية في السكة الحجازية الحديدية» ولا تحمل من المعلومات الشيء الكثير، بل



جنود من الجيش العثماني يقومون بتثبيت القضبان الفولاذية

أغلبها في بيان مزايا السكة الحديدية، وما قدمته للحجاج من تيسير، وموازنة ذلك بطرق القوافل.

والكتاب الثاني كتبه الباحث د. وليام أوكسنوالد William Och-senwald بعنوان The Hijaz Rail-road - Virginia، وصدر في عام ١٩٨٠م وهو رسالة علمية قيمة استند المؤلف فيها إلى المصادر الغربية والوثائق العثمانية، وكُتب تعريف لهذا الكتاب في مجلة العربي الكويتية بقلم سليمان موسى في العدد ٢٧٦ الصادر في نوفمبر ١٩٨١م، ص١١٤ - ١٤٧.

أما الكتاب الثالث، فهو باللغة العربية، ألفه د. السيد محمد الدقن باسم «سكة حديد الحجاز الحميدية: دراسة وثائقية لها» وصدر في القاهرة، في عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. وهو كتاب جيد في بابه، وبذل فيه المؤلف جهداً مشكوراً، لكنه يظل خاليًا من الوثائق العثمانية التي تخص الخط مباشرة.

أما أحدث كتاب صدر في هذا الموضوع فهو بعنوان «سكة حديد الحجاز» Hicaz DemiryolU من تأليف الدكتور أفق كولصوي، وتميز بأنه استند في أكثر مادته إلى الوثائق العثمانية، فكان دراسة وثائقية غنية بالمعلومات القيمة التي تظهر أول مرة.

قسم د. أُفق كولصوي كتابه إلى مدخل وأربعة أبواب.

في المدخل للدراسة: قدم المؤلف معلومات عامة عن السكك الحديدية في الدولة العثمانية، فأشار إلى أن لجنة ترأسّها الضابط الإنجليزي فرنسيس تشسني Francis Chesney، في عام ١٨٣٠م قامت بدراسات مستفيضة حول إنشاء خط حديدي على طول نهر الفرات، ولكن لم يصدر إذن من الباب العالي لتنفيذ ما جاء في هذه الدراسة، فظل الأمر معلقًا حتى عام ١٨٥٠م، عندما سعت فرنسا بجدية لتنفيذ مشروع قناة السويس، وكانت إنجلترا مهتمة بإنشاء هذا الخط وتسعى من خلاله إلى تسهيل وصولها إلى مستعمراتها في الهند، لا سيما بعد أن تزايدت مخاوفها من تهديد فرنسا لطريق الهند عبر قناة السويس التي افتتحت عام ١٨٦٩م.

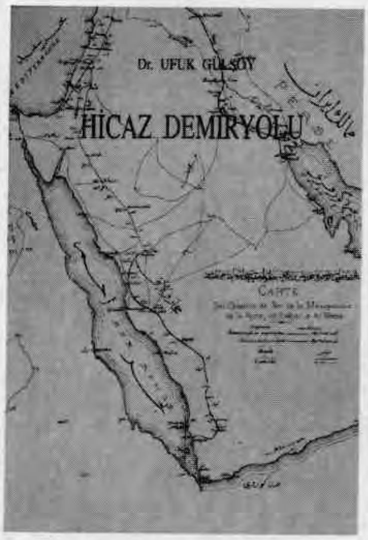
ومنحت الدولة امتياز إنشاء خط حديدي يربط بين ميناء إسكندرون على البحر الأبيض المتوسط والبصرة على الخليج العربي للضابط الإنجليزي تشسني في عام ١٨٥٧م، ولكن هذا المشروع لم يبدأ أيضًا بسبب عدم توافر الموارد المالية له. وبعد ذلك بعام افتتح أول خط للسكة الحديدية في الدولة العثمانية، وذلك في مصر بين الإسكندرية والقاهرة.

وتسارعت الطلبات من الشركات الأجنبية للحصول على امتيازات للسكك الحديدية في مناطق مختلفة من أجزاء الدولة، وبخاصة في الأناضول ومنطقة الروملي.

وشهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي انتشار شبكة واسعة من الخطوط الحديدية في أرجاء الدولة العثمانية التي حققت منها منافع سياسية وعسكرية واقتصادية كثيرة.

وقام الإمبراطور الألماني ويلهايم الثاني بزيارتين لإستانبول في عامي ١٨٨٩م و ١٨٩٨م، وارتبط مع السلطان العثماني عبدالحميد الثاني بصداقة متينة، وتوطدت العلاقات السياسية والتجارية بين الإمبراطوريتين، وكان من ثمار هذه العلاقات الطيبة منح امتياز خط بغداد الشهير للشركات الألمانية عام ١٨٩٨م، وبدأ العمل به عام ١٩٠٣م، وربطت به برلين بالبصرة مروراً بإستانبول. على الرغم من معارضة بريطانيا وفرنسا وروسيا.

وأعطى السلطان عبدالحميد للشركات الفرنسية امتياز إنشاء خطوط حديدية في سورية وفلسطين مثل خط



سكة حديد الحجاز

Hicaz DemiryolU

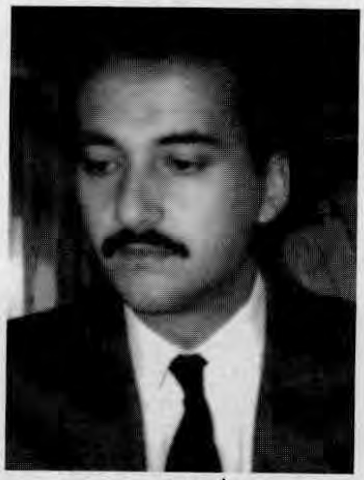
أُفق كولصوي

Dr. Ufuk Gulsoy

استانبول: دار أران

Eren Yayincilik

١٩٩٤، ٣٠٢ص.



أُفق كولصوي

يافا ـ القدس، وخط بيروت ـ دمشق، وخط دمشق ـ المزيريب.

وبقيت الامتيازات المعطاة للإنجليز محصورة في نطاق ضيق مثل خط مرسين ـ أضنة بطول ٦٧ كم، وذلك لتشكك السلطان عبدالحميد الثاني في نوايا الإنجليز.

وفي الباب الأول: تناول المؤلف الأفكار التي طرحت، والمقترحات التي جرى بحثها لإنشاء سكة حديد في الحجاز، وفصّل القول في الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية المستهدفة من وراء هذا المشروع.

ففي عام ١٨٦٤م طرح المهندس الأمريكي ـ وهو من أصل ألماني ـ د. تشارلز ف. زمبل DR. CHARLES F. Zimpel فكرة ربط سورية بالبحر الأحمر بخط حديدي.

ولكن صُرف النظر عن هذه الفكرة لسببين: معارضة القبائل العربية القاطنة في تلك المناطق لمثل هذا المشروع، وارتفاع التكلفة المالية لتنفيذ المشروع. ثم تلاه المهندس الألماني ويلهام فون برسيل Wilhelm Von Pressel عام ١٨٧٢م فاقترح إنشاء خط حديدي لربط القسم الآسيوي من الدولة العثمانية. وفي عام ١٨٧٨م اقترح الإنجليزي إلفينستون دارلمبل Elphinstone Darlmpl فكرة إنشاء خط حديدي من حيفا أو عكا يخترق وسط الجزيرة العربية ويتصل بالكويت، ومنها خط فرعي إلى البصرة.

ولكن أهم الاقتراحات العثمانية جاءت من قبل وزير الأشغال العامة العثماني حسن فهمي باشا عام ١٨٨٠م الذي أعد لائحة مشروع مفصل لخط حديدي يربط الأناضول بالجزيرة العربية، ينطلق فرعه الكبير من أزميت غربًا إلى إسكي شهر ثم قونيه ثم حلب وعنبر وينتهي في بغداد. ومن هذا الخط الكبير يخرج خط فرعي يصل حلب مع حماة وحمص، ويتجه إلى منحدرات جبل لبنان ثم يتجه إلى صحراء حوران إلى وادي الأردن ومنه إلى البحر الميت، وفي النهاية يصل إلى الحجاز. وقدر له ميزانية في حدود ٣٢٧٨٢٦٠ ليرة عثمانية.

وفي عام ١٨٨٤م قدم والي الحجاز وقائده عثمان نوري باشا إلى السلطان لائحة تضم تصوراته لإصلاح الأوضاع في ولايتي الحجاز واليمن، وضمّن هذه اللائحة الإشارة إلى أهمية إنشاء خطٍّ حديدي في الحجاز ليكون عاملاً فعالاً في صد أية اعتداءات خارجية يمكن أن تتعرض لها المنطقة.

وتوالت التصورات التي تطرح للبحث، ومن أهمها التقرير المرفوع من قبل أحمد عزت أفندي ـ الذي عرف فيما بعد باسم أحمد عزت باشا، وصار من المقربين من السلطان عبدالحميد ـ عام ١٨٩٢م، وكان وقتئذ مديرًا للأوقاف في جدة وركز فيه على أهمية إنشاء السكة الحديدية في الحجاز وربطها بالشام والأناضول.

وبحث أحمد عزت في الفوائد الأمنية وتوفير الأمن والاستقرار في تلك الديار المقدسة، والفوائد العسكرية بالتصدي للأطماع الخارجية التي ازدادت بعد تشغيل قناة السويس، وبخاصة من قبل الإنجليز، وحاجة السكان في مدن الحجاز لتحسين أوضاعهم المعيشية والقضاء على ما يعانون منه من الفقر والفاقة، وذلك بتوفير المؤن ووسائل العلاج والتعليم أسوة ببقية مدن الدولة. وركزت التقارير على الصعوبات التي يواجهها الحجاج والأخطار التي تتعرض لها قوافلهم في سيرها في الصحراء القاحلة.

ولم يقدم أحمد عزت أفندي في مقترحه أية تصورات للتكلفة المالية للمشروع الحجازي، أو تصورات فنية أو خرائط، ولكنه حسّن هذا الأمر للسلطان عبدالحميد بقوله: إنه أعظم خدمة يمكن أن يقدمها للإسلام والمسلمين.

وأحيلت لائحة أحمد عزت أفندي إلى الفريق محمد شاكر باشا رئيس الأركان الحربية، فدرسها وأكمل ما بها من نقص، فألحق بها حسابات دقيقة، وتقديرات مالية وفنية للمشروع، وأعد عنها تقريرًا في ٢٥ فبراير/ شباط ١٨٩٢م، وعرضه على السلطان عبدالحميد.

وجاء في ذلك التقرير أن الخط سيبدأ من دمشق حتى المدينة المنورة بطول ١٢٠٠ كلم، وسيربط ميناء العقبة بخط فرعي. وقدر التكلفة المالية لتنفيذ المشروع بمبلغ ٣٠٨٨٠٠٠ ليرة عثمانية في حالة استخدام النوع الضيق من القضبان،



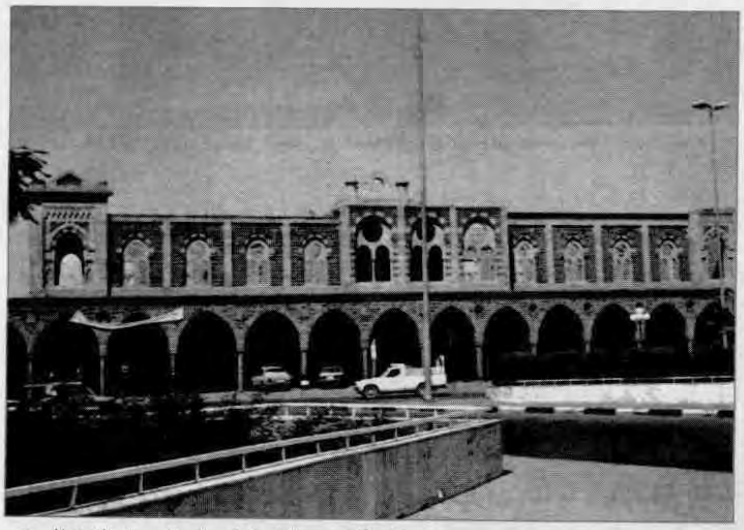
أما إذا كانت القضبان من النوع العريض فستكون التكلفة ٣٦٩٦٠٠٠ ليرة عثمانية.

وفي ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٨٩٧م قدم أحمد مختار باشا المعتمد العثماني المميز في مصر عريضة خاطب بها السلطان عبدالحميد، ينبه فيها على خطورة التدخل الإنجليزي في إفريقية والبحر الأحمر واليمن بعد استيلائهم على ميناء سواكن، والتهديد الذي تتعرض له المناطق المقدسة في الحجاز؛ ولهذا اقترح إنشاء خط حديد يربط دمشق بالسويس، ويربط قونية في الأناضول بدمشق لزيادة التأثير السياسي للدولة العثمانية، وسرعة وصول النجدات العسكرية. وبيّن أن الإنجليز سوف يعارضون مثل هذه المشروعات وسوف يعرقلون تنفيذها.

وتناول مجلس الوكلاء (الوزراء) بالدراسة عريضة أحمد مختار باشا في يناير/ كانون الثاني ١٨٩٨م ووافقوا على أهمية المشروع المقترح، ولكنهم أرجؤوا دراسته إلى وقت لاحق.

وكان هناك نقاش يدور في إنجلترا منذ عام ١٨٩٦م حول إنشاء خط حديدي من بورسعيد أو الإسماعيلية ويتجه شرقًا ليمر بصحراء سيناء إلى العقبة، ثم يقطع الصحراء العربية إلى الكويت والبصرة، رابطًا بين مصر والهند. وتشكك الإنجليز في أهمية هذا الخط وتحفّظوا على كلفته المادية، إلا أن هذا النقاش المحتدم لفت نظر أحد الصحفيين الهنود واسمه محمد (إنشاء) الله، فطرح عام ١٨٩٧م فكرة إنشاء خط حديدي من دمشق إلى المدينة المنورة، ويمد بعد ذلك إلى اليمن. وتقوم به الدولة العثمانية وتغطّى نفقاته باشتراك جميع مسلمي العالم، وبدأ محمد إنشاء الله حملة صحفية مكثفة في صحف العالم الإسلامي، أسفرت عن ردود فعل إيجابية واسعة، مما حدا بمجلس الوكلاء العثماني إلى أن يأخذ هذه المقترحات بشكل جدي عام ١٨٩٨م.

وكان السلطان عبدالحميد مدركًا أهمية مشروع الخط الحجازي بعدما لمس الفوائد العسكرية للسكك الحديدية في البلقان، وأثرها في سرعة إخماد الثورات التي تنشب في مناطق الدولة، وبخاصة في اليمن، ورأى المنافع الاقتصادية التي جلبها خط حديد بغداد، وحرصه على تنشيط التجارة والنقل بين الأقاليم العثمانية. وكانت تعنيه بالدرجة الأولى مكانته الدينية والسياسية في العالم الإسلامي، وحرصه على إنجاح فكرة الجامعة الإسلامية التي تبناها، وتطلعه إلى التفاف المسلمين حوله في مقاومته للضغوط الغربية على إمبراطوريته، والنشاط الإنجليزي في الجزيرة العربية والبحر الأحمر بعد احتلال عدن. واهتمامه، بوصفه خليفة للمسلمين، بتيسير أمور الحج، والقضاء على معاناة الحجاج من الأوبئة وأخطار الطريق واختصار المسافات والزمن الذي تستغرقه الرحلة.


محطة سكة حديد الحجاز في باب العنبرية بالمدينة المنورة

وبعد هذه الحملات الصحفية المحمومة صار موضوع خط حديد الحجاز مثار اهتمام العالم الإسلامي، وتناولته الصحف بالنقاش من كل زواياه، وتهيأ الناس لتحقيق هذا الحلم.

وفي نهاية الباب الأول تطرق المؤلف إلى شك كثير من رجال الدولة العثمانية في قدرة السلطان على تنفيذ هذا المشروع المعجز. وعلى الرغم من كل هذه الشكوك فقد صدرت الإرادة

كان السلطان عبدالحميد مدركًا أهمية مشروع الخط الحجازي بعدما لمس الفوائد العسكرية للسكك الحديدية في البلقان

السلطانية بالبدء في مشروع إنشاء السكة الحميدية الحجازية بتاريخ ٢ مايو/أيار ١٩٠٠م.

وفي الباب الثاني: تناول المؤلف قضية توفير المبالغ المالية اللازمة لتنفيذ المشروع، ووسائل التمويل الكافي لإنشاء السكة الحميدية الحجازية، وعالج كل مورد واحداً بعد الآخر.

قدرت التكلفة المالية للمشروع في حدود أربعة ملايين ليرة عثمانية إذا مد الخط حتى مكة المكرمة، أما إذا اقتصر على المدينة المنورة فستكون التكلفة ٣٠٨٨٠٠٠ ليرة عثمانية، وكانت الميزانية العثمانية تعاني منذ سنوات طويلة عجزاً كبيراً، وتواجه الدولة صعوبات مالية مع الديون العمومية، مما تسبب في عدم الاستقرار الاقتصادي. ووسط هذه الظروف المادية الصعبة بدأ المشروع، ودُرست كل خيارات التمويل وكان على رأسها قرض قدمه البنك الزراعي العثماني مجزءاً على مدى ثماني سنوات بلغ ٤٨٠٠٠٠ ليرة عثمانية.

وكانت التبرعات والهبات أهم مصدر للتمويل، فشكلت الهيئة المركزية العليا للتبرعات في إستانبول ولها فروع أخرى في الولايات والألوية عرفت بلجان الإعانة للخط الحجازي، وقامت هذه اللجان بدعاية واسعة لجمع التبرعات من داخل الدولة وخارجها، وعملت بكل وسيلة فنية على سرعة وصول التبرعات للهيئة في إستانبول.

وتلقت الهيئة تبرعات سخية من السلطان عبدالحميد كأول متبرع بمبلغ ٥٠٠٠٠ ليرة عثمانية، وتلاه كبار رجال الدولة مثل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام والوزراء وكل منهم تبرع براتب شهر. ثم جاءت التبرعات من رجال الحاشية وأميرات وسيدات القصر السلطاني والولاة ورجال الجيش والأمن ومنسوبي القضاء والتعليم والعلماء والتجار وعامة الشعب. وطبعت تذاكر وطوابع الإعانة من فئات مالية مختلفة لتناسب دخل الأفراد. وكشفت الهيئة دعايتها في الصحف ووسائل الاتصال.

وكانت التبرعات الخارجية عظيمة، وجاءت من كل أقاليم العالم الإسلامي: من المغرب وتونس والجزائر وجنوب إفريقية وبريتوريا ومصر والسودان، ومن شاه إيران وروسيا والبلقان وقبرص وجاوا وماليزيا وسنغافورة والصين، ومن المسلمين في الدول الأوربية، ولكن القسم الأعظم من التبرعات جاء من الهند!؛ فقد نهض المسلمون في شبه القارة الهندية بقسم كبير من تكلفة الخط الحجازي، وتأسست في حيدر آباد لجنة مركزية لجمع التبرعات، وبذلت الجهد في تحصيل مساهمات كبيرة، وفي الدعاية للسكة الحجازية، وشكلت في مصر أيضًا لجان مركزية لجمع التبرعات وتولت إرسالها إلى استانبول.

وقد استحدثت ميداليات وأوسمة ونياشين ورتب وألقاب لتكريم المتبرعين والمساهمين بالجهد الجسدي والفكري والمالي في المشروع، بموجب مرسوم سلطاني صدر عام ١٩٠١م. وكانت الميداليات من درجات ثلاث. وحددت الفئات التي تمنح لها هذه الأنواع.

وبعد الميداليات تأتي الأوسمة والرتب والألقاب.

وقد تحدث المؤلف في هذا الباب عن الاختلاسات التي وقعت في أموال التبرعات، وسوء الاستعمال والتصرف فيها.

وخصصت أبواب أخرى لتمويل مشروع الخط الحجازي ومنها: الأوراق الرسمية ذات القيمة المستعملة في المعاملات الحكومية، والاقتطاعات من رواتب الموظفين، والتبرعات بجلود الأضاحي، والضرائب والرسوم، والفرق الحاصل من تبادل الريال المستعمل في الحجاز مع الليرة المجيدية العثمانية، والامتيازات التي منحت لهيئة السكة الحميدية الحجازية مثل امتيازات استخراج المعادن واستغلال المناجم وغير ذلك.



ندرة المهندسين العثمانيين وعدم وجود الخبرة لديهم مشكلة واجهت المشروع

وفي الباب الثالث: من الكتاب تحدث د. أُفق كولصوي عن عملية إنشاء السكة وبداية التنفيذ الفني للمشروع، وفصل القول في إدارة المشروع، فقد تحدث عن الهيئة العليا للمشروع التي أشرفت على إعداد الخطط وتابعت التنفيذ والإدارة، واللجان المنبثقة منها مثل لجنة الشام ولجنة بيروت ولجنة حيفا وغيرها.

وتحدث عن العاملين فيه من عمال ومستخدمين في عمليات الإنشاء من عسكريين ومدنيين، والمقاولين، والخدمات الاجتماعية والصحية التي وفرتها لهم إدارة المشروع، والتعويضات للعاملين والمعاشات التي تصرف لهم.

ولقد واجهت المشروع ندرة

المهندسين العثمانيين، وعدم وجود خبرة لديهم في أعمال السكك الحديدية، ووظف ١٢ مهندسًا بواسطة وزارة الأشغال العامة، وأرسلوا لعمل التحضيرات الأولية والخطط في الشام عام ١٩٠٠م. ولعدم وجود تجربة سابقة لهم في هذا النوع من الأشغال فقد وقعوا في تخبط واختلاف فيما بينهم مما حدا بوالي الشام أن يطلب من الهيئة العليا لتوظيف مهندس أجنبي خبير بأعمال السكك الحديدية، وفعلاً عين المهندس الإيطالي لابيلا La Bella في وظيفة معاون لرئيس المهندسين، ثم تلاه تعيين المهندس الفرنسي فرنسيس بويون Francsis Buyton الذي أوكلت إليه رئاسة الإدارة الفنية في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٠٠م ، ولكنه استقال من الوظيفة قبل أن يباشرها. ولهذا خلفه المهندس الألماني ميسنر Meissner واشترط هذا المهندس أن يُعيّن معه مهندسون أجانب، لأنه رأى عدم كفاءة المهندسين العثمانيين لما يُكلّفونه من مهام. وأجيب إلى طلبه واضطرت الهيئة إلى توظيف الخبراء الأجانب في المشروع، وهي التي عزمت في أول الأمر على أن تقتصر الوظائف على العثمانيين.

واستخدم رجال من الجيش والبحرية في أعمال الخط مثل التسوية والحفر والردم والنجارة والحدادة، وتولى بعضهم أعمال البرقيات. وشكلت فرق لحراسة الخط والمعدات وحماية العاملين من غارات البدو، وجاء أغلب العسكريين من الجيش العثماني الخامس في الشام والجيش السادس في العراق، وحصلوا على مميزات جيدة.

وكانت تُصرَف للعاملين في المشروع رواتب عالية ويحصلون على بدلات ومعاشات مرتفعة، وتعويضات عن إصابات العمل، وعن الأضرار التي تلحق بهم نتيجة تفجيرات الألغام وغيرها.

ونقلنا المؤلف إلى الجانب التنفيذي للسكة الحديدية الحجازية، فأخذ في الحديث عن توفير المستلزمات المادية والمصانع وفرق العمل، والمصانع التي قامت بتوريدات القضبان الحديدية والقاطرات والعربات ومواصفاتها الفنية، وكيفية نقلها إلى الموانئ التركية ثم نقلها بالبر إلى المواقع وتخزينها، والصعوبات التي برزت في أثناء التنفيذ. وفازت المصانع الألمانية والبلجيكية بنصيب الأسد في توفير القاطرات والعربات والقضبان، كما ساهمت الترسانة السلطانية في إستانبول ببعض الأشغال المهمة خاصة في حالة تعذر تأمين هذه الموارد من الخارج.

وتناول المؤلف المراحل التي قطعت في تنفيذ الخط منذ الاحتفال ببداية العمل فيه في سبتمبر/أيلول عام ١٩٠٠م في دمشق، والأعمال التمهيدية وتحديد المواقع الصالحة لتكون محطات للقطار، ومدى استفادة القرى والمدن من هذا الخط، فقد كان السلطان عبدالحميد يصر على ضرورة سير الخط مع طريق الحج القديم الذي كانت تسلكه القوافل.

ولقد كانت المرحلة الأولى إنشاء الخط من دمشق إلى معان، وبدأ العمل في هذا الجزء من الجهتين أي من دمشق ومن معان بشكل متزامن. وفي سبتمبر/ أيلول عام ١٩٠١م اكتمل الجزء الواصل بين المزيريب ودرعا بطول ١١ كلم. وبعد عام أي في سبتمبر/أيلول ١٩٠٢م وصل الخط من درعا إلى الزرقاء بطول ٧٩ كلم، وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٠٢م وصل من الزرقاء إلى عمّان بطول ٢٠ كلم.

ولقد تأخر العمل في إنشاء الجزء الواصل بين دمشق ودرعا لصعوبات في التنفيذ، واكتمل في سبتمبر/ أيلول عام ١٩٠٣م.



تأخر الجزء الواصل بين دمشق ودرعا لصعوبات في التنفيذ



إحدى محطات سكة حديد الحجاز

بقيت الامتيازات المعطاة للإنجليز محصورة في نطاق ضيق، لتشكك السلطان عبدالحميد الثاني في نواياهم

سكة حديد الحجاز

في دراسة وثائقية جديدة

أما المرحلة التالية فهي من معان إلى المدينة المنورة. وواجهت فيها الأعمال صعوبات جمة نتيجةً لقلة المياه، ولتعرض العمال لهجمات من عربان القبائل، وتكبدت الهيئة خسائر كبيرة، خاصة في الجزء الممتد من العلا إلى المدينة.

وكانت الخطة تقضي مدّ خط فرعي لربط ميناء العقبة بالخط الحجازي، ولقيت هذه الخطة معارضة إنجليزية شديدة.

وكان التصور المستقبلي للخط هو

رأى الإنجليز في ربط ميناء العقبة بسكة الحجاز خطرًا على مصالحهم في مصر وعدن والبحر الأحمر

مده إلى مكة المكرمة ومنها إلى جدة ثم اليمن. وينطلق فرع من المدينة المنورة شرقًا إلى نجد، ومنها إلى الكويت والبصرة ليتكامل مع خط حديد بغداد. وتربط خطوط فرعية القدس وجبل الدروز وعجلون بالخط الرئيس.

وعلى العموم، فقد وصل الخط إلى المدينة المنورة في سبتمبر/أيلول ١٩٠٨م، وبلغ طوله ١٤٦٤ كلم بما في ذلك الجزء الواصل إلى حيفا بطول ١٦١ كلم. كما بلغت التكلفة المالية للمشروع ٣٠٦٥٦١٦ ليرة عثمانية، وبذلك تكون كلفة الكيلو متر الواحد ٢٠٩٤ ليرة. وإذا أضيفت إلى هذه التكلفة مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ليرة خصصت لإكمال النقص الذي حصل في الخط قبيل المدينة المنورة، ومبلغ ١٩٠٧٥٩ ليرة وزعت على الفرق العسكرية التي تولت الحراسة للخط، فوصلت التكلفة إلى ٣٤٥٦٣٧٥ ليرة عثمانية، وارتفعت كلفة الكيلو متر الواحد إلى ٢٣٦١ ليرة عثمانية.

وأورد المؤلف إحصاء لعدد الجسور والأنفاق وفرق العمل والمصانع والمعامل والمخازن وغيرها من الأعمال المساندة للخط.

أما الباب الرابع فقد خصص للحديث عن وضع الخط الحديدي الحجازي بعد اكتمال تنفيذه وتسيير القطارات عليه من ١٩٠٨م - ١٩١٤م، وهي تنقل الناس والعساكر والبضائع بين الحجاز والشام والأناضول. وازداد الضغط على الخط في زمن الحج، ولهذا سيرت ثلاث رحلات أسبوعية بين الشام والمدينة المنورة، فتتحرك من دمشق أيام السبت والاثنين والأربعاء عند الساعة السابعة صباحًا والعاشرة صباحًا والواحدة بعد الظهر. في الوقت نفسه تتحرك من المدينة قاصدة الشام في أيام الثلاثاء والخميس والجمعة. وقد وضعت ساعات تحرك القطار لكي تناسب أوقات الصلاة، وزودت القطارات بمكان للصلاة ومؤذن.

ولقد اختصرت المسافة بين دمشق والمدينة المنورة من أربعين يومًا إلى ٧٢ ساعة، وأحس الناس بمنافع القطار.

وتكلم المؤلف في هذا الباب عن التصورات التي كانت معدة لتطوير السكة ومدها إلى مكة المكرمة وجدة واليمن ونجد والعراق والسويس.

وتحدث عن أزمة مد الخط الحديدي إلى العقبة، فكانت الفكرة أن يربط ميناء العقبة بسكة الحجاز بخط فرعي، يبدأ من معان، ووجدت هذه الفكرة قبولاً شديدًا لأسباب سياسية وعسكرية وتجارية؛ ولكن الإنجليز رأوا في تحقيق هذه الفكرة خطرًا على مصالحهم في مصر وعدن والبحر الأحمر، فعارضوها عندما أعلنوا عام ١٩٠٦م أن العقبة جزء من شبه جزيرة سيناء وهي تابعة لمصر، لكن القوات العثمانية في العقبة تمسكت بها، لأنها جزء من جزيرة العرب، ثم ازداد الوضع خطورة بعد زحف القوات العثمانية إلى طابا واحتلالها. ولكنها اضطرت للتراجع بعد الضغط الإنجليزي على الدولة العثمانية. وبذلك صرف النظر عن ربط العقبة بالخط الحجازي.

وأعطى د. أُفق كولصوي نبذة عن حالة الخط في زمن الحرب العالمية الأولى، وما تعرض له من تخريب في وقت ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية.

ثم ختم الباب الرابع بذكر المنافع السياسية والعسكرية والدينية والاجتماعية التي جنتها الدولة العثمانية من وراء هذا الخط الحيوي.

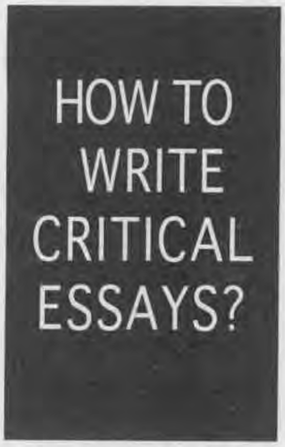
ولاشك أن هذا الكتاب يمثل إضافة مهمة إلى ما كتب عن موضوع الخط الحديدي الحجازي، فهو يتناول بالدراسة فكرة إنشاء الخط، والجهود التي بذلت لتحقيق هذه الفكرة والعقبات التي واجهت المشروع خاصة الصعوبات المالية، ولا يتطرق إلى الجوانب السياسية كثيرًا.

ولأن الدولة العثمانية هي التي أقامت هذا الخط، فمن الواجب دراسة الموضوع من خلال وثائق تلك الدولة، وهذه نقطة تزيد في أهمية البحث، فهو يستند إلى الوثائق التركية الأصلية.

ولهذا أتمنى أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية لينتفع به الباحثون في التاريخ الحديث، وأن يبادر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية لتحقيق هذه الغاية.

أصول البحث الأدبي ونظرية القراءة

ديفيد. ب. بيري مراجعة: فلاح رحيم



كيف تكتب مقالات نقدية ؟
ديفيد. ب.. بيري
لندن: دار روتلج، ١٩٩٢م.

من بين التيارات التي أفرزتها النسبية اللغوية التي هيمنت على الفكر المعاصر، نظرية القراءة، واستجابة القارئ التي تمثّل فرعًا شديد التأثير والحيوية.

وهي نطلقاتها المتمثلة في رؤية النص كيانًا تتحدد هويته من قبل القارئ، وليس المؤلف فقط؛ ودراستها احتمالات التعددية في تأويل النصوص، أعادت التفكير في كثير من مسلّمات الدراسات الأدبية المستقرة. وأود هنا ملاحقة أثر هذه النظرية في الفهم المعاصر لطبيعة البحث الأدبي ومشكلاته كما ظهر في كتاب الناقد ديفيد ب. بيري DAVID. B. PIRIE كيف تكتب مقالاً نقديًا؟» HOW TO WRITE CRTICAL ESSAYS? الصادر عن دار روتلج عام ١٩٩٢م.

يحاول هذا الكتاب، على عنوانه المتواضع الذي قد يدل على أنه أحد الكتب الإرشادية المبسطة، القيامَ بإعادة النظر في مناهج البحث الأدبي في ضوء نظرية القراءة. وهو لا يفقد، على ابتعاده عن الادّعاء، عمقَه التحليلي، وإضافاته التي تختزل الكثير مما يحدث في نظرية الأدب الحديثة.

البداية: قراءة النص

تتمثل أولى خطوات البحث في قراءة النص المزمع تحليله ونقده قراءة متأنية، وهو ما يعني قراءة كل كلمة في النص، وعدم إغفال أي جزء منه مهما صغر شأنه. الخطوة الثانية التي لا مناص عنها، تتمثل في قراءة النص مرة أخرى، فإذا كان النص قصيدة متوسطة الطول وجبت قراءتها بأناة ثلاث مرات على الأقل. أما إذا كان رواية أو مسرحية، فإن الباحث قد يضطر إلى الاكتفاء بقراءة متأنية واحدة، على أن تحدد مقاطع وفصول معينة مما يعدّه الباحث ذا أهمية حاسمة بالنسبة إلى الجانب الذي ينوي بحثه، وهذه يجب أن تقرأ مرتين، وربما ثلاثًا. الخطوة الثالثة هي القراءة بصوت عال خصوصًا في حالة الشعر. وعلى الباحث أيضًا أن يضع معجمًا جيدًا إلى جانبه، وهو يقرأ، ليتأكد من المعنى الدقيق لكل كلمة في النص الذي ينوي دراسته.

تختلف قراءة الباحث عن القراءة الاعتيادية في أنّ الباحث يقرأ، وفي يده قلم، بحثا عن نقاط تستحق التسجيل قد يصادفها. دون هذا القلم سينخفض استعداده الذهني لهذا البحث، ويضيع من ذهنه ما خطر على باله في أثناء القراءة. كما أن القلم هنا ينفعه في تحديد التفاصيل التي قد تكون مفيدة له في بحثه، وكذلك في إعداد قائمة في آخر الكتاب تحتوي على أرقام الصفحات التي تكرر فيها ظهور شخصية معينة، أو موضوع ما، أو كلمة ذات دلالة. لكنّ لهذا القلم واجبًا أهم هو تسجيل الأفكار والأسئلة التي ترد على ذهن الباحث وهو يقرأ. فإذا وجد الباحث أن ملاحظاته لا تحتوي على أسئلة تدفع إلى مزيد من التفكير فتلك إشارة سالبة. كما أن هنالك علامتين سالبتين أخريين: الأولى أن تكون الملاحظات المكتوبة عن كل فصل من النص متساوية الطول، لأن هذا يدل على العجز عن تحديد أي الفصول أولى بالتوقف والتمحيص من سواها، والثانية ألاّ تقوم صلة بين الملاحظات المتعلقة ببداية النص والملاحظات المتصلة بآخره. أخيرًا يفيد القلم في يد الباحث في تسجيل مقتطفات مأخوذة حرفيًا من النص الأصلي يراها الباحث مهمة وجديرة بالتأمل والاقتباس.

ليست عملية القراءة التي يقدم عليها الباحث عملاً عشوائيًا ينطلق من الفراغ، فالباحث يواجه النص محمّلاً بفرضية مسبقة معينة عن النص.

أما فعالياته في أثناء مواجهة النص وبعدها فيمكن حصرها في ما يلي: «الوصف» الذي يجب أن يتجاوز إعادة سرد ما ورد في النص إلى الإسهام في جدل محدد حوله، وهو يتداخل كثيرًا مع فعالية «المناقشة» الفكرية: أي ابتغاء التحديد، وملاحظة التفاصيل، وتشخيص الأجزاء المختلفة التي تقرر الأثر الإجمالي في النص. هنالك أيضًا فعالية «التأويل» التي تتمثل في تحليل الأجزاء التي يتركب منها النص، والبحث عن النماذج التي يتجمع وفقها، ويخلق خطابه الموّحد. يقول بيري «يجب أن يكشف التأويل الأنظمة الأخلاقية والدينية والسياسية للقيمة التي يحاول النص ضمنيًا تأكيدها أو نسفها. ومع ذلك فهذه توجد في البنيان الشكلي للنص، وفي المواد التي تشكل لغته».(ص١٩). أما فعالية «المقارنة» فتعني البحث عن الأرضية المشتركة بين نصّين، وأوجه الاختلاف بينهما أيضًا، وهي لا تعني الاكتفاء بأحد الجانبين كما قد يساء فهمهما. وينطوي «التحليل» على السعي وراء ما له دلالة بين ما يكون عديم الأهمية نسبيًا، وهو ما يتقرر في ضوء الموقع الذي ينطلق منه الباحث، فالفرضية المسبقة التي يحملها هي التي تقرر: أيُّ الأجزاء مهم بالنسبة إليه؟ ويفقد الحكم على قيمة النص أهميته دون أن يقترن بتحليل وتأويل ومقارنة: «لكي تُقوّم يجب أن تؤوّل»(ص٢١). إن مما له دلالة ويستند إلى أركان نظرية القراءة الحديثة تأكيد المؤلف نسبية التأويل، وهو ما يفتح المجال أمام التعددية في التعامل مع النص الأدبي. والمؤلف ينطلق في فتحه باب التأويلات من عوامل تتصل بالباحث نفسه، وبالافتراضات المسبقة التي يدرس في ضوئها النص. فالاختلاف في هذه الافتراضات المسبقة، التي تقررها ثقافة الباحث ومعتقداته، وموقعه الاجتماعي والأخلاقي والحضاري يكمن وراء الاختلاف في التأويلات التي يتوصل إليها الباحثون المختلفون.

لذا يتوجب على الباحث تقديم النص الذي يدرسه وفق شروط قراءته الخاصة المنسجمة مع ذاتها، والابتعاد عن التوفيقية والانتقائية التي تُفقد عمله أصالته.

نظرية الأدب واستخدام المراجع

اتفق واضعو كتب البحث الأدبي على تقسيم المراجع التي يتعامل معها الباحث صنفين: الأول «ثانوي» يتمثل في كتب نظرية الأدب وتاريخه، ونقده، وسيرة أعلامه. والثاني «أولي» وهو النصوص الأدبية التي تتم دراستها أو مقارنتها بعضها ببعض. يعترض بيري على هذا التصنيف الهرمي للمراجع؛ لأنه ينطوي - كما يرى - على تشويش لحقيقة أن النصوص الأدبية «الإبداعية» التي تُقدّم على أنها أولية، ومستقلة بذاتها، هي في حقيقتها مشتقة من مصادر تقع خارجها؛ كأن تكون إعادة تركيب لشذرات من نصوص أخرى يستطيع القارئ المطلع أن يؤولها وفق قراءته لتلك النصوص. وواضح أن بيري ينطلق هنا من مقولة «التناص» التي ظهرت في النقد الحديث بوصفها مبدأ مكوّنًا للنصوص الأدبية كلها.

إن الاقتراح الذي يتقدم به بيري وفق منطلقه الخاص هو التعامل مع النصوص جميعًا، سواء أكانت إبداعية أم نقدية تحليلية، على أساس أنها تمثل أصواتًا تتشكل في خطاب محدد، يتلقاه القارئ مفترضًا أنه يتعامل مع حقيقة موجودة سلفًا نُقلت إليه بأمانة.(ص٣٦).

إن اعتماد بيري نظريات القراءة والتأويل الحديثة يجعله يلحُّ في مناقشته التعامل مع المراجع الأولية والثانوية على حد سواء، على ضرورة إدراك حدود هذه المراجع التي تقررها عوامل النشأة والتاريخ. فالأعمال الإبداعية التي يُفترض أن نقترب منها، ونقرأها لذاتها بمعزل عن التعليقات الواردة عنها في المراجع الثانوية لا تصل إلينا إلا عبر شبكة من الاتصالات الخارجية التي تضغط على استقبالنا لها. بعض هذه الضغوطات مكشوف يتمثل في الهوامش التي ترافق النصوص عادة لتشرح معاني الكلمات الصعبة أو الغريبة فيها، التي يقرر واضع الشروح من خلالها المعنى المقصود نيابة عنا.

كذلك اختيار نص معيّن للدراسة بوصفه من النصوص ذات الامتياز؛ فالذي اختاره لهذا الموقع تقليد أدبي معيّن. وهنالك دائمًا أعمال تُقصى عن ساحة الدراسة المتأنية في حقبة معينة لتعود فتحتل موقع الصدارة في حقبة أخرى. وهكذا، فإن على الباحث إدراك أن مصطلح «أدب» لا يعني كل نصوص الأدب المتاحة في فترة معينة، بل مجموعة صغيرة منها أعطيت امتيازًا خاصًا (ص٣٩)، والتي تقرر هذا الامتياز عوامل لا تنشأ من النص نفسه.

لكن هنالك على الباحث ضغوطات من نوع أكثر تخفيًا يتعرض لتأثيرها عند تعامله مع النصوص الإبداعية الأولية. أولها: تلك التعليمات التي تتخلل تربية الباحث الأدبية بشأن ما يكوّن قصيدة عظيمة مثلاً، والطريقة التي يجب أن تؤوّل بها. والواقع أن كون النصوص الأدبية تؤول في كل حقبة تاريخية بطريقة مختلفة عن سابقتها، إنما هو انعكاس لهذا الضغط الذي تمارسه التعميمات الأدبية السائدة في تلك الحقبة. ولابد للباحث وهو يقرأ هذه التأويلات المتباينة من الانتباه إلى أنظمة القيمة الفاعلة في زمانه ومكانه، التي تقرر اختلاف قراءته عن سابقاتها.

هنالك تأكيد خاص لدور القارئ في تقرير هوية النصوص الأدبية من قبل بيري. إذ يرى أن ما يقرر هذه الهوية ليس شخصية الكاتب فقط، بل الفئة التي يخاطبها هذا الكاتب من القراء. وتتضح أهمية المخاطب في تشكيل هوية النص من ملاحظة الفرق في أسلوب رسالة شخصية مازحة مرسلة إلى أحد أصدقاء الدراسة، وأخرى يحاول المرء فيها إقناع شخص غريب عنه بتوظيفه، أو يبعثها إلى قريب بعيد. إن هذه الفروقات كما يرى بيري ليست فروقات في الصحة والكذب، بل هي نابعة من القيم المشتركة بين كاتب الرسالة ومتلقيها. في ضوء تأكيد دور القارئ يحاول بيري أن يتجاوز النظرة التقليدية إلى الباحث لكونه إنسانًا متميزًا يستجيب بحساسية عالية لمعانٍ يفترض أنها موجودة على الورق وجودًا سكونيًا بمعزل عن العالم الواسع، حيث السياق المؤثر للغة نفسها يتطور على الدوام، وكذلك الأفكار والمجتمعات (ص٤٠ - ٤١). إن الناقد الأدبي التقليدي يسعى بعناد إلى النص ذاته باحثًا عن معان قارّة فيه لا مجال للاختلاف بشأنها، ويري يصف هنا ما استقرت تسميته في النقد الحديث، الأحادية في التأويل، أي الاعتقاد أن للنص تأويلاً واحدًا صحيحًا يكمن ساكنًا في أعماقه. لكن نظريات القراءة الحديثة تحدّت هذا الاعتقاد وأثبتت أن ليس بالإمكان تقديم قراءة بريئة لأي نص أدبي. إن كتابة البحث على أساس أنه استكشافٌ للنص بمعزل عن هوية الباحث، والضغوط التي تمثل شرطه الإنساني وهمٌ يحاول بيري التنبيه على خطورته.

يمكن أن تخضع أهمية النص لإعادات اعتبار مستمرة وفقًا للتغيرات في ظروف قراءته. ويسجّل بيري في هذا السياق مفارقة يتحدى بها النظرة الأحادية للبحث، فهو يسأل: هل ينبثق الإعجاب بنص ما من عنصر الاشتراك في المنظومة الأدبية السائدة أم من عنصر التفرد؟ يؤكد الناقد التقليدي أن المؤلف شخصية متفردة تحمل رؤية نادرة وجديدة، وتبتكر أسلوبها الخاص الأصيل. لكن هذه النظرة تهمل أن النص الكامل التفرد سيعجز عن إنشاء لغة مشتركة مع قرائه. هنا يعرض بيري النظرة الحديثة التي ترفض عزل النص عن لغته؛ فالاعتقاد التقليدي بأن الواقع يوجد مستقلاً عن المفردات التي نصفه بها مرفوض الآن. اللغة ذاتها هي التي تسمح لنا بتشكيل رأي ما في التجربة البشرية: «لا نرى الأشياء منفصلة بعضها عن بعض إلا لأننا نمتلك المفردات التي تقوم بذلك الفصل حرفيًا».(ص٤٣) هذا الدور المتزايد للغة في دراسة الأدب هو الذي يقف وراء التيارات المعاصرة التي تتناول الأدب بحثًا عن الطريقة التي شفّر بها التجربة، اعتقادًا منها أن لا وجود لتجربة خارج التشفير اللغوي.

النصيحة التي يستمدها بيري من نظرية القراءة الحديثة ليقدمها للباحث الأدبي تتمثل في ضرورة الانتباه إلى كتب نظرية الأدب، وإدراك أن النظرة الأحادية إلى الأدب لذاته ليست إلا انتصارًا لنظرية أدبية دون سواها. أما الفكرة التي تنتظم النقاش فهي أنه من غير الممكن قراءة النص الإبداعي وتأويله بمعزل عن استقباله من قبل قارئ محدد تاريخيًا واجتماعيًا وثقافيًا، وأن هويته تتغير حسب اختلاف القراءة.

السيرة الأدبية وتاريخ الأدب

من الأفكار التقليدية المستقرة في مجال البحث الأدبي القول بالفصل بين البحث الأكاديمي SCHOLARSHIP؛ لأنه يتعلق بالحقائق، والنقد بوصفه تعبيرًا عن أفكار وآراء. والمقصود بالبحث الأكاديمي ما يكتبه مؤلفو تاريخ الأدب، والسير الأدبية. يحاول بيري إعادة النظر في هذا الفصل في ضوء نظرية القراءة، فيرى أن كل الفعاليات التي يقوم بها الباحث نتاج قراءة انتقائية. حتى محقق النص الذي يعدّ دائمًا محايدًا وساعيًا إلى النص الأصلي كما وضعه مؤلفه، يضطر إلى القيام بعملية اختيار، فيرفض بعض النسخ ولا يشير إليها إلا في الهامش، بينما يعتمد نسخًا أخرى تشكل المتن. ويصح الحال على مؤرخ الأدب الذي لايستطيع إخفاء انحيازه، أو افتراضاته المسبقة. فضيق المجال المتاح له يجبره على الانتقاء، وهو ما يؤدي لا إلى الهجوم على كثير من الكتّاب فقط، بل وإلى إهمالهم والتزام الصمت بشأنهم، وهو موقف يعتمد الرأي دون شك.

أما ميل تاريخ الأدب إلى حصر اهتمامه في الأدب وحده دون سواه، وسعيه وراء تأثير النصوص بعضها في بعض دون إشارة إلى تاريخ المجتمعات التي أنتجتها وأفكارها، فهو في رأي بيري تحيز آخر يغفل أن اللغة محملة بالآثار الاجتماعية والسياسية المحيطة، وأنها تشكل مادة الأدب الأولى. والأمر نفسه يصح على السيرة الأدبية التي يُفترض أنها تكتفي بتقديم الحقائق عن المؤلف دون تحيز. لكنّ أفضل السير تسعى إلى تشجيع استجابة معينة للنص، وكبح غيرها من الاستجابات. بل إن جنس السيرة الذاتية نفسه ينطوي على إعطاء أهمية كبيرة لمؤلف النص على حساب النص نفسه؛ إنها «شخصية للنص بصفته نتاجًا فكريًا فرديًا مثيرًا للاهتمام». وهو ما يقود إلى تأكيد الشخصيات أكثر من القيم

والأفكار السائدة في المجتمع الذي أنتج النص. ومع ذلك يؤكد بيري أن الباحث يحتاج إلى قراءة التاريخ الأدبي، والسيرة الأدبية، لكن عليه أن يفعل ذلك بنظرة نقدية واعية، وليس على أساس أنها تقدم حقائق مطلقة.

إذا انتقلنا من البحث الأكاديمي إلى النقد الذي يعد تقليديًا تعبيرًا عن أفكار، وجدنا أن بيري يحاول تأكيد الطبيعة النسبية للنقد المنشور بصدد النص موضوع البحث، محاولاً كسر الرهبة التي يشعر بها الكثير من الباحثين تجاه آراء من سبقهم من النقاد. فالنقد في نهاية المطاف قراءة بين عدة قراءات ممكنة، وليس الكلمة الأخيرة. وفي هذا المجال يتقدم بيري إلى الباحث بنصائح محددة تساعده على تجاوز هذه الرهبة؛ أولها: أن يعمد الباحث إلى تعويد نفسه قراءة مراجعات الكتب التي تنشر في الصحافة الأدبية؛ لأنه سيجد فيها النقاد وهم يتعرضون للاتهام بمجانبة الصواب، أو إنتاج كتب غير مفيدة أو مضللة.

وثانيها: أن يقرأ الباحث عدة دراسات نقدية حول النص الإبداعي الذي هو بصدد بحثه، وملاحظة كيف يختلف النقاد؟ ليس في استنتاجاتهم فقط، بل حتى في اختيار المقاطع التي يرون أنها أكثر دلالة في النص. أما ما يتفق حوله النقاد فإن له دلالة في تحديد شيوع مفاهيم معينة في حقب تاريخية بعينها. النصيحة الثالثة تتعلق بزمن نشر المقال الذي يرجع إليه الباحث، فإن من الخطأ تقديس ما كتب في الماضي لمجرد أنه قديم، وعليه دائمًا «حتى إذا كانت قدراته محدودة، محاولة الحصول على مقالات نشرت خلال العشر والخمس عشرة سنة الماضية» (ص٤٩).

يترك الانبعاث المعاصر للاهتمام بالبلاغة بوصفها أحد مكونات الخطاب النقدي أثره الواضح في نصائح بيري؛ فهو يدعو الباحث إلى التعامل مع النقد السابق له لا على أنه محض أفكار يمكن إعادة صياغتها بطرق شتى؛ بل على أنه «ممارسة بلاغية تمّت بحرص. عليه أن يلاحظ كيف يفترض الأسلوب النثري شخصية معينة للمؤلف وأخرى لقارئه؟».(ص٥٠) ويدخل ضمن هذا الباب ملاحظة تقنيات الكتابة النقدية، مثل كيفية إدارة الجدل وتنسيق البراهين. على الباحث من جانب آخر أن يحرص على تسجيل أفكاره الخاصة، تلك التي تخطر على باله في أثناء القراءة، وعدم تأجيل ذلك إلى ما بعد الانتهاء من الكتاب، فهذه الأفكار هي أثمن ما يتبقى لديه من تجربة القراءة بوصفه باحثًا .

إن تأكيد بيري منطلقات نظرية القراءة، ووعي القارئ أولاً في البحث الأدبي يجعله يؤكد نصيحةً طريفة من نوعها للباحث. إنه يدعوه إلى عدم الاكتفاء بالقراءة المعزولة للنص الذي يزمع بحثه ونقده، فالعقول الوحيدة تُصاب بالكسل بعد حين، وتفقد قدرتها على التركيز، ويدب فيها الملل. لذا، فإنه عليه التحدث إلى أناس آخرين عن المشكلات الأدبية التي هو بصددها وحلوله لها، وأن يصغي إلى آرائهم فيها. فالباحث، كما يرى بيري، يحصل على فهم أوضح لأفكاره وموقعه الخاص من خلال شرحها لشخص آخر. وواضح أن بيري ينطلق هنا من فرضية القراءة الحديثة في أن الفكر خارج اللغة، وخارج خطاب محدد أمر مستحيل، أو مشوش في أحسن الأحوال. الأكثر طرافة أن بيري يدعو الباحث إلى شرح أفكاره لأي شخص حتى ولو كان من غير المختصين: أبًا كان أو أخًا أو زوجًا، إذ لابد أن أحد الأقارب أو المعارف سيبلغ حبه للباحث حدًا يجعله يصغي إليه وهو يبلور أفكاره. وفكرة بيري هذه إحدى مسلّمات نظرية القراءة؛ أي وجود «الآخر» كوسيلة بلورة للذات، واستشراف لحدودها وهويتها.

إقامة الحجة في البحث الأدبي

يفقد البحث الأدبي قيمته إذا اكتفى بالتعبير عن أفكار متناثرة. لكي يكون بحثًا مؤثرًا يجب أن يقيم الحجة على جدل محدد، أي أن يمضي الباحث دائمًا باتجاه الدفاع عن قراءة محددة تتجمع حولها كل أطراف بحثه. ويقدم بيري هنا أربعة أنماط من أنظمة التناول قادرة على شد أركان البحث بعضها مع بعض.

١- الأطروحة، النقيض، التركيبة: يمكن للباحث أن ينظم بحثه على شكل محاجّة بين قراءتين تتمتعان بالرصانة على الرغم مما بينهما من تنافس. وبدلاً من اللجوء إلى اختيار مبسط لإحداهما، يمكن له اتخاذ موقع وسط يربط أكثر الجوانب إضاءة في كلتا القراءتين. ويمكن هنا، في أحسن الحالات، تأسيس رأي ثالث متميز تمامًا يظهر نواقص الرأيين اللذين انبثق عنهما (ص٦٣). يمكن للبحث أن يقدم ثلاث أو أربع حالات تركيب من هذا النوع، لكن المهم أن يكون تركيبًا، وليس إنجازًا لما ادعته الأطروحة والنقيض.

٢- المقولة والبرهان: إذا لم يكن الباحث مقتنعًا بإحدى الفكرتين المتصارعتين، فإن عليه تقديمهما باختصار والانتقال إلى الفكرة التي يقتنع بها. وهذه الفكرة ستكون هي الهيكل العظمي الذي يقوم عليه مقاله. إن عليه أن يوسّعها ويفصّلها إلى عدد من الاحتمالات المحددة التي يصب كل واحد منها في الآخر. هذه الفعالية تتجاوز مجرد التجميع العشوائي لما يقوم مثالاً على الفكرة الرئيسة؛ إنها ملاحقة لأمثلة يغني كل واحد منها الفكرة، ويزيدها عمقًا وتنوعًا.

٣- الترتيب حسب زمن التأليف: وفي هذه الحالة يتناول الباحث مجموعة متلاحقة من أعمال الأديب الذي يزمع بحثه حسب تسلسل زمن تأليفها، وهو ما يمنح بحثه بنية مستقرة. إلا أن عليه في هذه الحالة ألا يكتفي بالسرد، بل يحاول ملاحقة جانب فني أو مضموني محدد يثير اهتمامه.

٤- التزام ترتيب النص ذاته: يلتزم الباحث في هذه الحالة الترتيب الذي يقدمه النص لأجزائه. وهذه الخطة في القراءة تعتمد، على الرغم من أن بيري لا يشير إلى اسم ولفغانغ آسر ISER، على نظرية أفق التوقعات عند القراءة. لقد أكد آسر الطريقة التي يؤسس فيها القارئ جملة توقعات في أثناء عملية القراءة سرعان ما يحققها النص أو يحبطها. وبيري يعتقد أن ملاحقة هذه العملية والكيفية التي يبني بها النص توقعاته ويحققها يمكن أن يتخذ من قبل الباحث هيكلاً يقيم عليه بنيان بحثه.

إن هذا الطرح لاحتمالات هيكلة البحث الأدبي يحاول أن يتجاوز التقسيم المعروف للبحث إلى «مقدمة» و«وسط» و«خاتمة» الذي يدعو إلى أن تقدم المقدمة إيجازًا لما سيناقشه البحث والخاتمة خلاصة له. فالبحث الأدبي، بوصفه قراءة واعية ومتماسكة لنص ما، يقوم على هيكل أكثر تماسكًا وتعقيدًا من هذه النظرة المبسّطة.



ليست عملية القراءة التي يقوم عليها الباحث عملاً عشوائيًا ينطلق من الفراغ، فالباحث يواجه النص محمّلاً بفرضية مسبقة معينة عن النص

تاريخ الأيديولوجيات

فرانسوا شاتليه   مراجعة: هشام الدجاني

مفارقة لأيديولوجيا أنها مفهوم نظري وضع في أواخر القرن الثامن عشر ليحل محل علم النفس، وصار إجرائيًا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، غرضه البحث عن دور التصورات والأحاسيس، والأفكار والانفعالات، وغيرها من حالات الشعور في توجيه السلوك الإنساني فردًا وجماعة.

تاريخ الأيديولوجيات (ثلاثة مجلدات) هو قراءة جديدة مبتكرة لتاريخ البشرية تختلف جذريًا عن القراءات السياسية أو الاقتصادية أو الدينية في أنها تنطلق من مسلّمة ضمنية أولى خلاصتها أن الحالات النفسية تشكل في كل عصر من عصور التاريخ، ومع كل أمة من أممه، رؤية خاصة للعالم لا يقل مفعولها في تحريك التاريخ عن العوامل الأخرى التي تعتقد أنها توجهنا، فالصراع بين الأيديولوجيا الاشتراكية والأيديولوجيا النازية، قبيل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها وبعدها، كان له من قوة التأثير في إشعال فتيل الحرب ما لقوة تأثير الصراع في المصالح الاقتصادية الكبرى، لا بل إنه تحول إلى صراع على الوجود، أداتُهُ آلة حربية عملاقة سحقت ملايين البشر، ووضعت الحضارة الحديثة عند نقطة الصفر.

تكشف لنا قراءة «تاريخ الأيديولوجيات» عن جملة من الحقائق يشدد المؤلف منها على حقيقتين اثنتين:

الأولى: أن كل فعالية فكرية أو تصورية يمكن أن تتحول إلى أيديولوجيا، سواء في ذلك الفلسفة والدين، أو العلم والتقنية، أو المذاهب الفكرية والطوباويات.

والثانية: أن تاريخ البشر تحول مع الأيديولوجيات من الرؤية السحرية للعالم إلى الرؤية العقلية والعلمية عبر الدولة والحركات السياسية.

يقع تاريخ الأيديولوجيات في ثلاثة أجزاء يُنيف عدد صفحاتها على ألفٍ ومئتي صفحة في النص العربي. وقام بترجمته إلى العربية د. أنطون حمصي الذي سبق له أن ترجم الكثير من الأعمال الفكرية عن الفرنسية، ومن أبرزها «رأس المال» لكارل ماركس. وهو ينشر ضمن سلسلة «دراسات فكرية» التي تصدرها وزارة الثقافة السورية.

هدف الكتاب طموح ومتواضع كما يقول المؤلف. إنه طموح؛ لأنه تقديم واضح وموضوعي للحضارات والثقافات التي طبعت الصيرورة المثيرة (الدراماتيكية) للمجتمعات المشتبكة بخصومة الطبيعة، والممزقة بصراعاتها، والتي تركت لنا مدلولات وقيمًا مُكوِّنة لواقعنا الحالي. وهو متواضعٌ؛ لأنه لا يمكن في هذا الحد المحدود من الصفحات صياغة تاريخ الفكر من وجوهه اللاشعورية إلى أكثر تعبيراته خضوعًا للتأملات الدينية والفلسفية. ومع هذا (التواضع) استطاع المؤلف أن يظهر انبثاقات مواقف جديدة ابتكرتها الشعوب لتؤكد هويتها، وتوطد سلطتها، وتتعرف بها نفسَها في متاهات الرغبة والقول والأحلام والوقائع.

ومن أجل وصف هذه المواقف في خصوصيتها يستخدم المؤلف تعبير الأيديولوجيا، وهو تعبير مثقل بالمعاني، فهو روابط مجتمعية في الاجتماعيات التقليدية (السوسيولوجيا الكلاسيكية)، وهو إسقاطٌ لوضع واقعي متناقض لدى فيورباخ، وتعليل أخلاقي تنشره الطبقة السائدة عند ماركس، وموضع بلاغة عاجزة عن تسويغ مفاهيمها عند التوسر. ويؤكد المؤلف أهمية إسهام المادية التاريخية في هذا الميدان، فهي لم تتوقف عند أهمية «الأثر الأيديولوجي»، بل مضت في تحليل العلاقة التي يقيمها هذا الأثر. فما يوصف هنا على أنه «أيديولوجيا» هو المنظومة المتلاحمة لصور وأفكارٍ ومبادئ أخلاقية، وتصورات كلية، وشعائر دينية، وخطابات أسطورية أو فلسفية.. منظومة غرضها أن تضبط داخل جماعة ما، أو شعب أو أمة العلاقات التي يقيمها الأفراد بينهمْ ومع الطبيعة والآمال والحياة والموت.

إن الأيديولوجيات، بهذا المعنى، هي رؤية للعالم، هي تصور له على أنه لا يتضمن المعرفة فقط، بل يتضمن أيضًا الرغبات والممارسات، فهي إذن وسيلة لتقديم مجتمع في أكثر سماته الاختبارية دلالة، في نسيج حياته اليومية. إن دراسة «الأيديولوجيا» على هذا النحو هي مدخل لبحوث دقيقة، ولاستيعاب إجمالي لقوام المجتمعات المدروسة.

ويؤكد المؤلف أنه لم يلتزم أية فلسفة للتاريخ تتضمن ضرورة الماضي وترتيب الحاضر، انطلاقًا من مبدأ ما مثل التقدم، أو العودة الأبدية، أو العقل.

هذا «التاريخ» للأيديولوجيات هو محاولة للربط بين الحركات السطحية التي تصل حياة المجتمعات بالتصورات العميقة التي تؤلفها وتحركها، وهو أيضًا تاريخنا، ذلك أنه حاضر بالنسبة إلينا، سواء كان ذلك لأننا نحس أننا متضامنون معه، أم لأننا نكتشف فيه أصولاً كنا قد نسيناها.

يتناول الجزء الأول من «تاريخ الأيديولوجيات»: الديانات حتى القرن الثامن عشر، وهي فترة تاريخية طويلة جدًا (ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة). فهو يتناول في فصوله الأولى كوزمولوجية مصر الفرعونية، وينتهي بدراسة العلاقات بين السلطة الدينية والسلطة السياسية في المسيحية الكارلونجية، وفي الإسلام في القرنين التاليين للهجرة. وامتداده الجغرافي ليس أقل من ذلك؛ فهو يغطي العالم القديم كله من القارة الصينية إلى التخوم الغربية لأوروبا إلى إفريقية. ويجد القارئ في هذا الفصل استبعادًا للمجتمعات التي لم تؤسس دولة، ذلك أن الأيديولوجيا تستلزم من حيث تكوينها وجود سلطة قرار مركزية ودائمة، ونظامًا سياسيًا ينظم ويشرع للجماعة. وهذا لا يعني أن «الأيديولوجيا» نتاج مقصود «وظيفي» أو «بنويّ» للسلطة. والمؤلف يستبعد مثل هذا المخطط، فمحتوى الفصل ينصب على موضوعات شديدة الاختلاف تتشابك داخل جملة أيديولوجية، والعامل المرجع الذي يؤدي دوره في نهاية المطاف هو عامل ابتكاري تعددي؛ ولهذا نجد فصول هذا الجزء تملك الأيديولوجيات من حيث إنها ترسم عالمها، صورة مجتمعها وخيالها، انطلاقًا من تربتها المادية والعقلية الخاصة، من الماضي الذي تعطيه لنفسها، من نموذج اللغة والمنطق اللذين تعبر بهما عن نفسها، عن العلاقات الاجتماعية التي تتخللها. فالفصول المكرسة

لدراسة الكوزمولوجيات القديمة تبحث في تقسيم التربة والنهر على أرض مصر، والحساب البارع في الأيديوغرامات الصينية، والتيوغونيا (نشأة الآلهة) اليونانية. والفصول التي تبحث في الأيديولوجيات ذات الخلفية الوحدانية تحاول إبراز المبادئ التي تقوم عليها الأديان الكبرى الثلاثة المنزلة، أي الديانات التي يغطي التعبير التاريخي عنها جوهرها تغطية كاملة، منظومات الإله والعالم والإنسان التي انطلقت من بلدان الشرق الأوسط، وغزت أوروبا، وانتشرت في العالم بأسره.

ومن الطبيعي أن تطرح هذه الفصول مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة حين يتعلق الأمر بالمسيحية، ومسألة الخلافة حين يتعلق الأمر بالإسلام.

وعنوان الجزء الثاني من الكتاب هو: من الكنيسة إلى الدولة، من القرن التاسع إلى القرن السابع عشر. وأبحاث هذا الجزء خطها زمني بالضرورة، بمعنى أن ثمة نوعًا من المنطق يقود حتما من صورة إلى أخرى، من سلطة غريغوريوس الكبير إلى عهد لويس الرابع عشر مع وفرة الأحداث. والمؤلف هنا يستخدم مصطلحات تاريخية مألوفة مثل العصر القديم، والعصر الوسيط، وعصر النهضة، والأزمنة الحديثة، حتى يسهل فهمها على القارئ. وتحليلات هذا الجزء من «تاريخ الأيديولوجيات» تبرز، بقدر ما تستطيع التخلص من «فلسفة التاريخ والفكرة القائلة: إنه ما من منطق وحداني يسود هذه التغييرات. فكل تشكيلة أفكار، كل منظومة تسويغ للشرعية السياسية، كل مذهب لاهوتي أو فلسفي، حتى عندما يبدو مبهمًا، ملائمة لزمانها، كثيفة ومركزة، ولا ينقصها شيء.

إن الأيديولوجيات أو «تشكيلات الأفكار» هي، قبل كل شيء، مسوّغات لشرعية ما، أدوات للإقناع أو الإخضاع. وبما أنها نتاج صراعات على السلطة، فإنها تنتمي انتماءً كاملاً إلى حاضرها التاريخي والمحلي. ولا شيء يدحضها سوى انهيار القوى السياسية التي تدعمها.

والسلطة الإلهية أو «البوتيستاس» حسب المصطلح اللاتيني كانت محور الفكر في القرون الوسطى حتى عصر النهضة. وموضوع العلاقة بين «البوتيستاس» والسلطة الفعلية أو بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية، يفضي بنا إلى فهم أفضل للصراع بين البابوات والأباطرة، ذلك الصراع الذي يتشابك فيه البرهان بالقوة الغاشمة. ومع تراخي سلطة البابوات لانشغالهم بالرهبانيات كانت سلطة الأباطرة تزداد، ونجح هؤلاء في تنظيم الجيوش، ووضع نظام للعقوبات، وفرض الضرائب، وتحديد الأطر الاجتماعية، بمعنى أن القوة الحقيقية صارت في أيديهم حتى وإن تعايشوا مع سلطة «البوتيستاس».

وفي الجزء الثالث والأخير من «تاريخ الأيديولوجيات» نصل إلى العصر الحديث، ويحمل هذا الجزء العنوان: «المعرفة والسلطة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين».

لقد قدمت تحليلات الجزء الثاني مجموعات الأفكار المتفاوتة في تماسكها، وتنوع عناصرها التي طبعت بطابعها تحولات الإطار الاجتماعي ـ السياسي في الغرب، وهي تحولات تقود من الإمبراطورية الجرمانية المقدسة إلى ملكية لويس الرابع عشر المركزية في فرنسا، من جهة، وإلى مملكة بريطانيا المنشغلة في ذلك الحين من جهة أخرى. هذان القطبان ـ السياسي والاقتصادي يكتسبان استقلالهما الفعلي، ويثيران بعد ذلك مسائل تقتضي إجابات وتعليلات للشرعية، فالنظرية السياسية، ثم الاقتصاد السياسي، يتكونان كمجالين نوعيين للتأمل. بمعنى آخر كان على القرن الثامن عشر أن يفكر في المستجدات المتعددة التي تنبثق من كل مكان. وها هي ذي الحركة الثقافية تتوطد، وها هي ذي اللغات القومية تنتصر نهائيا على اللاتينية، وها هي ذي فلسفة نيوتن الطبيعية تصبح محور اهتمام الكتاب والمثقفين، وليس حفنة من المنشغلين بالعلم فحسب. والناس باتت تتخاطف الروايات وآداب الرحلات.

وفي ثنايا هذا الجزء يجري الحديث عن مشرّعين وفلاسفة وعلماء من أمثال جون لوك، أو هيغل، أو آدم سميث، أو ماركس، أو سان جوست، وذلك بقدر ما ترتبط أعمالهم بـ «الأيديولوجيات». «فأيديولوجيات التقدم» انصرفت إلى دراسة إنضاج المفاهيم التي تنظم فكر الدولة ـ الأمة الآخذة في التشكل، فيدور البحث هنا حول عصر الأنوار، والمبادئ التي استخدمتها الثورة الفرنسية والإمبراطورية النابوليونية التي استولت عليها الإدارة (البورجوازية) في القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. أما «أيديولوجيات القوة» فتبحث في قضايا الحرب والسلم، وما ينجم عنهما من ممارسات في عالمنا.

لقد حاول المؤلف في هذا الجزء الثالث والأخير من مؤلَّفه الضخم أن يبرز تصورات الإنسان ومستقبله التي انتصبت منذ أكثر من ٢٥٠ سنة بقليل على مسار المجتمعات. وهو يرى أن المستقبل فكرة حزينة جدًا سواء من ناحية الآمال الخادعة التي يثيرها، أو الممارسات القاصرة التي يجيزها. ويبدو أن النزعة التشاؤمية هي التي سادت في النهاية عند شاتليه.



تاريخ الأيديولوجيات

HISTOIRE DES IDEOLOGIES

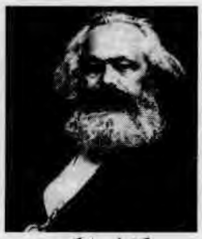
فرانسوا شاتليه

ترجمة: **أنطون حمصي**

دمشق: سلسلة «دراسات فكرية»، وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٧م

ثلاثة أجزاء، ١٢٠٠ص.


هيجل


كارل ماركس


آدم سميث

الأيديولوجيات رؤية للعالم، وتصور له على أنه لا يتضمن المعرفة فقط، بل يتضمن أيضًا الرغبات والممارسات

لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟

مايكل كاريذرس مراجعة: عماد فؤاد

سأل الفيلسوف اليوناني القديم سقراط ذات يوم سؤالاً ظل صداه يتردد عبر السنوات والقرون الطوال: كيف ينبغي للمرء أن يحيا؟ وسؤال كهذا، يستلزم أن نتأمل أنفسنا طويلاً بوصفنا أفرادًا، وبشكل متعمق يفضي إلى أن نغير ما بأنفسنا. ومن جهة أخرى، سأل علماء علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) سؤالاً آخر، وثيق الصلة بسؤال سقراط، وهو «كيف نحيا معًا»؟ وهو السؤال الذي أفضى بدوره إلى مجموعة متنوعة من المشكلات، مثل: «من نحن»؟ و«كيف نترابط بعضنا مع بعض»؟ و«ما الذي حدث»؟!

وسؤال علماء (الأنثروبولوجيا) لم يكن أقل شأنًا من نتائجه، فلقد حثنا سقراط على تأمل أنفسنا بقوله: «ما استحقت الحياة أن نحياها إذا لم نتأملها بشكل جيد». ويصر علماء «الأنثروبولوجيا» على ضرورة أن يتضمن هذا التأمل أيضًا حياتنا المشتركة والمتبادلة اجتماعيًا، فالقول بأن: «الإنسان حيوان اجتماعي» لا يعني وصف طبيعة هذا الإنسان بصفة عارضة أو طارئة، بل بصفة جوهرية تميّز سر ما هو بشري فيه.

فنحن لا نستطيع الاكتفاء بالحياة لمجرد أنها حياة، ولا نستطيع مواصلة وجودنا بشرًا وآدميين دون روح المعاشرة الاجتماعية.

لذا، فإن أي مبحث ينظر إلى البشر بأنهم مجرد أفراد، لا يعدّ من منظور عالم (الأنثروبولوجيا) مبحثًا كاملاً، ونحن لا نستطيع أن نعرف أنفسنا إلا إذا عرفناها عبر علاقاتها بالآخرين.

وفي كتاب «لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟»، الذي يُعَدُّ دراسة منهجية جادة ورائدة في مجال علم الإنسان، والثقافة الاجتماعية، يلتزم مؤلفه مايكل كاريذرس MICHAEL CARRITHERS الأستاذ في قسم الأنثروبولوجيا ورئيسه بجامعة دروهام بإنجلترا، وصاحب الدراسات الأنثروبولوجية النظرية والميدانية الكثيرة، التي طبق فيها مناهج البحث العلمي الحديثة. وتهتم مجمل أبحاثه بمجالات عدة، منها: العقيدة البوذية، والعقيدة اليابانية، وأنثروبولوجيا حضارات الهند وسيريلانكا، وتطور ذكاء الإنسان، كل ذلك يشكّل منهجًا بحثيًا جديدًا، هو المنهج التفكيكي، الذي يعدّ إحدى أهم ثمار نزعة ما بعد الحداثة. ليطل من خلاله إطلالة عقلانية نقدية، تناقش، بشكل علمي ومنهجي جريء وجديد، أسس الروح الاجتماعية المميزة للمجتمع البشري، وإزاء هذه المناقشة، نجد أنفسنا قد وُضعنا في خضم القضايا والتساؤلات التي يطرحها الكتاب، عبر فصوله التسعة، حيث لا مناص من مناقشة أنفسنا، ونقدنا المتأني للواقع المحيط بنا، بل التفتيش في التاريخ الثقافي الذي تربينا عليه، ونحن نظن أنه حقيقة مبرأة من الغرض، ومن ثم نحاول، بالقدر نفسه من الجرأة، مناقشة أنفسنا وفكرنا وعلاقاتنا الاجتماعية، شريطة أن نلتمس المنهجية نفسها في البحث والنظر.

يبدأ مايكل كاريذرس كتابه بتبيان أن تفسير قابلية البشر للتغير أصعب مما كنا نعتقد، أو نظن، فنحن لسنا مجرد حيوانات تصوغها مجتمعاتها وثقافتها، في قوالب على نحو سلبي؛ كُلا في إطاره. بل إننا أيضا نصنع مجتمعاتنا بفعالية ونشاط، فكما قال موريس جودلير: «إن البشر على نقيض الحيوانات الاجتماعية الأخرى، حياتهم مجرد حياة في مجتمع، وإنما هم ينتجون المجتمع ليعيشوا فيه»، وهذا الفعل يستلزم قدرات ذات فعاليات وتأثيرات تثير الإعجاب، ولهذا يؤكد كاريذرس أننا طورنا تلك القدرات، وهي القدرات نفسها التي يلخصها في عبارة «الروح الاجتماعية»، وتشتمل هذه القدرات على الذكاء الاجتماعي، والوعي المكثف بالذات وبالآخر، وبالابتكارية، والفكر الروائي، وجميعها تمثل الطبيعة البشرية المشتركة التي تشكل أساسًا لقابلية التغير الاجتماعي والثقافي. ولعل إطلالة المؤلف على الفكر الروائي تهمنا هنا كثيرًا، لأننا مازلنا أسرى حقبة الثقافة الاجتماعية الشفاهية التي تحيا على الرواية دون رؤية نقدية، ومن ثم فنحن بحاجة إلى تأمل الفكر الروائي الذي يملأ جنبات حياتنا حاضرًا وماضيًا، فهو الذي ينطوي على مختلف قدرات الإنسان من فهم وتفسير وتأويل وتخييل، وقد تتصف به هذه القدرات أو تصيبها عوامل سلبية، وانحيازات متأصلة في طبيعتنا البشرية.

إطلالة أخرى يجتهد المؤلف في القيام بها، وهي تحليله وتفكيكه الصبور لإحدى الثقافات العالمية وهي: البوذية، إحدى أهم الثقافات الأولى في العالم، من حيث تعداد المؤمنين بها، وعراقة تاريخهم الحضاري الطويل، متوصلاً إلى أنها، شأن كل الثقافات، ابتكار بشري محض في مواجهة الإنسان/المجتمع للحياة، فهي صورة مبتكرة عن الحياة، ونهج إنساني إبداعي للتعامل والتفاعل، لكي تمضي الحياة، ولا تتوقف أمام ألغاز معقدة ومتشابكة، وصولاً إلى رؤية إنسانية أشمل، تتطابق مع مقولة الفيلسوف الهندي رادهاكريشنان: «إذا ما تعالينا عن مظاهر الاختلاف بين المعتقدات والثقافات، فسنجدها جميعًا واحدة، لأن الإنسانية في جوهرها واحدة، وإن تنوعت وتعددت ثقافتها»، وهذا هو عين ما يكشف عنه كاريذرس في نهاية كتابه: الجوهر الواحد للإنسانية، روح المعاشرة الاجتماعية، علة نشوء الثقافات، وإن تعددت وتنوعت. وعبر ثلاثة فصول من الكتاب، يستطلع

المؤلف القدرات المنطوية عليها عبارته «الروح الاجتماعية» التي عددناها سابقًا، معطيًا الأولوية للفكر الروائي الذي لم يحظ بدراسة كافية، علاوة على أنه يوجز الروح الاجتماعية البشرية، على النحو الذي يتيح للناس إمكان العمل، وهم على وعي بفيض الأحداث الغارقين فيها، موضحًا كيف يتفاعل عالمنا الاجتماعي ومعارفنا بشكل دائم؟ مبرزًا كذلك الطبيعة التحولية للخبرة البشرية، أو ما لدينا من خصوبة إبداعية فريدة تميز الأشكال الاجتماعية، وكيف أنها وثيقة الصلة بهذه الخاصية التفاعلية؟

وقد ركز كاريذرس في النصف الأول من كتابه هذا، على نطاق صغير ومحدود من الخبرة الاجتماعية، متأثرًا بشكل واضح بالتيارات العديدة السائدة في العلوم الاجتماعية التي لخصها هو في عبارة «النزعة التبادلية ـ MUTUALISM»، ونال أحد هذه التيارات منه اهتمامًا خاصًا، وهو التيار المعنيّ بأدق أنواع التحليل الممكنة للتفاعلات التي تجري بين اثنين أو أكثر من الناس، ويتناولها الواحد بعد الآخر، ومثل هذا النوع من التحليل يجربه ـ في علم الاجتماع ـ علماء متخصصون في مناهج البحث أو «الإثنوجرافية ـ ETHNOMETHODOLOGIST وتحليل المحادثات، كما يجريها في علوم اللسانيات باحثون متخصصون في التفاعل الاجتماعي ـ اللغوي أو.. INTERACTIVE SOCIO LINGUIST.

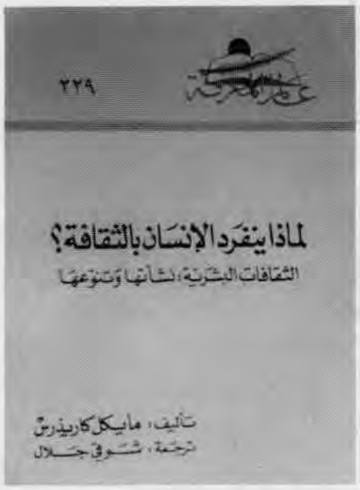
نستطيع أن نقول أخيرًا: إن مايكل كاريذرس يعالج في كتابه هذا، ولو بطريقة تخطيطية عادية، مساحات كبيرة من دائرة المسائل التي تؤلف، في مجملها، مشكلة علم (الأنثروبولوجيا) والبشرية، من حيث هي وحدة في تنوع، وذلك بتوجيه ثلاثة أسئلة وثيقة الصلة فيما بينها، أولاً: «ما الوحدة التي يقوم عليها التنوع الثقافي للبشر؟» والذي كانت إجابة المؤلف عنه هي: أننا، بصفتنا بشرًا، لدينا مجموعة خاصة ومميزة من السمات والقدرات، وهي الروح الاجتماعية، وعلى الرغم من استفاضة المؤلف في شرح إجابته تلك وتأكيدها بالعديد من الأمثلة والشواهد، فقد ظلت إجابة غير مكتملة، خاصة أنه نفسه قد أسقط الكثير من الاحتمالات الواعدة، وأعني الكثير من الصفات التي يمكن أن تشتمل عليها «الوحدة النفسية للنوع البشري»، وعلى الرغم من ذلك أيضًا، يشدد كاريذرس على تلك «الأمور المشتركة» بيننا جميعًا، لأنها: «هي التي هيّأت لنا أن نختلف هذا الاختلاف العقلي العظيم»!

هذه الأمور نفسها، قادت المؤلف إلى السؤال الثاني: «كيف تولّد التنوع؟» وأمام هذا السؤال الصعب، لم يستطع كاريذرس معالجة كل الموضوعات المرتبطة به، وإنما قنع ببيان: «كيف يمكن أن ينشأ التنوع؟»، وكانت إجابته: «أن الناس ليسوا قادرين على اقتفاء فيض معقد من النشاط والأحداث فقط ، بل هم أيضًا قادرون على الاستجابة بطريقة ملائمة داخل هذا الفيض نفسه، فلابد ألا يكون بنا حاجة إلى تصور أنفسنا ككائنات آلية ـ AUTOMATON أو عرائس متحركة.

وعلى مفهومنا للفيض الاجتماعي، وما نفعله داخله، أن يكون خاضعًا للتفاوض بين الأفراد المشاركين فيه، ومن ثم نخلص إلى أننا قادرون ـ أفرادًا ـ على إدراكه، وقادرون ـ جماعة ـ على خلق النظم والمؤسسات الجديدة، والمفاهيم الجديدة لأشكال الحياة.

هذه الإجابة نفسها، تقودنا إلى السؤال الثالث والأخير: «كيف يتسنى لنا أن نفهم عن ثقة ذلك التنوع؟»، وكانت الإجابة: أن أساس المعارف (الأنثروبولوجيّة) ليس مختلفًا عن أساس المعرفة عند أي إنسان في العالم الاجتماعي، وعلى الرغم من مجانبة هذه الإجابة، فهي تتميز كذلك بملاءمتها للسلوك المرن القابل للتكيف، الخاص بالعلاقات البشرية، وكثير من الباحثين (الأنثروبولوجيين) يحوّلون هذه المعارف الاجتماعية إلى نوع آخر من المعرفة، وهو ما اصطلحنا عليه باسم (الإثنوجرافيا)، وهي أسلوب من أساليب التعلم القائم على نموذج قياسي، وثيق الصلة بجماعة محددة من الناس، في أماكن وأوقات بعينها.

إن تعريف علم الأنثروبولوجيا نفسه، كما يشير مايكل كاريذرس في تصديره لهذا الكتاب، هو، تحديدًا، مسألة فهم، أعني أن يفهم أبناء مجتمع ما، أو ثقافة ما، أبناءَ مجتمع آخر، أو ثقافة أخرى، وإذا ما كان علم (الأنثروبولوجيا) يقدم علاجًا لأمراض ما، أو ـ على الأقل ـ يسهل المقدمات الأولى لهذا العلاج، فإن هذا العلاج يتمثل في كلمة من ثلاثة حروف فقط: الـ «فهم»!



لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟
الثقافات البشرية: نشأتها وتنوعها
مايكل كاريذرس
ترجمة: **شوقي جلال**
الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٢٢٩)، الطبعة الأولى، يناير١٩٩٨م.



دبلوماسية المفاوضات البيئية

لورانس إ. سسكند مراجعة: طه عبدالرحمن محمد علي

أصبحت مشكلات البيئة في العالم من أكثر المشكلات إلحاحًا، وخاصة المرتبطة بتأكّل طبقة الأوزون، وظاهرة الاحترار الكوني (تغير المناخ)، وتلوث البحار والمحيطات، بالإضافة إلى الموارد الدولية التي تحتاج إلى حماية مشتركة مثل مصايد الأسماك، والأجناس المهددة بالانقراض والأنهار والمحيطات والغابات، وهي الموارد التي تتخطى حدود الدول.

وتتطلب هذه القضايا تضافر جهود دول العالم أجمع شماله وجنوبه غنيّه وفقيره، فمشكلات البيئة لا تعترف بالحدود، ولذلك فإن الدعوة لتبني قضايا البيئة أخذت بعدًا عالميًا، تَطَلَّب وضع اتفاقيات دولية في مجال البيئة، وتعظيم فن الدبلوماسية البيئية وعلمها.

ويعترف المؤلف لورانس. إ. سسكند في أول صفحات الكتاب أنه ليس من خبراء البيئة، ولكنه يوضح في الفصل الأول الهدف من الكتاب وأنه يفترض أن قارئ كتابه قد يطلب منه - أحيانًا - المشاركة في وفد بلاده إلى مؤتمر دولي بشأن معاهدة بيئية عالمية، فماذا يكون موقفه حينذاك؟!

ويجيب سسكند بأن على القارئ أن يتعرّف التقارير الفنية والعلمية، حتى لا يخضع لضغوط متعددة من جماعات الضغط، فكلما زاد عدد الدول المشاركة، زادت صعوبة الوصول إلى اتفاق شامل، إلى جانب ضرورة وجود سبل أفضل لوجود صيغ محددة للمفاوض في مجال السياسات البيئية العالمية، بحيث يمكن توجيه الضغوط الداخلية والخارجية على لجان التفاوض القومية بطريقة فعالة.

ويعطي الكتاب مثالاً للقضايا التي تتعرض لها لجان المفاوضات، في مؤتمر «قمة الأرض» الذي حضره أكثر من ٤ آلاف مفاوض رسمي، و ٣٠ ألف مفاوض غير رسمي على سبيل المثال، كان هناك أمل في أن يتم التوقيع على اتفاقيات تغير المناخ، وتلوث الهواء عبر الحدود، وإزالة الغابات، وفقد التربة، وزحف الصحاري، والجفاف



والحفاظ على التنويع البيولوجي، وحماية مصادر المياه العذبة؛ ولكن في النهاية تم التوقيع على معاهدة بيئية فقط هي تغير المناخ، والتنويع البيولوجي، وكانت المعاهدة من النوع الذي يسمى اتفاقيات الإطار، حيث لا تحتوي اتفاقية تغير المناخ على أي توقيتات وأهداف أخرى.

قصور في إجراء المفاوضات البيئية

ويحصر المؤلف أوجه القصور في الإجراءات التي تعدُّ مسؤولة عن أغلب الاتفاقيات في المفاوضات البيئية العالمية في أربع نواحٍ هي: إجراءات التمثيل والتصويت لا تضمن المعاملة العادلة لجميع الدول والمصالح. وثانيها: عدم موازنة الاعتبارات العلمية والسياسية بطريقة تضمن الوصول إلى أنسب اتفاق ممكن. ثالثا: عدم استكشاف وصياغة الروابط بين الاهتمامات البيئية وغيرها من المسائل السياسية. رابعًا: عدم التطبيق الفعال لإجراءات الزمن والتنفيذ.



ويرى المؤلف أن الدبلوماسية، في مجال البيئة تحتاج إلى مدخل متفرد نتيجة لأهمية الاعتبارات العلمية، والحاجة إلى مشاركة أعداد كبيرة من المجموعات غير الحكومية، ووجود شك كبير في مجال حركية (ديناميكية) التغيرات البيئية.

ويذكر في الفصل الثاني الخطوات النمطية المستخدمة في وضع الاتفاقيات والبروتوكولات، وهما النوعان اللذان وقعت عليهما الدول من المعاهدات الدولية البيئية في السنوات الأخيرة، وعدم نجاحها في الإلزام بإجراء محدد، بالإضافة إلى ضعف الضوابط التي توضع بشكل ضيق في الوصول إلى نتائج جيدة. ويتناول قضية الإجراءات التي تستخدم في الاتفاقيات الدولية، مثل التصويت، وأسباب ميل الدول أو عدم ميلها للمشاركة في المفاوضات البيئية العالمية، ومصادر قوة المساومة المتاحة لكل منها، وقلة عدد الدول التي وقعت على جميع المعاهدات الدولية البيئية التي اعتمدت خلال العشرين عامًا الماضية، وكثير من الدول وقع على عدد قليل منها.

ويرجع المؤلف ذلك إلى أن عددًا قليلاً من الدول يقوم بدور مسيطر ليس له ما يسوّغه في أغلب مفاوضات المعاهدات، ويدفع بذلك دولاً أخرى، والمصالح غير الحكومية لقبول أدوار ثانوية، واتخاذ موقف هامشي بصدد هذه المعاهدات.

ويركز على مخاطر «العلوم المؤيدة»، أو ما أطلق عليه المؤلف «إساءة استخدام المعلومات الفنية من جانب الدول التي تحاول تحقيق مصالحها القصيرة المدى، واحتمالات صياغة معاهدات «التصحيح الذاتي»، والتركيز على أهمية تشجيع الدول الغنية للدول النامية لمساعدتها على تحقيق معدلات بيئية أعلى، وأنه إذا لم يحدث ذلك، فليس هناك من أمل لتضييق شقة الخلاف البيئي بين دول الشمال والجنوب، أو ردمها.



دبلوماسية البيئة

التفاوض لتحقيق اتفاقيات عالمية أكثر فعالية.

لورانس.إ. سسكند

ترجمة: **أحمد أمين الجمل**

بعض الدول لديها من الأسباب ما يجعلها تلتزم الحيادية في صنع المعاهدات البيئية العالمية

ويرى أن أنسب وسيلة لتحقيق المعاهدات الدولية هي اتفاقيات التطبيق الذاتي، أي: التي تطبقها الدول، والتي تضمن التزام الدول الموقعة عليها، مع ضمان سيادتها القومية على أراضيها ومقدراتها، وتشجيع كل دولة على أن تدخل تعديلات مستمرة في سياساتها وبرامجها في ضوء الدروس المستفادة عن الفوائد والتكلفة الحقيقية لحماية البيئة.

ويشرح المؤلف الصعوبات التي تواجه التأكد من التزام المعاهدات البيئية العالمية، وخاصة في المطالبة المتزايدة بعدم المساس بالسيادة. ويرى أن أنسب وسيلة لتحقيق المعاهدات الدولية هي اتفاقيات التطبيق الذاتي، أي التي تطبقها الدول، والتي تضمن التزام الدول الموقعة عليها، مع ضمان سيادة الدول على أراضيها، إلا أن المراقبين للمعاهدات البيئية التي وقعت على اتفاقيات لحماية البيئة يرون، بل يؤكدون أن ١٥٠ اتفاقية تم توقيعها، خفضت كثيراً من معدل التلوث وبدء عملية حماية المصادر الطبيعية المهمة، وإن كانت تصلح ما حدث من أضرار، بينما لم يدخل حيز التنفيذ إلا عدد قليل من الاتفاقيات، التي تم توقيعها منذ حزيران/يونيو ١٩٩٢م.

يجب ألا تُجبر أي دولة على قبول اتفاقية دولية تضر بها أكثر مما تساعد مواطنيها

إن هناك ثلاث عقبات مهمة تواجه التعاون الدولي في مجال حماية البيئة، وهي الصراع بين الشمال والجنوب حول التقنية الحديثة والمال، وعادة ما يدار الخلاف حول ما إذا كانت اعتمادات تنفيذ اتفاقيات حماية البيئة ستضاف إلى مساعدة التنمية التي تقدم للجنوب، كما أن قضية «السيادة» التي برزت في آذار/مارس ١٩٨٩م، وفي «لاهاي»، قد غابت عن التعاون الدولي في قضية البيئة، عندما اقترح رؤساء وزارات فرنسا وهولندا والنرويج وضع خطة لإنشاء جهاز بيئي تشريعي عالمي، تكون له سلطة فرض ضوابط بيئية جديدة، وعقوبات قانونية ملزمة على أي دولة لا تنفذها، إلا أن هذا الاقتراح أخفق، لأن الدول تقاتل باستماتة لاستمرار حقوقها وامتيازاتها، وحقها في السيادة الوطنية، وكانت أغلب الاتفاقيات البيئية العالمية التي تمت عن طريق مفاوضات غير محددة، لا تحتوي إلا على أحكام ضعيفة للرصد والتنفيذ، ذلك لأن الدول حريصة على الاحتفاظ بالسيطرة على جميع القرارات والسيادة الخاصة بها في مختلف الموارد الطبيعية.

إن كثيراً من الشعوب ترفض المشاركة في المفاوضات البيئية العالمية، لأنها تخفق في عمليات التنفيذ، ويسميهم المؤلف «إنهم يركبون بدون أجر»، فتأثير المشكلات البيئية وتكاليف مقاومتها لن يتم توزيعها بالتساوي، فبعض الدول من الممكن أن تخسر أكثر مما تكسب، ولهذا فإن لديها من الأسباب ما يجعلها تلتزم الحياد في صنع المعاهدات البيئية العالمية.

ويرى المؤلف أنه يجب ألا تجبر أي دولة على قبول اتفاقية دولية تضر بها أكثر مما تساعد مواطنيها، ولا أن توقع على اتفاقية لا تقتنع بها، وإن كانت غير مؤلمة. ويدعو إلى أن يبطئ العالم من معدل التغير البيئي إلى سرعة يستطيع معها المحيط الحيوي أن يتحملها، فهذا هو التحدي الخاص بالدبلوماسية البيئية، ويمكن القيام بتحسين الإجراءات وتقوية المؤسسات التي تعمل لبناء إجمالي عالمي، ويجب ألا تغيب عن المفاوضات القاعدة الأساسية للمفاوضات، وهي التركيز على الجوانب العلمية والسياسية لكل اتفاقية بيئية جديدة.

ويشير المؤلف إلى مبادرة «سالزبورج»، وهي مبادرة ناتجة من اجتماع مجموعة من العملاء والدبلوماسيين والدعاة البيئيين في برنامج عن المفاوضات في مدرسة «هارفارد للقانون»، وخروجهم بمقترحات سميت بمبادرة «سالزبورج».

من المفيد بناء أحلاف غير مركزية بتشجيع الدول ذات المصالح البيئية المشتركة على عقد مؤتمرات قبل المفاوضات الرسمية لصنع المعاهدات، من أجل استكشاف المصالح المشتركة، وتبادل المعلومات الفنية، وتحليل الإستراتيجيات البديلة معًا، وأن تكون هذه الدول من ذات الإقليم البيئي، وذلك لبناء ائتلاف يتعدى الخطوط التقليدية بين الشمال والجنوب، وتقديم مساعدات قبل المفاوضات للدول منفردة، فالدول ذات الموارد المحدودة تحتاج إلى نصيحة الخبراء لمساعدتها، بالإضافة إلى توسيع دور المصالح غير الحكومية، لأن مجموعات المصالح غير الحكومية تقوم بدور متزايد الأهمية في صنع المعاهدات البيئيةعلى مدى العشرين عامًا الماضية، وما تزال مساهماتهم في حاجة إلى الاعتراف بها، وتأكيدها رسميًا من جانب الأمم المتحدة.

ويدعو المؤلف إلى تشجيع وسائل الإعلام على القيام بدور تثقيفي أكبر في مجال البيئة، لأن هذا الدور مهم جداً، وأن تقدم وسائل الإعلام الأطر المحددة لدبلوماسية البيئة وتحديدها بالنسبة إلى العلاقات الدولية، لأنه من الواجب على وسائل الإعلام أن تقدم مساحة ووقتًا إضافيين للأخبار البيئية سواء من موقع الحدث البيئي نفسه، أو تغطية المفاوضات الجارية بهذا الشأن، حيث يضطلع الإعلام بدور بارز في نشر الوعي البيئي، بالإضافة إلى أن إنشاء أكاديمية لدبلوماسية البيئة مهم جدًا، ويمكن لها أن تعمل كموقع للتدريب لمندوبي الدول المندوبين غير الحكوميين لبناء مهاراتهم في المفاوضات البيئية.